

• روما لم تعد في روما
• المحراب المضيء أو «مصباح النعش»

تأليف:

جبرييل مارسل

ترجمة وتقديم:

فـؤاد كامـل

مراجعة:

محمد إسماعيل محمد

العدد الثاني عشر

نوفمبر 2009

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت



من الأعمال المختارة

جبرييل مارسل

• روما لم تعد في روما

• المحراب المضيء أو «مصباح النعش»

ترجمة وتقديم:

فــؤاد كــامل

مراجعة:

محمد إسماعيل محمد

الطبعة الثانية ٢٠٠٩

من
المسرح العالمي

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
دولة الكويت

almasrahalaalami@yahoo.com
almasrahalaalami@gmail.com

www.kuwaitculture.org

من الأعمال المختارة
جبرييل مارسل

ترجمة وتقديم: فؤاد كامل

مراجعة: محمد إسماعيل محمد

الطبعة الثانية ٢٠٠٩ / الطبعة الأولى ١٩٨٩
دولة الكويت

ISBN: 978 - 99906 - 0 - 292 - 0

رقم الإيداع: (٢٠٠٩/٠٣٦)

من الأعمال المختارة

جبرييل مارسل

- روما لم تعد في روما
- المحراب المضيء أو «مصباح النعش»

الفهرس

* * *



مقدمة لمسرحيّة

«روما لم تعد في روما»

بقلم المترجم

كتب جبرييل مارسل هذه المسرحية عام ١٩٥٠، وعُرِضت على المسرح في العام التالي. وقد أثارت حين صدورها ضجة كبيرة بين نقاد المسرح، وبين المثقفين بوجه عام، إذ تتعرض لأزمة الضمير التي كان يعانيها المثقفون الفرنسيون في مرحلة من أدق مراحل التاريخ الفرنسي.

وتستمد المسرحية عنوانها من فقرة وردت في مسرحية مغمورة من مسرحيات كورني هي مسرحية «سرتوريوس» Sertorius. و«سرتوريوس» هذا قائد روماني انشق على يوليوس قيصر وأسَّس جمهورية في إسبانيا، وحين فعل ذلك أخذ يبرر لنفسه تمرده على سلطان روما، فقال هذه الأبيات:

«لم أعد أسمِّي روما أرضا تحوطها الأسوار،

تملؤها العادات بالمآتم،

فهذه الأسوار التي كان مصيرها أبدع ما يكون في الماضي..

لم تعد سوى السجن، أو بالأحرى القبر،

ولكن، لكي تُبعث من جديد في قوتها الأولى،

انفصلت تمام الانفصال عن الرومان المزيفين،

ولما كُنت أملك الآن كل دعائمها الحقيقية،

فإن روما لم تعد في روما، لكنها تكون كلها حيث أكون».

وهذه الأبيات يستشهد بها بطل المسرحية «بسكال لومبير» ليعارضها في الختام.

و «بسكال لومبير» أستاذ الأدب بالكوليج دي فرانس، تصطرع في نفسه أزمة ضمير حادة. ففي أثناء الحرب العالمية الثانية هاجر عدد من المثقفين الفرنسيين

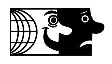


مــن موطنهم من دون رغبة في العودة، تدفعهم إلى ذلك مبررات وجيهة أحيانا، وغير وجيهة أحيانا أخرى. وأيا كانت الحال، فقد كانت هذه المشكلة من مشكلات الساعة الحارقة بالنسبة إلى المفكرين الفرنسيين.

وقد جعل «جبرييل مارســل» من «بســكال لومبيير» مفكرا أمينا مخلصا لنفســه، حتــى يقلب الرأي في هذه المشــكلة على وجوهه جميعا. أمــا زوجته «رينيه»، التي ينقصهــا الإخلاص والعمــق، فلم تكن جديرة بزوجها، وحين أحســت بالخطر الذي يتهدد فرنســا – وهو في الحق خطر موهوم مُبَالغ فيه – اتخذت من تعرُّض طفليها لهذا الخطر ذريعة تضغط بها على زوجها للهجرة من فرنســا إلى البرازيل. والواقع أنها لم تكن تفكر إلا في أن تجعل نفســها بمأمن من ذلك الخطر، وأن تلحق بعشــيق لها في البرازيل يدعى «كارلوس».

ومن ثم فقد ناشدت هذا العشيق – من دون علم زوجها – أن يجد لبسكال منصبا فــي إحدى جامعات البرازيل. وفعلا تبدأ المســرحية بوصول رســالة من «كارلوس» تتضمــن خبر توقُّفه في العثور على هذا المنصب. ونفهم أيضا في الفصل الأول من المسرحية أن «رينيه» تشك في وجود علاقة غرامية بين زوجها وأختها غير الشقيقة «إســتير». ولهذه الأخت ابن هــو «مارك – أندريه»، ويمثل هــذا الابن ما كان يعانيه الشــباب الفرنسي في تلك الآونة من ضياع وانحلال وفساد وافتقار إلى الهدف. فلم يكن ثمة ما يدافع عنه، أو على حد تعبيره أنه لم يكن يريد أن يموت من أجل لاشيء. ومع ذلك – بل من أجل ذلك – نشــعر بكثير من التعاطف مع هذا الشــاب الذي يعد ضحية يمكن علاجها أكثر من أن يكون مذنبا لا سبيل إلى التكفير عن خطيئته.

وفي المسرحية شخصية أخرى هي شخصية «روبير» شقيق «إستير»، وهو ماركسي متمســك بعقيدته، يرى أنه من الممكن قيام شيوعية فرنسية تستطيع الحيلولة دون أي غزو أجنبي لفرنسا. وهو يأخذ على «بسكال» – في مناقشة حامية دارت بينهما – «ضميره البورجوازي المنحل» الذي لا يســتطيع الاختيار، واعتناق قضية أو رسالة يكــرس لها حياته، ويدفعــه إلى تقدير العواقب الوخيمة التــي تترتب على هربه من فرنسا في مرحلة حرجة من تاريخها، ويقول روبير في معرض هذه المناقشة:



«... إنــك إذا كنــت قد ملكت من الجرأة ما جعلك تعامل فرنســا على أنها جثة، وتدَّعي ادعاءً عجيبا أنك تصحب روحها نحو الشواطئ البرازيلية، فإنني أنا وأصدقائي قد تعهدنا بالمحافظة على فرنسا حقيقة، وليست ميتة، فرنسا الثورية التي لم يسمح لك ضميرك السيئ – ضميرك البورجوازي المرهون – بأن تعترف بوجودها».

(الفصل الثالث – المنظر الأول)

غير أن «بسكال» لا يقتنع بحجج «روبير»، بل يخضع في نهاية الأمر لإلحاح زوجته، ولكن بعد أن يقنع «إستير» بأن تصحبهما هي وابنها «مارك – أندريه» إلى البرازيل.

وفي البرازيل، يتعرض «بسكال» لضغوط من نوع آخر. ففي تلك البلاد المتمسكة بالكاثوليكية، الحريصة على التقاليد، ينبغي على الأســتاذ الجامعي أن يحترم «الرأي العام»، أو على الأقل أن يتظاهر بهذا الاحترام، وهذا التظاهر شيء شديد الوطأة على نفس متحررة، مخلصة لنفســها كنفس «بسكال لومبيير». وهنا تنفجر «أزمة الضمير» من جديد بصورة أعنف، خصوصا حين يعلم بسكال أن «كارلوس» مضيفَه – وعشيق زوجته في الوقت نفســه – قــد تعهَّد للجامعة بأن يضمــن «تصرفاته» أي باحترامه التقاليد وأدائه الشعائر الدينية... الخ.

وهكــذا تتبدد أوهام «بســكال» الــذي كان يتوقع حياة حرة في وطنه الجديد شــيئا فشيئا، ويتدخل في حياته أحد رجال الدين هو «الأب ريكاردو» تدخلا أشبه بتدخل رجال محاكم التفتيش، فيكون هو القشة التي قصمت ظهر البعير. يقول له «الأب ريكاردو»:

«... إن ما تسميه تفتحا للعقل يمكن أن يكون ثغرة ينفذ منها كثير من الأخطاء. فهناك في هــذه البلاد القائمة على الجانب الآخر من الأطلنطي، نرى أن مهمتنا هي تحصين العقــول ضدَّ هــذه الأخطاء التي أدينت حديثا جدا، وتعاليم الأدب التي أرشــدت إليها بتوصية أشــخاص من الصفوة مثل كارلوس مارتينيز، هذه التعاليم قدِّرَ لها في تفكيرنا أن تكون بمنزلة معقل ضد تلك الأخطاء البغيضة التي قادت أوروبا إلى حتفها».

(الفصل الرابع – المنظر السابع)

ويطالبــه رجل الدين البرازيلي بصراحة بأن يكشــف في محاضرته عن الأخطاء وألوان التجديف التي تحفل بها كتابات الأدباء الفرنسيين المتحررين من أمثال «جيد» و«بروست»، فيقول:

«... ينبغي أن نعمد إلى مراجعة الأحكام في ضوء الأحداث المعاصرة. كما ينبغي أن نتخلص من ذلك التساهل المجرم الذي أبداه الناس نحو أولئك الذين حطّموا الإيمان، وفتحوا الطريق المؤدية إلى الفوضى. وقد أكدوا لي أنك تنوي محاضرة طلابك عن «جيد» و «بروست»، وعمن لا أدري... وعلى فرض أنهم خولوك هذا الحق، وهذا ما كُلفتُ بإبلاغك إياه صراحة، فسوف يكون ذلك بشرط رسمي: وهو أن تكشف عن الأخطاء، وعن الفظائع التي تحفل بها كتاباتُهم....».

(الفصل الرابع – المنظر السابع)

وحين تتكاثر الهموم على «بسكال»، نراه يعود إلى رأي «روبير» الذي نعلم أنه قتل في فرنسا على يد خصومه السياسيين. فقد أحس «بسكال» بشيء من التقدير لهذا الاستشهاد من أجل العقيدة، ومن ثم فإنه يناشد مواطنيه في رسالة إذاعية يبعث بها من البرازيل أن يبقوا في أماكنهم، بعد أن يذكر الأبيات التي قالها سرتوريوس في مأساة كورني، والتي أوردناها في مستهل هذه المقدمة، ويقول تعقيبا على هذه الأبيات:

«يا أصدقائي، هذه الفكرة باطلة، وهذا ما أريد أن أستصرخكم إياه اليوم. لقد كنا مخطئين حين رحلنا: بل كان ينبغي البقاء، والنضال في أماكننا. والوهم القائل بأننا نستطيع أن نحمل الوطن معنا لا يمكن أن يولد إلا من الغرور، ومن أشد أنواع الاعتداد بالنفس حمقا. وأنتم يا من تترددون حيال خطر الغد، أستحلفكم بالله أن تمكثوا، وإذا كنتم لا تشعرون بالقوة... إذا كنتم لا تملكون القوة...».

(الفصل الخامس – المنظر الأخير)

وكما انتهت مسرحية «الظمأ» بإيمان «أميديه شارتران»، تنتهي هذه المسرحية أيضا بالتلميح إلى اهتداء «بسكال لومبير» إلى الإيمان. ففي حوار بينه وبين «إستير» يقص عليها أنه استمع إلى نداء خفي يطلب منه ألا يخون نفسه، ويضيف قائلا: «... والأغرب من ذلك، أنه في ذلك الصباح نفسه الذي اعتقدت فيه أنني أستمع إلى هذا النداء، صادفت مقابلة غير متوقعة، هي مقابلة راهب شاب حرّكت هيئتُه الجديدة بالإعجاب أعمق أعماق نفسي. ومع أنه ليس من عادتي مخاطبة الغرباء، فإنني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أقول له بضع كلمات.. ولن تتخيلي صفاء الابتسامة التي أضاءت وجهه النحيل... لقد كانت ابتسامة المسيح».
الفصل الخامس – المنظر الأخير

وفي ختام المسرحية، حين لا يجد «بسكال» القدرة على إنهاء رسالته الإذاعية إلى مواطنيه في فرنسا، ويترنح، ويتهاوى على الأرض، تندفع «إستير» نحوه، وفي هذه اللحظة يظهر الراهب الشاب الذي تشبه ابتسامته ابتسامة المسيح، ويتقدم نحو بسكال، حتى إذا همُّوا باعتراض طريقه، قال في رفق:

«سيدتي، دعيني أذهب إليه. أنا أعلم أنه ينتظرني».

وهذه المسرحية التي كتبها جبرييل مارسل في أوج نضجه الفني والفلسفي تؤكد على معنى الواجب، من دون أن تنسى أن لهذا الواجب تفسيرات متباينة وفق استعدادات الأفراد العقلية، بل والعضوية أيضا. ولكن على الإنسان ألا يتخذ سوى الموقف الذي يعتقد أنه قادر على التمسك به إلى النهاية. فنحن نلمس كل ما كان يفتقر إليه «بسكال» لمقاومة زوجته. وهذا الافتقار يعرضه المؤلف ببراعة جديرة بالإعجاب في حوار «بسكال» و «مارك – أندريه» في مشهد رئيسي من مشاهد الفصل الثالث:

بسكال : كلا لم ينعقد عزمي بعد، فمازلت مع شكوكي وهواجسي. ولكنني في الوقت نفسه – لكي أكون مخلصا تمام الإخلاص – ألاحظ أن شيئا في نفسي، في سبيله إلى اتخاذ قرار نيابة عني.

مارك – أندريه : أهذا صحيح؟

بسكال : تقول هذا مسرورا! على حين أنه شنيع.. أشعر بأن الانحلال الذي أصاب بلادي قد أصبح الآن في نفسي، وأنه في سبيله إلى بلوغ غايته، وأنني أشارك فيه. يا طفلي المسكين، أنت تنظر إلي بعينين مذعورتين، بعينين تستجديان.. لن أتخلى عنك يا صغيري مارك – أندريه. ينبغي الاعتقاد – إن كان لهذه العبارة معنى وأنا أجهله – أنني مسؤول عن حياتك، وأنني لا أستطيع أن آخذ على عاتقي تعريضك لليأس والانتحار. ليتك جئت لتراني ذلك المساء الآخر، أنت يا من أراك نادرا... أجل، أعتقد أن هذا



نوع من العلاقـــة. إلا إذا لم أكن أتعلق بهذه الفكرة كذريعة لمحاولة أن أبـــرِّر إزاء عيني ما لا يقبـــل التبرير.. ولكنني، لســـت أدري.. قلتَ كلمة «مظلم» حـــين تحدثتَ عن أولئك الفتيان، الذئاب الذين ينتمون إلى عالم آخر لا اتصال بيننا وبينه... وأنا أقول: ظلمات... ظلمات... ظلمات... هذا هو العنصر الذي أغوص فيه.

مارك – أندريه : إذن، فأنـــت تريـــد أن تقـــول، يا عمـــي، إنه قـــد كان من الأشجع؟...

بسكال : (في حزن عميق) لم أعد أعرف إطلاقا في أي جانب توجد الشجاعة. ولعل هذا هو أسوأ ما اجتازه الآن...

يا بني، أقســـم لك على أن افتقاري إلى الإيمان لم أحسه قط بمثل هذه القسوة، فلو أنني كنت مرتبطا، مرتبطا بالمسيح، فلعل شيئا من النور يوهب لي، وأنا لا أبصر شيئا.

(الفصل الثالث – المنظر الثالث)

والمسرحية تتناول موضوعات شتى، بيد أن محورها الأساسي الذي يدور عليه كل شـــيء فيها وبؤرتها المركزية التي تضيء كل شيء فيها هما ضمير «بسكال لومبير». ومن الواضح أن الأزمة الحقيقية التي يعانيها هذا الضمير هي عجزه عن التحرر من ضرب من الهَوَس الفلسفي الذي ينأى به عن الفطرة الصحية السليمة.

* * *

روما لم تعد في روما

مسرحية من خمسة فصول

تأليف:

جبرييل مارسل

ترجمة وتقديم:

فـــؤاد كـــامـــل

مراجعة:

محمد إسماعيل محمد

العنوان الأصلي للمسرحية

GABRIEL MARCEL

ROME N'EST PLUS DANS ROME

Pièce en cinq actes

LA TABLE RONDE

8 RUE GARANCIERE 6

PARIS

إهداء

إلى جاك هيبيرتو، مع عرفاني الودي بجميله.



شخصيات المسرحية

بسكال لوميير	Pascal Laumière
مارك - أندريه	Marc - André
روبير فيلار	Robert Velars
أولريش شتاينبوك	Ulrich Steinboc
كارلوس	Carlos
الأب ريكاردو	Padre Ricardo
شفرمون	Chevremont
رينيه لوميير	Renée Laumière
أستير بيرول	Esther Peyroll
إينيس	Ines

عُرضت مسرحية «روما لم تعد في روما» أول مرة في ١٩ أبريل ١٩٥١، على مسرح هيبيرتو، إخراج جان فرنييه Jean Vernier، وديكور مونكورلييه Moncorlier.



الفصل الأول

في منزل آل لوميير، خلال شتاء ١٩٥١. داخل المنزل ينم عن مثقف ميسور الحال، فثمة كتب كثيرة، وبعض النسخ الملونة من لوحات حديثة.

المنظر الأول

رينيه، وإستير، وأولريش

أولريش : (مخاطبا إستير في شيء من الحدة) ولكن، يا له من خطأ، يا سيدتي! يا له من خطأ! أستطيع أن أؤكد لك أن الحياة في برلين كانت في تلك الآونة، ممتعة تماما.. أعني قبل وصول الخنزير - كما هو مفهوم - بكل أدواته الهتلرية.

إستير : أما أنا، فأعتقد أنه حتى في تلك الفترة التي تتحدث عنها، كانت الأحداث السياسية مثيرة للانزعاج فعلا.

أولريش : كلا، يا سيدتي، كان السفهاء وحدهم هم الذين يهتمون بالسياسة.

إستير : ألم يكن ذلك من سوء الحظ؟

أولريش : وكيف يكون من سوء الحظ، وفي فرنسا يهتم الناس جميعا بالسياسة.

وها أنت ترين النتيجة! المسارح يا سيدتي، والموسيقى، بوجه خاص.. وعلب الليل التي تحدثوا عنها عندكم، في غير إنصاف. أما نحن، فقد كنا نقطن حيا كل ما فيه أشياء منتقاة.

رينيه : لعلة «وانسي»؟

رينيه : لعله حي «وانسي؟

أولريش : (مبتهجا) أتعرفين وانسي يا سيدتي؟ كلا. لم يكن هو بالضبط، بل أبعد منه كثيرا. وكانت هناك أيضا بحيرة صغيرة، تتألق وراء أشجار الصنوبر، وعليها يستقل

الناس الزوارق في الموسم الجميل... وفي أيام الآحاد كان أصدقاؤنا يأتون لزيارتنا، وهناك تدور مناقشات خرافية، حول كل الموضوعات الجمالية على الأخص.. هذا شيء لن يعود – يا سيدتي – لا هنا ولا في أي مكان آخر. كوني من ذلك على يقين..

إستير : كل هذه الثقافة التي تزهو بها، لم تمنع وقوع الكارثة، ألم تكن سطحية إذن؟

أولريش : إني ارتاب ارتيابا شديدا بكل ما هو عميق يا سيدتي. وربما كان العمق خاصية ألمانية، خاصية تعسة إلى أبعد حد.

رينيه : لست أدري لماذا تسمح أختي لنفسها بأن تناقضك على هذا النحو.

(إلى إستير) إنك لم تعيشي قط في برلين، أو حتى في ألمانيا.

أولريش : من سوء حظك يا سيدتي، بكل تأكيد.

إستير : هذا شيء ما أيسر عزائي عنه.

رينيه : ماذا جرى لك يا إستير!

أولريش : (ناهضا) لا أريد – يا سيدتي – أن أطيل هذه الزيارة التي ربما لم تكن مستحبة. ولنعد إلى الموضوع الذي حملني إليكم اليوم...

رينيه : أجل، سأسأل زوجي عند عودته، إن كان يعرف أحدا في الرباط، أو في الدار البيضاء.

أولريش : من المفهوم أنها ليست سوى خطوة.. فأنا لا أضع في حسباني أن أقيم إلى الأبد في مراكش، وهناك – وهذا شيء بيننا – طبقة من البروليتاريا ستكون مرتعا خصبا للمهيِّجين الشيوعيين، ولهذا لا أحب أن أكون في مكان الأوروبيين في تلك البلاد حين يحدث الانفجار.

إستير : أجل، من المفهوم أنك لا تشغل بالك...

أولريش : أوه! كلا، فلست مطية، وهذا أمر أعلنه لك، صراحة.

إستير : كنا مقتنعين بذلك.

رينيه : وما دخل «المطية» في هذا الموضوع؟ من البديهي أن يتخذ المرء احتياطاته في الوقت المناسب، إذا أتيحت له الإمكانية. أنت على صواب تام، يا سيدي.

إستير : أعترف بأن المسألة بالنسبة إلى المُستأصَلين...

أولريش : نحن جميعا مستأصَلون، وأنتم أيضا مستأصلون،. أنتم يا من تؤلفون الطبقة البورجوازية في باريس.

إستير : كلا، يا سيدي، نحن هنا بين أهلنا، ووسط إخوتنا.

أولريش : ومن هم إخوتك!

إستير : الفرنسيون، بكل بساطة.

أولريش : وأين هي فرنسا؟ لا أحد يدري على وجه الدقة.. ثم، لو سمحت لي بأن أبْدي هذه الملاحظة، وهي أنني لا أراك من ذلك الطراز. أأنت شقيقة السيدة لومبير؟ لا يكاد المرء يقطع بذلك.

إستير : كانت أمي أنا يهودية بولندية.

أولريش : إليك مصداقَ قولي.

إستير : واغتال قومك زوجي، وأنا آمرك بالخروج.

رينيه : ولكنك، لست في بيتك، يا إستير! أتفق معك في أن السيد قد تجاوز حدود اللياقة، ولكن ينبغي القول بأنك من جانبك...

أولريش : ليس من عادتي أن أفرض نفسي. كل ما أطلبه منك هو أن أذكّرك..

إستير : سيعلم زوج أختي من تكون، وأتعهد بأن أوضح له.

أولريش : أما هو، فليس يهوديا، على ما أعلم... وداعا يا سيدتي. (يخرج)



المنظر الثاني

رينيه، وإستير

إستير : يا له من شخص وضيع! أتفتحين بابك لأمثال هؤلاء الناس؟

رينيه : أنــا، لا أعرفه، لقد ترجم لمجلة ألمانية مقالا لبســكال عن «سانت – إكزبيري».

إستير : هذه الشخصية الدنسة تكتب عن سانت إكز... ؟

رينيه : مــا علينا، ما علينــا.. أنت تبالغين، إنــك أنت التي فقدت هدوء أعصابك.

إستير : لنتحدث عن شيء آخر، أتسمحين؟ متى يعود بسكال؟ لديّ بضع كلمات أودُّ أن أقولها له.

رينيه : لست أدري. لا بد أنه في «نادي بن». أهو أمر عاجل؟

إستير : أجل. إنه يتعلق بمارك – أندريه.

رينيه : الواقــع أن مارك – أندريه طلب الحضور لمحادثة بســكال عقب العشاء.

إستير : وأريد رؤية بسكال بالضرورة قبل ذلك.

رينيه : كل هذا يكتنفه الغموض. (صمت)

إستير : ســيطلعك بســكال على كل شــيء، إن رأى ذلــك، ولكنني أعترف بأن هذا سيكون مثار دهشتي.

رينيه : أنت غريبة الأطوار يا إستير، أتعرفين..؟

إستير : غريبة الأطوار؟ في أي شيء؟

رينيه : لا بد أنك أخذت ذلك عن والدتك... فلم يكن أبي قط على هذا النحو. تظهر عليه علامات الشيخوخة بكثرة في هذه الأيام الأخيرة، ألا ترين ذلك؟

إستير : لا أســتطيع أن أفكر فيــه على خلاف ما كنــت أفكر في الماضي. لقد فقدناه فعلا.



رينيه : لا أرى ذلك. فلكي نفقده، لا بد أن نكون قد ملكناه.

إستير : يا لها من كلمة بشعة!

رينيه : إنــه لم يكن قــط جزءا من حياتي. أما بالنســبة إلى أمي، فنعم، الأمر يختلــف.. وتعرفين أنها مازالت تســتطيع أن تكون مسلية على التليفون!

إستير : إنها تقضي حياتها عليه.

رينيه : ضعي نفســك مكانهــا. إن التهابها الرئــوي المزمن ألزمها البقــاء في المنزل، والقراءة ترهق عينيها. ولا نســتطيع أن نطلب منها في الوقت نفسه أن تضع نظارة.

إستير : لمــاذا؟ للحقيقــة لاحظــت أنني سأنســى إعطــاءك هذا الخطــاب، ناولتْني إياه البوابة حين مــررتُ على غرفتها.. خطاب بالبريد الجوي.

رينيه : (في لهفة محمومة) هاتيه.. يا إلهي، إنه من كارلوس!

(تفض الخطاب، تقرؤه، ثم تنفجر باكية)

إستير : ولكن، ماذا أصابك يا رينيه؟ خبر سيئ؟

رينيه : على العكس، شــيء مقطوع الرجاء.. إنــه.. آه! ولكن الله تولانا برحمته.

إستير : والخلاصة، ماذا جرى لكم؟

رينيه : (وهي تناولها الخطاب) تســتطيعين قراءته.. الخلاص، يا إلهي، الخلاص...

إستير : (تقرأ) سان فيليب.. جامعة جديدة.. ما هذا؟

رينيه : ولكنني لا أعرف عنها شيئا، ماذا يمكن أن يصنع ذلك بي؟ كرسي الأدب الفرنسي... على بعد ١٥٠٠ كيلومتر من ريو.. أتفهمين معنى ذلك؟

إستير : أأنت التي كتبت إلى أصدقائك؟

رينيه : بكل تأكيد.. أتذكرين، منذ ثلاثة أشهر تلقى بسكال خطابا غُفلا من التوقيع.

«الشيوعيون قادمون. وأنت في قائمة أولئك الذين ينبغي ترحيلهم. اتخذ احتياطاتك».

إستير : غير أن بسكال لم يأخذ ذلك مأخذ الجد. ولا أنا أيضا.. مجرد مزاح.. سخيف، هذا ما أوافقك عليه..

رينيه : مزاح! ماذا تعرفين عن هذا الأمر؟ وتقولين إن بسكال لم يأخذه مأخذ الجد... أما أنا فأستطيع أن أؤكد لك أنه أمضى عدة ليال مسهدا.. واستهلك أنبوبتين من «السونيريل» في أسبوع واحد.. هكذا!.. كل ما في الأمر أنه أخذ يتظاهر في أثناء الحديث بأن المسألة مجرد هزل. وجاز عليك تظاهره.

إستير : هل علم أنك تكاتبين أصدقاءك هناك؟

رينيه : كلا.. وإلا، لكان قادرا على المعارضة.. من قبيل «الاعتزاز بالنفس».. وحتى لا يبدو في مظهر الخوف.

إستير : هل أنت مقتنعة بأنه سيفوِّت هذا العرض؟

رينيه : من الواضح أنه لن يفعل ذلك، لن يفوِّته. ولكنه سيجد وسيلة يرغم بها يده على التوقيع. أولا، فيما يتعلق بي أنا، المسألة غاية في البساطة، فأنا لم أعد أطيق هذا الجو الذي نعيش فيه منذ شهور.. قراءة الصحف. الأحاديث...

إستير : لست مرغمة على قراءة الصحف.

رينيه : لا أستطيع المخاطرة بأن أبدو بلهاء أمام أصدقائي.

إستير : لا أهمية لرأي الناس.

رينيه : ولكن، أي إستير المسكينة، إنك تعيشين حبيسة ذكرياتك وكتبك، ولا ترين أحدا.. سوى مارك - أندريه.

إستير : (في صوت متهدج) فلندع مارك - أندريه جانبا، من فضلك؟

رينيه : لماذا؟ ها هو السر الذي يبدأ من جديد!

إستير : أزعم أنني أعرف بسكال جيدا بقدر ما تعرفينه، بل أفضل مما تعرفينه من بعض الوجوه، ولست واثقة على الإطلاق بأنه سيرضى بأن يرغم على قبول ذلك الاقتراح.

رينيه : ليس من ذلك بد.

إستير : كيف؟

رينيه : ليس من ذلك بد. ولن يكون له الخيار.

إستير : لك طريقتك الخاصة في النظر إلى التزاماتك.

رينيه : أي التزامات؟ صمم بسكال من دون أن يطلب منه أحد، وضد تعهده الصريح لي على كتابة سلسلة من المقالات عن التطهير في مجلة أسبوعية للقانون، مما جعله العدو الرقم واحد في نظر الشيوعيين.

إستير : العدو الرقم واحد! أنت تغالين.

رينيه : كانت حماقة. لأن هذا التصرف لم ينقذ رأسا واحدا، ولم يؤخر ما حدث يوما واحدا.. كان ذلك لكي يرضي نفسه فقط. أجل، هذا ترف منحه لنفسه. جميل! واليوم، عليه أن يدفع الثمن.

إستير : تتحدثين كما يتحدث خصومُه.

رينيه : لا يوجد سوانا، والأطفال قبل كل شيء. ألا تفهمين؟

إستير : أوه! بلى.. تمام الفهم.

رينيه : أما أنت، فقد احتفظت بعقلية زوجك المسكين في أثناء الاحتلال. وحين يفكر المرء في أن إيمانويل كان يستطيع أن يبقى هادئا معكم في الجزائر، بل كان ينبغي أن يضطلع بمهمة، لا يعلم علمها إلا الله.

إستير : كفى، يا رينيه.

رينيه : هذا ضرب من المرض! مرض عقلي. ينبغي أن أتحدث عنه إلى الأستاذ تيرسلييه Tiercelier. إنه نابغة. وعلى التحليل



النفســي أن يقول كلمته أيضا عن هذه الاختلالات.. حسن، ألا يكفيــك أن كان لك زوج مــات في المنفى.. مات من أجل لاشــيء، أقول من أجل لاشيء. لأننا نرى الآن جيدا أن كل هذا لم تكن له أدنى فائدة، بل مهّد الطريق للشــيوعيين.. والحقيقة، أنني أريد أن أقول لك.. إنك لا تتحملين - على سبيل الحسد والحقد - أن أُفْلت من هذا المصير، على حين أنك لم تفلتي منه.. هذا شيء لا اسم له.

المنظر الثالث

الشخصان أنفسهما، وبسكال

بسكال : ماذا يجري هنا؟

إستير : موضوع المناقشــة الأبــدي يُطْرح من جديد على بســاط البحث. ورينيه تعود إلى هجومها المعتاد على المقاومة.

بسكال : ليســت هذه هي اللحظة المناســبة حقا. وأنت يا عزيزتي رينيه، لم يكن لديك قط أي إحساس بالانتهازية.

رينيه : وبمناسبة الانتهازية أنصحك بأن تتكلم!

إستير : ماذا جرى في «نادي بن»؟

بسكال : كانوا يستقبلون روائيا من أستونيا لا يتحدث الفرنسية، ولم يكن أحد قد قرأ له سطرا واحدا، فكان مشهدا مثيرا!

إستير : حقيقةً.

بسكال : كان الرجــل يبدو جذابا إلى أبعد حــد.. وأعطاني ترجمة ألمانية لكتاب من كتبه الرئيسية.

رينيه : خُيل إليه أن لديك وقتا تضيعه!

بسكال : ومن أنبأك أنه ســيكون وقتا ضائعا؟ قرأت مقالات نقدية ممتازة في المجلات السويسرية - الألمانية.



رينيه : على أنها مراجع!

بسكال : (بغلظة) بأيّ صفة تحكمين عليها!

رينيه : أوثر الانصراف. ســأحضر الأطفال الذيــن ذهبوا لتناول شــيء من الطعام عند ماري بلانــش. (بصوت خافت إلى إســتير) لا تشــيري بكلمة - على وجــه الخصوص - إلى الخطاب. إلى اللقاء.

(تخرج)

المنظر الرابع

بسكال، وإستير

بسكال : إن رينيه تشــغل بالي في هذه الأيــام الأخيرة. كانت دائما بعيدة عن الاســتقرار، وهذا ما تعلمينه جيدا، ولكنها منذ بضعة أيام، عندما لا يثيرها انفعال شديد، تجتاز لحظات مــن الكآبة، تخيفني. وربما كان مــن واجبي ألا أبقيها في باريس. ســاءلت نفســي: ألا ينبغي أن أجعلها تســتقر في الجنوب مــع الأولاد؟ أجل بكل تأكيد، هناك دراســاتهم.. ولكن، كلما رأيت الوقت الذي يضيعونه على هؤلاء الأطفال المســاكين. أتظنــين أن روجيــه يعمل كل الأمســيات حتى الســاعة الحادية عشــرة؟ وهو قد بلغ الثانية عشــرة منذ قليل. إنه متقدم على ســنه، هذا مفهوم، ولكنه في النهاية، أول فصله. إن تعليمنا الثانوي بشع.

إستير : أعــرف ذلك جيدا. ولهذا الســبب ألحقت مارك - أندريه في الأعوام الأخيرة بمعهد «روش»، ولم يتعلم هناك شــيئا عظيمــا، ولكن، على الرغم من هيئته الهزيلة نوعا ما، فإن صحته جيدة.

بسكال : طلب الحضور ليتحدث معي هذا المساء.



إستير : أعلم ذلك... وهذا هو السبب الذي أحرص من أجله على رؤيتك، يا بسكال. خرج هذا الولد منذ بضعة أسابيع عن طوره بمعنى الكلمة.

بسكال : ماذا تعنين؟

إستير : أنت تعرفه، إنه إنسان لطيف، عاطفي. وكان معي دائما غاية في الرقة. وحين تناهى إلينا خبر وفاة والده، لن تستطيع أن تتصور الرعاية التي أغدقها عليّ، كان يقوم كل ليلة مرتين أو ثلاث مرات ليتأكد من أنني نائمة، وحين التحق بمعهد «روش»، كان يغالب نفسه لكي يمتنع عن الكتابة إليّ يوميا.

بسكال : والآن؟

إستير : عندما يقضي السهرة في المنزل مصادفة يمكث أحيانا ساعة كاملة، من دون أن يوجّه إليّ كلاما. وإذا حدث أن نظر إليّ، جاءت نظرته طافحة بالحقد، بل بالعداء.. بسكال هذا فظيع.

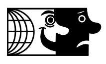
بسكال : ماذا يأخذ عليك؟

إستير : أنني هناك.. أنني موجودة. وقد يخطر لي أن أتمنى الموت لأخلّصه مني.

بسكال : لست أفهم.

إستير : وأنا لست واثقة من الفهم يا بسكال، ولكن يبدو أنني أمثل في نظره ماضيا يريد أن يقطع به كل صلة، لكي يلقي بنفسه كليّة في ذلك الضرب من المغامرة الهائلة المخيفة التي ابتلعت كل أصدقائه الواحد وراء الآخر: «برتراند كان»، «جاك فيل»، «أوليفييه موريزو». إنهم جميعا شيوعيون، ويقوم أوليفييه بتوزيع «الأومانيتيه» يوم الأحد على بوابة ضاحية فانف(*).

(*) ضاحية في الجنوب الغربي من باريس.



بسكال : أتعتقدين أن مارك – أندريه يحسدهم؟

إستير : ليست المسألة بهذه البساطة. فكل هذا يفزعه، ولكنه يؤمن به، وهو على ثقة من أن هذا سيحدث قريبا، وأننا سنُبتلع، وسيلتهمنا ذلك الضرب من العاصفة. وهو لا يحتمل فكرة أنه سيكون ضحية، ويرفضها، ولكن، في الوقت نفسه، ربما لأنني موجودة، بكل ما أمثله في عينيه، فإنه لا يحس بإمكانية الانتقال إلى المعسكر الآخر. وهو لا يعترف بحقه في ذلك، أو لعله لا يملك القوة... وإني على يقين بأنه يضني نفسه حين يتصور حانقا ما أفكر فيه، وما أتمناه، وما أشعر به. وهذا النوع من التعهد الذي وصفته منذ لحظة – أي بسكال – يخلو من كل معنى.. ولو أنني اختفيت مصادفة...

بسكال : تقولين مصادفة؟

إستير : أوه، أجل، مصادفة!.. لن يكون ذلك خلاصا بالنسبة إليه.. بل سيعذبه تأنيب الضمير، وليست لدي القدرة على أن أقيده وأنا ميتة، كما أقيّده وأنا حية.

بسكال : إذن؟

إستير : إنه يختنق، وأنا أيضا أختنق.

بسكال : (بصوت خفيض) أليست المسألة ببساطة أنه خائف مثل رينيه؟ آه لو تعلمين كم هي أيضا!

إستير : رينيه ... ولكن الأمر مختلف.

بسكال : أما أنا، فأعتقد – يا إستير – أنه في الحالتين واحد بالضبط. إنه أشبه بدرجة الحرارة أو بضغط شديد جدا.. حينئذ تنفجر الأوعية.

إستير : وعلى هذا، لا تستطيع الإرادة أن تفعل شيئا؟

بسكال : أشك – في الواقع – أن يكون لها في النفوس الضعيفة أدنى تحكّم.. ولكن، لماذا يحرص مارك – أندريه على التحدث إليّ؟



إستير : لست أدري بالضبط، إنه يكن لك الحب والاحترام.

بسكال : الاحترام! يا لها من كلمة سنة ١٩٥١!

إستير : أنت الرجل الوحيد في الأسرة. ومع روبير...

بسكال : (متألما) أجل، روبير...

إستير : أساء إليه روبير كثيرا.

بسكال : أخوك مخلوق خطر، يا إستير. أدركت ذلك منذ أمد بعيد. وبمنّة غير مفهومة من الظروف وجد نفسه موضوعا في ظروف يُمْكِنها أن تنمي قدرته الشريرة خير تنمية.

إستير : تنطق كلمات رهيبة، يا بسكال.

بسكال : أتدركين ماذا تعني عودته من المنفى... بالنسبة إلى روبير وبالنسبة إلى مكانته؟

إستير : أجل، أعرف.

بسكال : إنه غريب كل الغرابة... ذلك المسكين إيمانويل...

إستير : إنه هو الذي فكّرت فيه.

بسكال : لو أن زوجك قد عاد، فنحن نعرف جيدا، أنا وأنت، أنه لن يحمل معه سوى السلام، نوعا من العزاء الغريب..

إستير : (في صوت خفيض) أجل.

بسكال : أعدت قراءة شهادة زملائه في نوينجام عشر مرات. عاش هناك مثلما يحيا القديس، ومات كما يموت القديس.

إستير : لماذا لا يرجع في الغالب إلا الآخرون.. أولئك الذين لم يتعلموا سوى الحقد، ولم يجمعوا سوى الحقد! أمن الممكن تفسير هذا؟

بسكال : ليس من الممكن تفسيره، يا إستير، ولكن ربما كان من الممكن فهمه. فيما وراء الكلمات.

إستير : أهذا صحيح؟.. كلا، أنا لم أفهم جيدا... لعلك تضع نفسك على مستوى صوفي؟



بسكال : هذه كلمة كبيرة حقا. وأستطيع أن أؤكد لك أنني لم أدخل قط في أي تجربة مباشرة مع الرب. بل لست واثقا بأنني مؤمن به.. ولكنني على يقين من أن هناك ميتات مشمولة بالرحمة.. ميتات من قبيل اللطف الإلهي.

إستير : أليس لكل إنسان الحق في موته؟

بسكال : إستير يا مسكينة، ليس لأحد الحق في أي شيء. (صمت)

إستير : (في حزن عميق) ربما.. قد لا نتحدث، بعد زمن قصير، اللغة نفسها.. بسكال، آه لو تعلم كم يتولاني الشعور بالوحدة!

بسكال : اعلمي – إن كان في هذا ما يعزيك – أنني وحيد أشد الوحدة، أنا أيضا.

إستير : هذا لا يعزّيني، بل على العكس، إنه هَمٌّ جديد يضاف إلى همومي. (صمت)

بسكال : لنعد إلى مارك – أندريه، أتعتقدين أن لأخيك تأثيرا فيه؟

إستير : إنه يبعث في نفسه القلق، هذا مؤكد. ومارك – أندريه لا يحبه، ولكنه يخشى من سخريته، ومن ابتساماته المزدرية، ومن توكيداته التي لا تقبل المراجعة. بسكال، لو استطعت على الأقل – لست أدري – أن تحصنّه ضد...

بسكال : إنني لم أكن منفيا، ولست شيوعيا، وليست السخرية من مواهبي.. ألديك أي فكرة عما يمكن أن يطلبه مني؟

إستير : التوجيه، بكل بساطة.. وما أطلبه منك قبل كل شيء هو أن تترفق به.. إنه طفل تعس كل التعاسة، ولاسيما منذ أن امتنع عن مكاشفتي بأسراره... وسأدهشك يا صديقي.. إنني نادمة لأنه لم يتخذ له عشيقة.

بسكال : وهل يمكن أن تكوني واثقة بذلك؟



إستير : إني مقتنعة بذلك. فقد عذبتني طويلا فكرة أن أتقاسمه مع غيري، ولكنني أقسم لك على أن هذه الفكرة الأنانية قد فارقتني.. وأنا على ثقة بأن العفة بالنسبة إلى شخص مثله تُعَدّ شرا... ولكن، ماذا أستطيع أن أفعل؟

بسكال : أي إستير المسكينة، لن تطلبي مني أن أعطيه بعض العناوين؟.. معذرة، فلن أفعل ذلك، ولكن لو تعرفين كيف أشعر بعجزي عن توجيه نفسي فقط؟

إستير : إن حياتك منظمة يا بسكال، وإذا كانت على هذه الحال، فذلك لأنك لم تكف عن أن تريدها كذلك.

بسكال : قد تأتي لحظة نبدأ فيها نقاسي من هذا النظام، لأننا لم نعد نبدعه.. فمن الممكن أن تتخذ العبودية أشكالا كثيرة! فمنها ما هو محترم شديد الزخرف والزينة.. والحقيقة يا عزيزتي إستير، هي أنني حزين إلى درجة الموت.. وأنا لا أحب نفسي، بل أنفر منها...

إستير : (صائحة) ولكن إذا أنت أحببت نفسك يا بسكال أكنت أنا قد...؟

بسكال : ماذا تريدين قوله؟

إستير : لا شيء لم تعلمه أنت دائما.. (بنبرة مختلفة، تصطنع التعقل) دعك من هذا، لا تتظاهر بالدهشة! لقد أضمرت لك دائما كثيرا من العاطفة، فلا تتظاهر بأنك تكتشف ذلك لأول مرة. وأنت، من جانبك، تحبني.. ولقد برهنت لي على ذلك بما فيه الكفاية! وهذا كله طبيعي جدا. فنحن أناس أسوياء تماما، ليست بينهم غير علاقات سوية.

بسكال : (مرتبكا ارتباكا عميقا) بكل تأكيد.

إستير : ثم إن الاسم الذي يخلعه الناس على مشاعرهم، لا أهمية له، ذلك لأنهم كثيرا ما يخطئون في البطاقة التي يضعونها.



بسكال : أجل.

إستير : إن ما يشغلني، هو ما سوف تقوله لمارك - أندريه.

بسكال : ينبغي أن أسمعه أولا.

إستير : ربما أحس بكثير من الرهبة.

بسكال : أنت تمزحين! فهو نفسه الذي طلب هذا الحوار.

إستير : أتوسل إليك، ألا تدع تلك الدوامة من الشكوك وضروب القلق التي يصارعها تستولي عليك. فهو في حاجة إلى من يحدثه في ثقة، في حزم. هذا ما ينتظره منك.

بسكال : أجل، ولكن، من جانبي، يا إستير...

إستير : إني أسمع صوت رينيه عائدة مع الأطفال. ولن تكون شديدة السرور إن وجدتني مازلت هنا، فنحن نعرفها.

بسكال : طلبتِ مني أن أكون عطوفا على ابنك، ولكن، هل عطفت أنت يا إستير، على رينيه؟

إستير : (في صلابة) كلا، بكل تأكيد، لن أعطف عليها أدنى عطف. إن رينيه من أسعد من عرفت من النساء ومن أكثرهن حظوة في الحياة. فهي تملك كل ما يمكن أن تملكه المرأة: زوجا لاعيب فيه، طفلين جميلين، هي جميلة، وتملك دائما كثيرا من المال، وهذا في نظرها شيء لا يستهان به.

بسكال : إن حساباتك ليست مضبوطة تماما يا إستير.

إستير : وما وجه الخطأ فيها؟

بسكال : راجعيها بعناية، فربما اكتشفت أين يكمن خطؤك.



المنظر الخامس

الأشخاص أنفسهما، ورينيه

رينيه : لم أتوقع أن أراك مازلت هنا. أوه! ليس هذا مَلاما. امكثي للعشاء، إن كان هذا يروقك.

إستير : شكرا، يا رينيه. مارك – أندريه ينتظرني في المنزل.

رينيه : اتصلي به تليفونيا ليحضر إلى هنا هو أيضا، مادمنا ننتظره للسهرة.

إستير : كلا.. أشكرك. لا أحب – بالمرة – هذه اللقاءات المرتجلة. إلى اللقاء.. أرجو عفوك يا بسكال عن كل ما أضعته من وقتك.

بسكال : لا داعي لاعتذارك، فقد كانت هذه المحادثة ضرورية.. إلى لقاء قريب، يا إستير.

(تخرج إستير)

المنظر السادس

رينيه، وبسكال

رينيه : مـاذا يمكن أن تكـون كل هذه الأسـرار؟ أوه! اطمئن، فلن اسألك عن شيء.

بسكال : لا وجود لأدنى سر، كانت أختك تتحدث إليّ عن ابنها.

رينيه : ولماذا في غير حضوري؟

بسكال : تسـتطيعين الظن بأنه من الأيسر أن يكون الحديث حميما بين اثنين لا بين ثلاثة.

رينيه : ألفـت نظرك إلى أننا قضينـا وقتا طويلا على انفراد قبل وصولك.



بسكال : لا أعلم إن كان بينكما أي شيء من تلك الصلة الحميمة.

رينيه : نتيجة لخطئها.

بسكال : المسألة ليست هنا. ولا أدري حقا لماذا أنت شديدة العصبية، هذا المساء.

رينيه : هـذا أقل ما ينبغي.. ولكن، كلا، لسـت عصبية.. وإن كانت تعبيراتكما، أنتما الاثنين حين دخلت.. كلا، هذا شيء آخر.

بسكال : (في جفاء) ماذا؟

رينيه : كان هنـاك... كلا، مـن الأفضـل أن أنتظـر لحظة أكثر مناسبة.

بسكال : من أجل؟

رينيه : لن نلعب ألعابا صغيرة. سأخبرك بذلك فيما بعد.

بسكال : أذكرك بأنني سـأخرج هذا المسـاء نحو الساعة العاشرة والنصف، وسـتكونين نائمة بلا شـك حين عودتي. فليكن ذلك إذن صباح غد.

رينيه : كلا... سأذهب إلى القداس الكبير مع الطفلين. فالقسيس يلح عليَّ أن أصحبهما. عند عودتنا، إذن.

بسكال : سأقضي النهار في متحف الفن مع كورتي.

رينيه : وسـنتناول الغداء عند والـدي (تنهيدة من بسـكال) أنت لطيف...

بسكال : أنا لم أقل شيئا. وفي هذه الظروف، إذا تصادف أن كان ما تريدين قوله شيئا عاجلا...

رينيه : بالمناسبة، حضر ذلك الشتاينبوك ليخبرك أنه سيرحل إلى مراكش. ويسـأل إن كنت تعرف هناك أحدا تسـتطيع أن توصيه عليه.

بسكال : كلا، لا أعرف أحدا. وفضلا عن ذلك، فإن ذلك الشـخص قد ترك في نفسـي انطباعا سـيئا. لا بد أنـه كان نازيا،



والأدهى من ذلك أنه ليست لديه مجرد الأمانة التي تدفعه إلى الاعتراف. مما يثير اشمئزازي.

رينيه : يســتوي عندي الأمر إن فعلت، أو لم تفعل من أجله شيئًا.. أنا مجرد ناقلة.. هذا كل ما في الأمر.

بسكال : ترى أي فساد يمكن أن يصنعه في مراكش؟

رينيه : سيذهب إلى هناك انتظارا للرحيل إلى أمريكا.

بسكال : آه! طيــب! هــو أيضا! الذعــر يزيد حثيثــا. فمنذ لحظة، أخبرونــي في «نادي بــن» أن اثنين من زملائــي يحزمان حقائبهما.. ســيذهب أحدهما إلى جنوب أفريقيا، والآخر إلى شيلي. وهذا كله مثير جدا.

رينيه : من أي وجه؟

بسكال : عليّ أن أكتب خطابا أو خطابين قبل العشــاء، فإلى اللقاء حالا.

رينيه : مثير من أي وجه؟

بسكال : ببساطة، لأن الهروب في حد ذاته شعور وضيع.

رينيه : لست أفهم.

بسكال : إنه لشـــيء محزن. وهذا يثبت أنك نشأت نشأة سيئة جدا، وهذا ما ظننته، كما أنني من جانبي لم أكن قادرا على...

رينيه : أكمِل جملتك.

بسكال : لا أجد الكلمة المضبوطة.

رينيه : إتمام تعليمي؟

بسكال : إذا شئتِ.

رينيه : مــا كان ذلــك ليثنيني عن طبيعتي.. وأنــت لا تتصف بأي صفة تجعلك تدعي هذا الحق.. وأنا أعني.. أي صفة.

بسكال : هذا جائز جدا. غير أن المسألة ليست على الإطلاق مسألة حق. والأرجح أن تكــون... ما علينا، لم يتبقَّ لي غير بضع



دقائق قبل العشاء. ولا أحب أن أضيعها في ثرثرة لا جدوى منها.

رينيه : معي أنا تضيع وقتك؟

بسكال : أحيانا.

رينيه : هذا خســارة حقيقية، لأننا في مستقبل قريب جدا لا مفر من أن نكون معا على انفراد في أغلب الأحيان.

بسكال : (في شرود) ولماذ؟ (صمت) لماذا يا رينيه؟

رينيه : (في صوت مرتجف) عندما نكون هناك.

بسكال : أين ســنكون؟ لست أفهم شيئًا على الإطلاق. (تناوله رينيه الخطاب) ما هذا الخطــاب؟ (يتأمله) خطاب من كارلوس مارتينيز! (يقرأ) إلامَ يشير؟ هل كتبتِ إليه؟

رينيه : أجل.

بسكال : لكــي تطلبي منه أن يجد لي منصبا هناك؟ من دون علمي! بأي حق؟ وهذا الشخص الذي لا أكاد أعرفه، سيتخيل أنك تكتبين إليه بإيعاز مني، وســيعتقد أنني من الجبن بحيث لا أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي!

رينيه : ما أكثر ما تستخرج من أشياء!

بسكال : كنت ســأمنعك، وأنت تعلمين ذلك، ولأنك تعلمين كتبت في الخفاء. تصرفت كطفلة غريرة. ولحسن الحظ، حين أُبرق هذه الليلة نفســها إلى ذلك الرجل برفضي، فسيرى جيدا أن هذا التصرف غير الملائم تمّ من وراء ظهري.

رينيه : تقول إنك سترفض؟

بسكال : كلا، ولكن، بكل جدية، أيراودك أدنى شك في هذا الموضوع؟

رينيه : حذار يا بسكال، المسألة خطيرة.

بسكال : لا أظن أنك تلجئين إلى إرهابي بأي صورة كانت.

رينيه : أنا، لا اعتبار لي، هذا مفهوم. ولكنَّ هناك الطفلين، فهل تأخذ

على نفسك مسؤولية تعريضهما للموت وللتعذيب، وللنفي؟

بسكال : ولأي شيء أيضا؟ التدرج ليس ناجحا غاية النجاح.

رينيه : أتجد في هذا مادة للمزاح؟

بسكال : إن طفليّ فرنسيان صغيران، وسيتبعان مصير أبويهما، وهما أيضا فرنسيان.

رينيه : هذه ألفاظ لا تؤثر فيّ. وعلى حد تعبير ذلك الألماني الذي قال منذ لحظة: أين هي فرنسا؟

بسكال : إن بقاءها يتوقف علينا نحن. وأنت من أولئك الذين يغتالونها، أنت يا من تتخذين من رجل ألماني أستاذا للتفكير.

رينيه : هل أصبحت وطنيا في الوقت الحالي؟

بسكال : إنك لا تعرفين حتى معنى الكلمات.

رينيه : إن مفتش المالية الشاب الذي تعشّينا معه ذلك المساء قالها بحق: منذ حرب إسبانيا، لم تعد ثمة أوطان.

بسكال : ولكن، لسوء الحظ، إنه شيوعي سري، مفتشك ذاك، هذا إن لم يكن عضوا في إحدى الخلايا.

رينيه : سيان عندي. إنه فتى غاية في الذكاء، وأذكر - بين قوسين - أنه سلك سلوكا رائعا جدا في أثناء الحرب، على حين أن بعض الفرنسيين الأصلاء ممن أعرفهم كانوا يضطجعون في بواخر عابرة للقارات على مسند صغير مأخوذ من الهضبة الوسطى.

بسكال : تأخذين عليّ الآن أنني أذعنت لإلحاحاتك حين رفضت الالتحاق بالجيش السري؟ لا، وتضيفين إلى ذلك، أنني سيّئ الطوية. كان من الممكن أن تذهب توسلاتك سُدى، لو لم أقدِّر أن واجبي كان شيئا آخر.

رينيه : واجب أقل مشقة.

بسكال : وأنني لم أكن أتمتع بأي صفة من الصفات المطلوبة للحرب

السرية.

رينيه : لم تكن فرنسا تبدو قط ذات وزن كبير في نظرك في ذلك الوقت. أوه! أجل، لعلها فرنسا الخالدة، ولكن فرنسا باختصار.. كنت تؤثر أن تُبيِّض خمسمائة صفحة عن جوبير. لم يكن في ذلك ما يعرضك للخطر. ولن تمنعني من أن أقول إنك تتصف بوطنية في حالة كسوف. أما أنا، فالأمر عندي أبسط من ذلك، إذ أعلن بكل صراحة أن هذه الكلمة لا معنى لها.

بسكال : اسكتي.

رينيه : لا معنى لها على الإطلاق.

بسكال : وعلى هذا ينبغي على المرء ألا يفكر إلا في إنقاذ جلده.

رينيه : حياة أطفاله، بكل تأكيد.

بسكال : وإذن، لو لم يكن لديك روجيه وإيزابيل، لما فكرتِ في الهجرة عن وطنك؟

رينيه : لست أدري... هذه الـ «لو» لا تهمني.

بسكال : أما أنا، فأزعم أن طفليك مجرد ذريعة، وأنك خائفة خوفا شنيعا، خوفا من العذاب، ومن الجوع، ومن الجراح والتعذيب...

رينيه : بالطبع، أشعر بالخوف. وأنت أيضا. ليتك أبصرت نفسك حين فضضت الخطاب غير الممهور.

بسكال : وهكذا تتهمينني في وقت واحد بأنني خائف وبأنني أتصرف كرجل لا يخاف شيئا.

رينيه : بالضبط. وهذا التناقض هو الذي يثيرني، ويقززني. والحقيقة هي أنك تكذب على نفسك، وأنت تسعى إلى إقناع نفسك بأنك لست خائفا، على حين أنك تشعر أحيانا بالقلق.

بسكال : أنتِ لا تفهمين شيئا. فمن المؤكد أن ثمة لحظات من القلق



الجسماني تعتريني حين تخطر لي فكرةُ ما قد يُفرض عليّ من سوء المعاملة، وأنا لا أفكر في إنكار ذلك لحظة واحدة، سواء أمامك، أو أمام نفسي. كل ما في الأمر أنني عقدت عزمي على ألا أحسب لذلك حسابا، وأن أتصرف كأن هذا الخوف غريب عني.

رينيه : ولماذا اخترت هذا الموقف، من فضلك؟

بسكال : إنها مسألة شرف.

رينيه : بل قل إنها مسألة جمالية. إنك ترعى روحك الجميلة كما ترعى المرأة الجميلة حسنها. وفي سبيل هذا الاهتمام الشخصي، التافه، تنوي تضحية زوجتك وطفليك! هذا شيء غاية في البشاعة. وأنت الآن تُعنى بما سيكتب عنك بعد موتك. أما أنا، فأريد أن أعيش.

بسكال : في الوقت المناسب، ها نحن نرتد صغارا..

رينيه : أولا، لمن أُضَحّي؟ ومن المستفيد من وجودنا هنا؟ أما كتبك، إذا كانت لها قيمة – وهذا ما أجهله – فيمكنك أن تكتبها في أي مكان، بل ربما كان أي مكان خيرا من هنا. وما فائدة أمثالك حين تنسحق باريس تحت القنابل، أو حين تُسَلّم لمجانين الضاحية الحمراء؟

بسكال : ما هكذا يكون التفكير السليم. ولن أضرب بنفسي مثلا على الجبن، ولن أسهم في أن أعرض على كائن من كان صورة لفرنسا ناكرة لنفسها في الذعر والعار.. والآن، هيا إلى العشاء.

رينيه : العشاء! يتصور أنني سأتناول العشاء!

بسكال : أما أنا، فسأتظاهر، على كل حال، من أجل الولدين فقط، تعاليّ.

* * *



الفصل الثاني

المساء نفسه، عقب العشاء.

المنظر الأول

بسكال، ومارك – أندريه

(مارك – أندريه دخل من فوره، ولم يخلع معطفه بعد)

بسكال : مساء الخير، يا بني.. عليك، أولا، أن تتخلص من هذا المعطف. (مارك – أندريه يخلع معطفه، ويضعه على مسند أحد المقاعد) سعيد برؤيتك. لماذا لا تدعو نفسك بدون تكليف إلى الغداء أحيانا؟

مارك أندريه : أكاد أقضي النهار كله تقريبا في الحي اللاتيني. وأنتم تسكنون بعيدا.. ثم إنني لا أحب أن أشعر بالتطفل.

بسكال : ولكن أنت مجنون... لشدّ ما أعاني من افتقاري إلى كل اتصال بالفتيان من سنك. وهذه فرصة لاستئناف هذا الاتصال.. فمرحبا بها.

مارك – أندريه : أعتقد أنك ترانا جميعا مخيبين للآمال، وأنا أولهم.

بسكال : مخيبين للآمال؟ وأسفاه. ألسنا نحن، أعني الأشخاص من جيلي .. ألسنا نحن الذين خيبنا أملكم، نحن الذين تركنا هذا العالم ينحدر صوب الرعب والجنون؟ أعلم جيدا، أننا لا نتحكّم تحكّما مباشرا في الأحداث، ولكن هل كانت رؤيتنا واضحة بما فيه الكفاية؟ وهل عرف أولئك الذين يملكون منا وسائل التعبير إطلاق التحذيرات الضرورية في الوقت المناسب؟

مارك – أندريه : ما كان أحد سيفهمهم.

بسكال : وكيف نستطيع أن نعرف ذلك؟ من المريح حقا أن يُطَمْئِن الإنسان نفسه على هذا النحو. وينبغي ألا نكون قدريين بالنسبة إلى المستقبل. ولكن، علينا في الوقت نفسه ألا نعترف بأن الأخطاء كان يمكن تحاشيها. كان أمامنا الاختيار، ولكننا اخترنا الطريق الخطأ، ولو أننا قضينا على الهتلرية في مهدها... ألا تعتقد ذلك؟

مارك – أندريه : أنا لا أعرف شيئا عن هذه الأمور، ولا أهتم كثيرا بالتاريخ. يكفيني الحاضر.. إنه يكفيني لو أن المرء يستطيع أن يجد فيه متنفسا.

بسكال : إذن فأنت تبحث عن مهرب؟

مارك – أندريه : لو كنت شاعرا أو موسيقيا، أعتقد أنني كنت أستطيع قبول كل شيء... ولكني حُرمت هذه المواهب كما حُرمت المواهب الأخرى جميعها. وهذا شيء ألمسه حين أقارن نفسي بزملائي.. لست أملك أي موهبة. حتى حواسي التي لم تستيقظ..

بسكال : (محرجا) يا بنيّ...

مارك – أندريه : هذا شيء غريب، فأنا لا أشعر بأي حرج حين أفضي إليك بذلك، بل على العكس، أشعر بأن هذا يزيح عبئا عن صدري. لا بد أن هذا راجع إلى مقال لك قرأته حديثا من آمييل، وصعوباته الحميمة.. وقد حاولت.. مع بعض البنات.. وأيضا مع صبي، وخصوصا مع صبي. هل أصدمك؟

بسكال : كلا، يا صغيري.

مارك – أندريه : إنه يبعث الاشمئزاز في نفسي، بل إنه ترك عندي ما يتركه ضرب من الشغل الفظيع... ولا أعتقد أن المرء يمكن أن يسمي هذا ندما. ثم لماذا كان ذلك شرا؟ أتعتقد أنه شر يا عمي أن يتحابّ الأولاد؟

بسكال : لا أستطيع أن أجيبك، فقد تلقيت تراثا مسيحيا ربما أكون قد أسرفت في إنفاقه. وهذا الميراث ينطوي على عدد من النواهي لم أتجشم أدنى عناء في مراعاتها، فلو كنت في مثل سنك وجاء صبي ليعرض عليَّ أن... لطردته بعدة ركلات من قدمي.

مارك – أندريه : طبعا... ولكن حين يبلغ روجيه السادسة عشرة أو السابعة عشرة، ماذا تقول له عندئذ؟ أستكون من أولئك الآباء الذين يُحجمون عن مناقشة موضوعات معينة بصراحة مع أبنائهم؟

بسكال : إن روجيه وإيزابيل يذهبان إلى القداس، كما أنهما أديا تناولهما الأول، بل لقد أدياه في حماس. وآمل أن يعمر الإيمان قلبيهما فالحق أنه في سنهما...

مارك – أندريه : أنت ترجو أن يعمُر الإيمان قلبيهما. فهل أنت على يقين تام من أنه مازالت لهذه العبارات أي دلالة؟

بسكال : مازالت؟ ماذا تريد أن تقول؟

مارك – أندريه : أنت تعرف، أنا أمي تمنت أن أكون بروتستانتيا، أوه. على مذهب بروتستانتي متحرر بقدر الإمكان. وانضممت إلى مدرسة الأحد، واستمعت طوال عامين إلى مواعظ الراعي بروسيون. وانتهى بي الأمر إلى أن استأذنته في توجيه بعض الأسئلة إليه. وفي خلال تلك المحادثة اكتشفت أن ذلك الراعي لا يؤمن ببعث المسيح. وإني لأتذكر الكلمات التي استخدمها. قال لي هذا في غاية من البساطة. فكان ذلك ضربة لازب. إذ ينبغي أن نفهم البعث بمعنى رمزي.. رمزي بحت.

بسكال : يابنيّ المسكين.

مارك – أندريه : ومنذ تلك اللحظة، أخذت أنفر من البروتستانت.

بسكال : إنهم لا يفكرون جميعا على هذا النحو.. بل أبعد من ذلك كثيرا... والكاثوليك...

مارك – أندريه : هؤلاء، لأنهم يمنعونهم عن ذلك.

بسكال : لا أعتقد أن المسألة بهذه البساطة، ثم إني أظن أخيرا أنك لم تطلب التحدث معـي لكي تكلمني عن الدين، أو لتطلب مني رأيي في الحب الإغريقي.

مارك – أندريه : كلا، بكل تأكيد. ولكن المسـائل جميعـا مترابطة، على ما يبدو لي.

بسكال : وكيف هذا؟

مارك – أندريه : أتتصور الجو الذي أعيش فيه يا عمي؟

بسكال : أولا، إن لك أما لا تحيا إلا من أجلك.

مارك – أندريه : سنتحدث عن أمي حالا. ولكن ما مستقبلي؟

بسكال : المسـتقبل مجهول بالنسبة إلينا جميعا، وأتفق معك في أنه مشحون بالخطر.

مارك – أندريه : (منتعشـا) عشـتَ، وأنا لا أعلم جيدا كيـف كانت حياتك، ولكنك على كل حال، كتبت، وأحْبَبْتَ، وآمنتَ بأشياء... وإن كنـت لا أعلم بما آمنتَ. وفي مثل هـذه الظروف لا تتخذ كلمة المستقبل المعنى نفسه الذي تتخذه بالنسبة إلينا نحن الآخرين. فلا بد أنك تشعر على الأقل بأنك حققت رسالة معينة.

بسكال : هذه كلمة كبيرة، وأنت ترغمني على أن أفحص ضميري.

مارك – أندريه : (في رفق بالغ) عمي بسكال، من أنت؟

(صمت)

بسكال : (في صوت متغير) أنت تفهم يا مارك – أندريه. عشتُ في فترة لم نكن مرغمين فيها على وضع مثل هذه الأسئلة، كنا محصورين في إطار، ومحمولين أيضا.

مارك – أندريه : ولكن، اليوم؟

بسكال : تداعت الصروح.، هذا حق، ولم تبق إلا الكنيسة.

مارك – أندريه : ولكن بالنسـبة إلى من ليس لديه... فلنقل إذا شئت سعادة الاعتقاد، بالنسبة إليّ، أو بالنسبة إليك أنت، أليس كذلك؟ ما الكنيسـة؟ أناس في إسـبانيا وإيطاليـا وكندا يعقدون اتفاقات مع الرجعية، ويقدمون ذريعة للماركسيين.

بسكال : ليس ما تقوله باطلا تمام البطلان، ولكنك تردد ما حفظته في هذه اللحظة.. وما لا أفهمه جيدا هو: لماذا لم تكن شيوعيا؟

مارك – أندريه : كلا، ففي رأيي أن ذلك ليس حلا.

بسكال : هذا أفضل.

مارك – أندريه : تقول هذا أفضل. ولكن ربما كان أسوأ.

بسكال : (في مودة) أفضل بالنسبة إلي، مادمنا نستطيع الاستمرار في التفاهم.

مارك – أندريه : أهذا على تلك الدرجة من الأهمية؟ أهذا هو ما يساعدني علـى أن أحيا؟ لقد تحدثت فـورا عن أمي، وعن حبها لي. بكل تأكيـد. ولكنه حـب ثقيل في تحملـه، إن كنت تعلم. آه. لو كان لي إخوة وأخوات. أما الشـعور بأنك كل شـيء بالنسبة إلى مخلوق ما، فهذا شيء لا يحتمل، بل هذا يحول دون الوجود. وليس من شـك أنها على اسـتعداد لبذل كل التضحيات في سـبيلي، ولا أريـد أن أقول إنها تجعل هذه التضحيات تُثْقل عليّ. أن نكران الذات نفسه، شيء مُعَذِّب. ولو عاد أبي من المنفى – يا عمي بسـكال – أو لو أن هناك أحدا غيري في حياة أمي... (يسـدد إليه النظر...) أحدا تحبه...

بسكال : (منزعجا انزعاجا عميقا) ولكـن، أين يذهب بك الخيال؟ وفضلا عن ذلك، أنا لا أفهم. أتريد أن تقول...؟ أبسببها لا تسـتطيع أن تنضم إلى الشيوعية، بسبب ما قد يبعثه ذلك من حزن في نفسها؟

مارك – أندريه : ولكـن كلا، ليسـت هذه هي المسـألة. وربمـا تخيلَتْ هي ذلـك، ولكن ليس هذا صحيحا. وعلى الرغم من كل النفور الذي تثيره الشـيوعية في نفسها، فربما أحست بشيء من الارتياح، أن أحدا غيرها يتولى أمري، أو تبناني إن شئت.

بسكال : لا أعتقد ذلك.

مارك – أندريه : ولكنّ ثمة سـؤالا مباشرا يوجه إليّ. وبهذا أصل أخيرا إلى الغـرض الحقيقي مـن زيارتي.. لقد عزمـت على مغادرة فرنسا.

بسكال : آه!

مارك – أندريه : إن رفيقـا يرتبط أبوه بعمل ضخم في أفريقيا الاسـتوائية عرض عليّ أن يصحبني معه. ولكني، لا أفكر قطعا في أن والدتي تسـتطيع مرافقتي. أولا، لأنها لن تحتمل الطقس، ثم إنها على كل حال...

بسكال : (في شـيء من الجفاء) ولكن، إذا كنت أفهم جيدا، واضعا في اعتباري كل شـيء، فإن مشكلتك الشخصية لا تبدو لي شـديدة التعقيد، فأنت مثل آلاف الشـبان الفرنسيين في هذه الآونة، إن كان لي أن أعتقد فيما يقال. وأنت تخشـى ممـا قد يحدث هنا، وهذه فرصة رائعة تلوح لك كي تجعل نفسـك في مأمن من كل شـيء... ولكن يا للعجب. أنت لا تجهل الحزن الذي سيسـببه رحيلك لأمك، وها أنت تأتي لتسـتجديني ضمانا لا أعرف نوعه. سـأتحدث إليك بكل صراحة، يا صغيري.. إن أمك إنسـانة هشـة، وأنا مقتنع بأنها لن تعيش طويلا بعد انفصال يحتمل أن يكون نهائيا.

مارك – أندريه : إنك تتحدث إليّ بغتة في قسـوة بالغة، يا عماه. والطريقة التي قلتَ بها «لكي تجعل نفسك في مأمن...»، أمن الإجرام أن يريد المرء ألا يموت.. ألا يموت من أجل لا شيء؟

بسكال : وكيف، من أجل لا شيء! لعلك تنسى من قبيل المصادفة...

مارك – أندريه : كلا، أتوسـل إليـك، ألا تحدثني عن المدنيـة الغربية. أين

هي تلك المدنية؟ ماذا صنعت بنفسـها؟ وأي فرصة تملكها للبقاء؟ وأنا الذي لم أعرف منها سوى السقوط والانحلال، لماذا ينبغي أن أكون من شـهدائها؟ أولا شهيد.. معناها أن أكون شـاهدا. ولكني لا أستطيع أن أشهد في صفّها. ربما اسـتطعتَ أنت، هذا ما أعترف بـه. وإني لأقولها لك مرة أخرى، إنني أجهل من تكـون. ومعرفتي بهذا الآن أقل من أي وقت مضى.

بسكال : (بصوت متهدج) ماذا جئت تطلب مني؟

مارك – أندريه : سـأحاول، في لحظـة.. وإن كان ذلك عسـيرا عليّ، بل لا أدري إن كان لـي الحق فيه. ولكـن دعني أقل لك أولا، إن هـذا الأمر لا يتعلق بـي، بكل تأكيد، وربمـا كنت لا أفهم شـيئا. ولكنني لا أدرك لماذا تحكم بمثل هذه القسـوة على من يرحلون.. وهل تستطيع أن تتأكد في الأيام الرهيبة من أنك أنت نفسك لن تندم على عنادك؟... أنا لا أتحدث عن خالتي رينيه، وعن الطفلين.. ولكن أنت.. أنت!

بسكال : (بصوت متغير) هذه مخاطرة. ولا أدري ما سأفكر فيه حينذاك. أعترف لك بأنني لا أستطيع أن أتخيل تلك اللحظة.

مارك – أندريه : إن والد زميلي دنيس موري – وهو مؤمن صادق، بل ربما كان المؤمن الوحيد الذي التقيت به – يعمل مهندسـا، وقد رفض منصبا عرضوه عليه في المكسـيك. وقـال لابنه: «أنت تفهم أننـي لا أعلم إطلاقا ما يصنعـه هذا الحدث بي، ربما جَعلَ مني رخوا أشـلَّ. أنا لا أبالغ في الثقـة بقواي، ولكني أومن بالله، وأعتقد أنه لن يتخلى عني، وأنه سـيجنبني السـقوط التام، وأنه إما أن يسـتردني، وإما أن يمنحني القوة لاحتمال التعذيب». هذه كلمات وجدت في نفسي صدى، وإن يكن مثل هذا الإيمان يكاد يكون غير مفهوم عندي. ولكن أنت يا عماه. أتستطيع بكل ما تملك من وعي أن تضعه في حسابك؟



بسكال : (فــي تواضع، بعد فتــرة من الصمت) كلا . بــكل أمانة، لا أستطيع أن أفعل ذلك.

مارك – أندريه : ولكن، ماذا إذن؟

بسكال : (مــن دون أن يجيب) في أثنــاء محادثة مضنية جدا دارت بينــي وبين خالتك منــذ لحظات قلت لها : هناك شــرفي كمواطن فرنسي.

مارك – أندريه : (مندهشا) شرفي كمواطن فرنسي؟

بسكال : (في قلق) أتخلو هذه الكلمات بالنسبة إليك من كل معنى؟

مارك – أندريه : يا عمي بســكال، فلتعترف بأنه باسم الشرف ادّعي الناس خلال أربعة أعوام تبرير أنواع متعارضة من السلوك وينبغي الاعتقاد أن هذه الفكرة ليست شديدة الوضوح.

بسكال : ولكن اليوم...

مارك – أندريه : أنــا لا أرى لماذا يقف الشــرف في صــف الانتحار، ثم إن الشــيء المؤكد هو أن الأبناء لم يُسْتَشــاروا ألهم، هم أيضا شرف، على سبيل التفويض؟

بسكال : ومن الذي أخبرك أنني لا أنوي وضعهم في مأمن؟

مارك – أندريه : وحدهما؟

بسكال : (في عصبية) وأمهما معهما، هذا شــيء مفهوم.. ولكني لم أفهم إلى الآن مــا تنتظره مني. ماذا هناك؟ لماذا انزعجت هكذا بغتة؟

مارك – أندريه : لست أدري إن كان من حقي أن أقول لك...

بسكال : الحق؟ أليس من المستحســن بالنســبة إلى الحفريات من أمثالي أن ينشغلوا به؟

مارك – أندريه : أنت لا تفهم. إني أهيئ نفسي لإفشاء سر. فليكن.. عندما قلت لك منذ لحظة إن أمي لم تحب سواي.. لم أذكر الـ... علــى كل حال، لعلها تعتقد ذلك. أما أنا، فعلى يقين من أن هذه ليست الحقيقة.



بسكال : حذار!

مارك – أندريه : كلا.. فات الأوان، ولم أعد أســتطيع التراجع، وفضلا عن ذلــك، فإنى أقرأ فــي عينيك أنك تعرف فعــلا ما أتأهب لقولــه لك. وأنت تظن أنها لم تبح إلي بأي ســـر. ولكن في كل مرة ينتقدونك على مرأى ومســمع منها، تنبري للدفاع عنك فــي حماس وحرارة. وحين تكون قــد التقت بك في معرض أو حفلة موســيقية، فإنها تردد ما قلته كلمةً كلمةً.. فإذا رحلت أنا، لم يبق غيرك لكي يربطها بالحياة.. عماه، فلتقسم لي على أنك لن تتخلى عنها.

بسكال : (من دون أن يجيبه) وعلى هذا النحو، اتخذت موقفك؟

مارك – أندريه : وهل قلت كلمةً واحدة من شــأنها أن تغير فكري؟ ولو أنك اســتطعت أن تخبرنــي بإخــلاص مطلــق: أن إرادة الرب تقضي بأن تبقى، وأنك حين ترحل عن وطنك، فإنك تعصي الرب.

بسكال : أكان هذا يُقْنعك؟

مارك – أندريه : ربما لو حدث من خلال هذه الكلمات شــيء يجعلني أحب هذا الــرب الذي يتطلب الكثير، ولو أنــه أصبح – في لمح البصر – ربنا نحن الاثنين.

بسكال : (بصوت خافت) لم يكن ذلك في قدرتي.

مارك – أندريه : كم تبدو عليك التعاسة فجأة، يا عماه.

بسكال : أمــا فيما يتعلق بوالدتك، فلقد كان كل منا يُكنُّ دائما مودة للآخر. كيــف يمكنك أن تفترض – لحظــة واحدة – أننا سنتخلى عنها، خالتك وأنا؟

مارك – أندريه : لا تقل «نحن»، فإن خالتي رينيه لا تدخل في حســاب أمي، وأمي لا تدخل في حســاب خالتي رينيه. فلســت أعمى.. ومادامت خالتي سترحل مع الأطفال...

بسكال : ولماذا لا ترحل والدتك، هي أيضا؟

مارك – أندريه : أعرف – وأنت لا تجهل ذلك مثلي – أنها لن تتحرك إلا إذا سحبها أحد بالقوة. وهذا «الأحد» لا يمكن أن يكون إلّاك.

بسكال : يـا بني، لا تسـتطيع أن تجعلني مسـؤولا أيضا عن حياة والدتك.

مارك – أندريه : ولمَ لا؟

بسكال : ليـس لـك أن تلقي على كتفـي واجبا يُكَبّلـك أنت، وأنت ابنُها.

مارك – أندريه : هذا باطل.

بسكال : إنها البينة الواضحة.

مارك – أندريه : قلت لك، إنه باطل. لست مسؤولا عنها. نحن لا ننتمي إلى العالم نفسـه. إنها تحيا مع أبي ومع أولئك الذين فقدتهم، وتحيـا معك. إنها تنتمي إلى الماضـي. أما أنا فأريد بكل قواي أن أحيا حياتي.. أريد أن أحيا حياتي...

المنظر الثاني

الشخصان أنفسهما، ورينيه

رينيه : صباح الخير يا مارك – أندريه. (إلى بسكال) الساعة بعد العاشرة والنصف، وقد اعتقدت أنك تنوي الخروج.

بسكال : ليس الموعد على درجة كبيرة من الأهمية (تشعر بارتباكه) آه! سـأتصل بالتليفون لأقول لهـم ألا يعتمدوا عليّ. (إلى مارك – أندريه) لا تذهب، فثمة كلمة أريد أن أقولها لك.

(يخرج. فترة صمت)

مارك – أندريه : (بلهجة مصطنعة) هل روجيه وإيزابيل على ما يرام؟

رينيه : إن صحتهما معتلة، ولاسـيما روجيـه. الواقع أن الأطفال مفرطو الحساسـية للجو المعنوي. اصطحبتهما ابنة عمي

فوبار في الأيام الأخيرة إلى فيلم سـخيف. وفي الجريدة السينمائية شاهدوا مناظر بشـعة من الحرب الكورية... فعـاد روجيه – وهو مرهف الحس إلى أبعد حد – مريضا تماما. فما كان منـي إلا أن كتبت خطابا للاحتجاج، فمن العار أن تُعْرض هذه الفظائع على الشاشة.

مارك – أندريه : ربما لم يكن من السوء أن يعلم الناس...

رينيه : مَن، الناس؟ خمدت الحساسـية، ولم يعد هناك من يتأثر، سوى الأطفال وحدهم.

مارك – أندريه : ثم!...

رينيه : إنـي أتحدث عن أطفـال حقيقيين، عـن طفلينا. لم أعد أسـتطيع انتظار اللحظة التي انتزعهما فيها هما الاثنين من هذا العالم الملعون. ألم يخبرك عمك بشيء مما يحدث لنا؟

مارك – أندريه : كلا.

رينيه : عرضوا عليه كرسيا في إحدى جامعات البرازيل.

مارك – أندريه : (في دهشه شديدة) أوَ تعتقدين أنه سيقْبل؟

رينيه : إنـه يتظاهر بأنه عازم على الرفـض. ولكني أؤكد لك أنه سيغير رأيه. ماذا بك؟

مارك – أندريه : (بصوت خافت) أفكّر فـي المحادثة التي دارت بيني وبينه منذ لحظة.

بسكال : (عائدا) لقد ألغيت الموعد. ينبغي أن أنشر مراسلاتي.

مارك – أندريه : أيكتبون إليك كثيرا؟

بسكال : إنهم يجعلونني أسهم في الإحاطة بكل ما يدور في العالم.. هل قرأت ما كتبه دوهاميل أخيرا؟

مارك – أندريه : كلا.

بسكال : اقرأه.. فإن ما كتبه صحيح، وسيبقى من بعده.



مارك – أندريه : أتعتقد أن ثمة شـيئا سـيبقى فيما بعد؟.. أجل، ربما في أعماق مكتبة في سـنتياجو عاصمة شيلي، أو في كيبتاون (بجنوب أفريقيا).. ولكن، هل سـيكون ثمة قراء؟ أو حب استطلاع يبقى للعقل؟

(رينيه تنفجر منتحبة)

بسكال : اسـكت، يا صغيري، اسـكت. اتركنا الآن، أريد أن أذكّرك فقط لتقـول لوالدتك كي تتصل بـي بالتليفون غدا.. مع السلامة.

(يعانقه)

المنظر الثالث

بسكال، ورينيه

بسكال : اهدئي، يا صديقتي المسـكينة، ينبغي ألا تعلّقي أي أهمية على ما يقوله ذلك الطفل.

رينيه : (في نحيبها) أنت تعلم جيدا أنه على حق.

بسكال : كلا. إنه مجرد صدى لتنبؤات لا معنى لها. أيسـتطيع المرء أن يعرف؟.. هل يلجأ العالم إلى القنبلة الذرية؟ أميل بقوة إلى الاعتقاد أنه لن يفعل.

وهذه المسألة مثل حرب الميكروبات..

رينيه : ومن أدراك؟

بسكال : أوه! لسـت ناقما عليه. بل على العكس، إني أشـعر نحوه بعطف عميق.

رينيه : (في شدة) ليس لديه ما يشكو منه أكثر من سواه.

بسكال : ربما كان لديه – يا رينيه – أكثر من غيره. لقد فقد أباه.



رينيه : ليس وحده في ذلك.

بسكال : إني ألوم نفسـي على تقصيري في واجباتي حين لم أسهر عليه السهر الكافي.

رينيه : أنـت تعلم تمام العلم أن إسـتير كانت تتهمك بالتدخل في شؤونها لو أردت الاعتداء على حقوقها..

بسكال : لا أظـن ذلك حقا. ثم من الـذي يتحدث عن حقوق؟ كلا، الواقع أن ما شـعرت به خلال تلـك المحادثة الطويلة هو أنني لا أملك وسـيلة أسـاعد بها هذا الطفل، وأشـد من عزمه. والأسـرار التي أفضى بها إلي.. يا للبشـاعة.. إنه ينتمي إلى أفقر جيل ظهر على سـطح الأرض إنه لم يعد يؤمن بشيء.

رينيه : وأنـت؟ أتـراك تؤمـن بشـيء؟ أتصحبنا ولـو حتى إلى القداس.

بسكال : (في كمد) المسألة لا تتعلق بي في هذه اللحظة، يا رينيه.

رينيه : اعترفـت بنفسـك بأنك غير قـادر على توجيهـه. ثم إن أمـه.. يعلم الله أي أخلاق تلك. جميل والآن، ها أنت ترى النتيجة.

بسكال : إن الأخلاق لا تُنقل من شخص إلى آخر.

رينيه : كفانا حديثا عن هذا الصبي الذي لا نستطيع أن نفعل من أجله شـيئا، لا أنا ولا أنت. هل أمعنت الفكر؟ وفضلا عن ذلك، أتساءل: كيف ستجد الوقت؟

بسكال : محادثتي مع مارك – أندريه، لم تصرفني عن المسألة التي تشـغلك، بل على العكس. إني أعتقـد أنه ليس من حقي معارضة رحيلك عن فرنسا.

رينيه : وكيف؟

بسكال : أنت والطفلين.

رينيه : أنت مجنون تماما. أتتصور أنك تستطيع فصل مصيرك عن مصيرنا؟

بسكال : ولم لا أستطيع، على الأقل، مؤقتا؟

رينيه : هذا المؤقت نفاق خالص. وأنت تعرف مثلي أننا لو لم نرحل الآن، فلن نستطيع الرحيل ألبتة.

بسكال : أنا لا أعرف شيئا، ولا أنت أيضا.

رينيه : وفي اليوم الذي ستجد فيه أن الوقت قد حان، سيكون الأوان قد فات. ثم، هل أنا، وهل الطفلان، هل نحن الذين وُجهت إلينا الدعوة؟ إنهم لن يقبلونا إلا لأنك تعولنا، فلا مكان لنا في سان فيليب – وحدنا من دونك.

بسكال : إن كارلوس وإينيس صديقاك.

رينيه : لن أذهب إلى هناك متطفّلة.

بسكال : هذا الذي تستسلمين له الآن، نوع من الابتزاز.

رينيه : إنني أقتصر على عرض الوقائع. لن نرحل – من دونك، لأن هذا مستحيل، وكذلك لأني لا أقبله.

بسكال : لماذا؟

رينيه : أأحتمل أن يقول الناس عني: لقد تخلت عن زوجها؟.. أتعتقد حقا أنني أحتمل ذلك؟

بسكال : آه، حسن. إذن فأنا مُثبَّت في مكاني.. الخوف مما يقوله الناس، وتريدين أن أنحني أمام شعور بائس كهذا؟ انظري يا رينيه، لو أنك جئت تقولين لي: «لن أعيش إذا علمت أنك في خطر على حين أنني بمأمن»..

رينيه : بكل تأكيد.

بسكال : تقولين: بكل تأكيد. دائما مثل هذه الكلمات لا تنطقينها، وربما كان هناك ما يدعوني إلى الاعتراف بجميلك، لأن ذلك يمكن أن يكون أكذوبة...

رينيه : بسكال!

بسكال : أنا لا أقول أبدا إنه لن يسوءك أن تعلمي أنني تحت القنابل، أو أنني في صراع مع ما لا أدريه من «التشيكا».. أنا أعلم أن ذلك سيسوؤك جدا. فأنت لست مسخا، بل أنت طبيعية بفظاعة، يا مسكينتي رينيه.

رينيه : ماذا يعني هذا: طبيعية بفظاعة؟

بسكال : هذا معناه أنك لم تهيَّئي لمعاناة مشاعر مطلقة.. كلا، كلا، لا تقولي عكس ذلك. أوه. بكل تأكيد هناك طفلان، ولكنك تحبينهما كما يحرص المرء على جلده.. كلا، كلا، كلا يا رينيه، المطلق لا يدخل ضمن أوتارك.

رينيه : ماذا يعني هذا المطلق؟

بسكال : الوفاء، ولا شيء سواه.

رينيه : أتتهمني بأنني قد خُنْتُك؟

بسكال : ليس ثمة ما هو أبعد عن فكري، وليس لدي أدنى دافع إلى افتراض أنك خنتني كما تقولين، وأضيف – عابرا – أنك حتى لو سقطت يوما بتأثير مفاجأة من مفاجآت الحواس، فربما لم يكن الأمر خطيرا في عيني...

رينيه : عجيبة!

بسكال : نحن لسنا في المسرح نشاهد مسرحية لهنري برنشتاين أو لبورتوريش. كلا.

الوفاء – يا رينيه – ليس امتناعا. لقد رأيته يلمع – منذ ساعات في نظرة لم تكن من نظراتك.

رينيه : أي نظرة؟ وأي وفاء؟ إني أطالبك بأن تفصح عن نفسك.

بسكال : لست طوع أمرك. وليس لك أن تطالبي بشيء، وإذا كنت لا تفهمينني، فأنا على العكس، أقرأ نفسك كأنها كتاب مفتوح.

رينيه : هذا شيء غير مؤكد...

بسكال : إن مـا له قيمة في نظـرك هو أمْنُك، وأمْـنُ طفليك. كل هـذا طبيعي، للمـرة الثانية.. ولنضف أمنـي أنا، إذا كان ذلك يسـرك، لأن ثمة أسـبابا تتعلق بالراحـة وبالاحترام الإنساني. ربما لم تجعلي من اليسير عليك في الواقع، أن تفصلي مصيري عن مصيرك.

رينيه : ثم...؟

بسكال : ثم، إني لم أعد أرى. لقد أطبق عليّ الظلام.

(صمت)

رينيه : (فـي ارتياح) أعتقد أنك لم تكـن تتحدث على هذا النحو منذ ساعتين..

بسكال : (في عنف) أراك تعتقديـن فعلا أنك واثقة من الانتصار. ولكنـك مخطئة، يا رينيه. فالشـرف موجود، برغم كل ما تقولونه عنه، أنت ومن على شـاكلتك. وسـتبقى فرنسـا، مادمت أشعر بأنني مازلت فرنسيا.

رينيه : ومـن طلب منـك إنكارها؟ ألسـت ببقائـك تخاطر على العكس، بأن تصبح مرتدا؟ إني لأذكر ما قلته لي ذات يوما في أثناء وجود الجستابو. ألا تعرف إلام أشير؟

بسكال : كلا.

رينيه : ما أسـوأ ذاكرتك يا صديقي. عندما قضى رجل المظلات الإنجليزي عندنا ليلة في ٤٣ شارع لاروش. سان - هيريم، وأراد أن ينقل إليك تعليمات سرية لا أعلمها، مازلت أسمع صرختـك: «كلا! صحت في وجهه، كلا، لا أريد أن أعرف شـيئا، لا أريد أن أحمل سـرا يمكـن أن ينتزعه التعذيب مني...».

بسكال : كنت على حق.

رينيه : بلا شك، ولكن، استخلص النتيجة. أنت لست شخصا قويا

يا بسـكال، ولست واثقا بنفسك. وسـأخبرك بشيء آخر لاحظته مرارا، أنت تحب الترحيب، حتى بالخصم، بل على الأخص بالخصم. ولأنك تخاف من نفسـك مما يسـميه أصدقاؤنا بروح الضيافة، لم تشأ الرجوع إلى باريس وهي تحت الاحتلال، مع أنك لم تكن تخشى شيئا سوى نفسك.. وهذه حقيقة هي المقاومة الوحيدة التي تسـتطيع أن تزهو بها ولكن، أيمكن أن نسـمي هذا شجاعة؟ أيمكن أن يكون الخوف من الخوف شجاعة؟

بسكال : (فـي قوة) أصغي إليّ. ليس من اليسـير غاية اليسـر أن نجرد أفعالنا جميعا من صفاتها فننسـبها إلى الأنانية أو إلـى الجبن.. ولكني لا أعلم ما هو أدنأ من ذلك السـرور الذي يجده المرء في تجريد إنسـان من صفاته، ولا شـيء أشـد عمـى للبصيرة. ولـو كنت أخاف مـن الخوف كما تقولين، لكنت قد رحلت.

رينيه : سترحل.. وسنرحل.

بسكال : لـو كنت خائفا، لما أقدمت على تلك المخاطرة التي تلوحين لي بها بذلك البريق الشرير في عينيك.. مخاطرة أن أكون متواطئا، وأن ألوث شرفي.

رينيه : لم يعد ثمة شرف.

بسكال : لم يعد هناك إذن إلا اختيار العار الذي نفضِّله.

رينيه : لم يعد ثمة شرف.

بسكال : لمـاذا تتحدثـين منذ خمس دقائـق بهذه السـلطة، وهذا العناد؟

رينيه : ابحث.

بسكال : ماذا؟

رينيه : هذه السـلطة تأتي منك، وصوتـي هو صوتك، إنه صوتك الصـادر من الأعماق. وهذه الكلمـات التي تجرحك، أنت

الذي توحـــي بها إليّ.. إنها الكلمـــات التي لا تجد عندك الشـــجاعة بعد للإصغاء إليها من قرارة نفسك. (صمت. ثـــم بصوت متغير) والواقع، ما هـــذه النفس الوفية، وتلك النظرة غير العادية.

بسكال : (بعـــد هنيهة) زميل من الليســـيه التقيته مـــرة أخرى هذه الأيام الأخيرة.. إسرائيلي.

رينيه : أتعرفه إستير؟

بسكال : جائز. أجل، من الممكن أن تكون إستير قد التقته.

* * *

الفصل الثالث

بعد انقضاء يومين

المنظر الأول

بسكال، وروبير

روبير : لمـــاذا تصر على الإنـــكار؟ لقد قَصَّت رينيه كل شـــيء على أمها، وهذه سارعت بدورها إلى ترديدها على مسامعي.

بسكال : أتتردد كثيرا على حمَوَيّ؟

روبير : إني أذهب لرؤية الوالد من حين إلى آخر. أشـــغل نفســـي أحيانا بقروضه، وأنت تعلم ذلك تمام العلم.

بسكال : أنت! إني أرى ذلك رائعا.

روبير : أرجوك..

بسكال : يبدو على والدك وزوجة أبيـــك أنهما يقاومان هما الاثنان ريح الذعر هذه.

روبير : إنها منفعلة انفعالا شـــديدا، وهذا كله يســـليها بجنون. أما هو فأشـــد هَمّا، ولكنه يقرأ «لوموند»، ويرجو أن نبقى على الحيـــاد. وهذه الفكرة لا تروق للوســـيين التي تؤثر الحلول الواضحة. وهـــي تتظاهر بأنها لا تقـــرأ الصحف، ولكنها ليســـت مع ذلك أقل معرفة بكل ما يحدث، بل بما ســـوف يحدث. ولســـت أدري إن كانت تتردد على العرافات.. وقد كنت أعتقد أنهن لا يفكرّن في الرحيل، ولما كانت لوسيين لا تدس أنفها في الخارج...

بسكال : وكيف كانت استجابتهما لنوايا رينيه؟

روبير : أمـــا هي فبألـــوان مـــن النقيـــق، وأما هو فبضـــروب من التنهيدات.

بسكال : أتنوى رينيه أن تصحبهما إلى البرازيل؟

روبير : لقد ألمحــت إلى ذلك تلميحا غامضا أثار ألوانا جديدة من النقيــق، من الطرفين هذا المرة: في ســننا! نحن اللذين لا نحتمل السـفينة، ولا الطائرة! أنــت مجنونة! وكانت تتوقع هــذا كله. ويبــدو أن لديهما كميات صغيرة مــن المُنَومّات حــين يبتلعانهــا بجرعة مرتفعة تخلصهما مــن كل الهموم فــي اللحظة المناسـبة. وبدت رينيه مغتبطــة بهذا الحل. ولكن أنــت؟ يبدو أنها قالت إنها حوّلت تفكيرك إلى جانب مشروعاتها للهرب. أهذا صحيح؟

بسكال : كيف تريد أن تستطيع رينيه تحويل شخص ما إلى أي فكرة كانت؟

روبير : إنــك تتلاعب بالألفاظ وأنا أرانــي دون حاجة تدعوك إلى أن تقــول لي، إن رينيه قد انتصرت على هواجســك، فأنا أعرفــك بما فيــه الكفاية لأعلــم أنك تخفــي انتصارها. ولكنني أفترض أن هذا قد نزع هاجسا...

بسكال : أنت تضع الأسئلة وتجيب عنها بنفسك.

روبير : إنك لا تتجاوز حدودك أبدا.

بسكال : أرجو أن توفّر عليّ مشــقة الإجابــة عليك. وإنما أحب أن أعرف: فيمَ يخصك هذا، أو ببساطة فيم يعنيك.. فأنت لا تحب رينيه، ولا تحبني.

روبير : إن بــي نقطة ضعف نحو طفليك، أو على الأقل نحو الولد. والبنت أيضا ضعيفة.

بسكال : أمهما على حق حين تريد إبعادهما. فباريس لا تصلح لهما. ولن يمكثا فيها على أي حال.

روبير : هل فكرت جيدا فيما لو أنك توليت تنشــئتهما في أمريكا الجنوبية فمن المحتمل ألا يســتطيعا العودة هنا إلى الأبد. هل تأخذ على عاتقك هذه المسؤولية؟

بسكال : إن أحدا منا لا يســتطيع أن يعرف ما يمكن أن يصير إليه هذا البلد. وحتى لو احتفظت بوجود مادي، فإننا نجهل إن كان سيستعمرها القرغيز أو التركمان..

روبير : هذا عجيب.

بسكال : ما العجيب؟

روبير : كنت أحسب أنك لا تردد على لسانك سوى الشرف الفرنسي.

بسكال : تروّيــتُ كثيرا منذ يومين. ولم أعد واثقا بمعرفتي أين تقف فرنســا.. فمنذ الحرب الأخيرة نعلم أنه ليس من اليســير دائما تحديــد موقفها.. من الممكن قبل كل شــيء.. أجل، فمن الممكن أن تُدّعى إلى البقاء في أولئك الذين سيملكون الشــجاعة لانتزاع أنفســهم من أرض أصبحت نهبا لجشع البرابــرة. إنني أمضي بعيدا يا روبيــر، وهذه الفكرة التي تســلط عليّ منذ أمس الأول، مــن دون أن أعتنقها تماما، تتخذ في حضورك صفة البينة. فليس الرجال من أمثالك هم الذين سيؤكدون...

روبير : (بصوت أشبه بصوت الناي) الدوام الفرنسي.

بسكال : لماذا تصطنع نبرات المهرج هذه؟ إنك لا تفكر إلا في تسليم فرنسا، بعد أن لم تعمل إلا لهزيمتها.

روبير : شكرا، على كل حال!

بسكال : أوه! أعلم جيدا! إنــك تصرفت تصرف الوطني خلال تلك الســنوات المريعة أو هذا على الأقــل ما اعتقدته، ولم يكن ذلك يخلو من شــك، ومن قلق لم أســتطع أن أتخلص منه قط. ذلك لأنك سُررت في نهاية الأمر للهزيمة. أجل، لأنك اعتقدت أنها تســمح لك ولأصدقائك بإدانة طبقة بغيضة، وكأن ضروب التخريب التي نظمتموها في المصانع لم تُمهِّد لكارثتنا.. فأنت شــريك في خدعة كبرى، ولهذا السبب، لا شــيء مما تفكر فيه يمكن أن يؤثر فيَّ اليوم. ومع التسليم

بأنني قررت أخيرا أن أصحب زوجتي وولدَيَّ إلى البرازيل، فلستَ في موقف يسمح لك بتوجيه أي اتهام إلى مسلكي. أنا أعرف الآن أنك لم تتصرف كوطني، لحظة واحدة.

كلا، يا روبير، بل تصرفت كمشايع، مجرد مشايع لا أكثر..

روبير : (متمالكا نفسه) من ذا الذي يتحدث عن اتهام، أو عن حكم أخلاقي؟ هذه أوهام، وأنت تعلم ذلك مثلي. ولكنني أريد أن تلاحظ فقط أنك إذا كنت قد ملكت من الجرأة ما جعلك تعامل فرنسا على أنها جثة، وتدعي ادعاء عجيبا بأنك تصحب روحها نحو الشواطئ البرازيلية، فإنني أنا وأصدقائي قد تعهدنا بالمحافظة على فرنسا حقيقة، وليست ميتة، فرنسا الثورية التي لم يسمح لك ضميرك السيئ – ضمير البورجوازي المرهون – بأن تعترف بوجودها. وأنا أقرر بأنك قد تحدثت في كتبك أحيانا كثيرة، عن الوفاء من جانبك أو من جانبنا؟ يبدو لي أن الإجابة واضحة بما فيه الكفاية.

بسكال : أيا كانت الاتهامات التي يمكن أن توجهها إلى فرنسا الثورية، فإنها كانت – على الأقل – مستقلة، لم تكن تتلقى قانونها إلا من نفسها، ومن رجال جنسها الذين اتخذتهم مرشدين لها، ولم تكن في خدمة، ورهن إشارة دولة آسيوية أجنبية عن كل تقاليدها ... وأنا أقول عن كل تقاليدنا، أيا كانت.. ولست أرى قط أن كلمة الحرية قد بعثت أي صدى عبر الأورال أو حتى هناك، وحين يطلق القوفاز خيولهم ترعى في غابة بولونيا، فسوف تستيقظ ذكرى ١٨١٥ البشعة في الضمائر الغافية.

روبير : (في حدة) كفى. إن الاحتلال الذي تؤرق صورته ليالي أمثالك، أقول لك – أنا – إنه لن يحدث. سنتدخل في الوقت المناسب للحيلولة دون وقوعه. لقد تلقينا تأكيدات رسمية. ولست في حل من أن أقول لك المزيد.

بسكال : كلا، ولكن، أتعتقد فيما تقول؟ أتعتقد أن الوعود تحتفظ بأي معنى في العالم المسكوفي؟

روبير : هذا يتوقف على الظروف. فعلى الجانب نفسه من الحفرة يبقى الإيمان المثبت بالقسم، وسواء من هذا الجانب أو ذاك، يكون احتراقه من قبيل الخداع.

بسكال : ومع ذلك ينبغي أن نتظاهر أحيانا.

روبير : أحيانا، في الواقع. مسألة تكتيك.

بسكال : أتعترف بذلك؟

روبير : بل إني أعلنه على الملأ.

بسكال : ولكن ألا تلاحظ أن التفكير على هذا النحو معناه الوصول بتدمير الإنسان إلى غايته؟

روبير : الإنسان، أنا لا أعرفه. وحين تقال هذه الكلمة أخرج مسدسي.

بسكال : تكاد تكون هذه العبارة يا روبير مقطوعة من المحفوظات. وما يروعني ليس فقط أنك مخلص، ولكن أنه ما من شيء يهتز فيك حين تتفوه بهذه العبارات المدنسة. ألا تشك في أن التخلي عن الكلي، هو بالنسبة إليك، وبالنسبة إليّ، وبالنسبة إلينا جميعا، عزل لنا واعتزال، إن معناه أن نضحّي بأنفسنا مقدما إلى إله من تلك الآلهة الجديدة التي ليست عبادتها سوى دعاية. أمن الممكن أن تكون مخدوعا إلى حد الاشتراك في هذه المهانة؟

روبير : لن أكلف نفسي عناء الرد عليك. والسقوط – على حد قولك – تسليم، كتسليمك، فأنت لم تعد تؤمن بشيء، ولم تعد تأمل شيئا، ولكنك تستمتع بترف السخط بثمن بخس. وأقول بثمن بخس، لأن تلك الفورات الانتقامية لا تعرضك لأي عقاب، أو على الأقل هذا ما تعتقده، فهي تساوي عندك تهليلات ضميرك المسكين، ضمير البورجوازي المنحل. وها

أنذا أقول لك، وأكرر هذا القول عليك، إننا نؤمن بكل قوانا بأن الشيوعية الفرنسية ممكنة، بل بأنها حتمية، لأن ما يجب أن يكون، لا يمكن إلا أن يكون. وربما كان لا بد للوصول إليها من اجتياز مرحلة صعبة، علينا أن نكبح فيها بعض القفزات، وهذا القول ينطبق عليّ، كما ينطبق على غيري. إنها مخاطرة ونحن نقبلها بعيون مفتوحة، وحتى إذا كان لا بد من أن تسحق أشخاصنا، فليكن لأنك مهما قلت، فإن أشخاصنا لا قيمة لها. نحن دروب تؤدي إلى ما هو أعلى منا. أما أنت فلست سوى طريق مسدود، بل دعني أقلها لك: بالوعة... لا جدوى من الاحتجاج، لأن اقتناعي قد استقر، كما استقر اختيارك.. لأنك قد وفقت وأحسنت الاختيار.

بسكال : هذا باطل.

روبير : إن التأرجحات التي تنتزع منها ذريعة للادعاء بأنك حر، لا قيمة لها أكثر من قيمة التذبذبات الأخيرة لمؤشر الميزان. ولست مندهشا من ذلك، فأنا أعرف ما ينبغي أن أتمسك به منذ أن رأيتك تفضِّل الامتناع عن اتخاذ أي التزام كان، لأن الالتزام كان خطرا، طال الأجل أو قصر. وكنت على ثقة دائما بأنه حين تحين اللحظة الحاسمة ستجد وسيلة للفرار. وكنت أعتقد طبعا أنك ستعرف كيف تضمن هروبك في ظروف أكثر من ذلك تألقا...

بسكال : عفوا. ماذا قلت؟

روبير : أنت تفهمني جيدا.

بسكال : أنا لا أدري إلى أي شيء تشير.

روبير : ألم تشك مطلقا في أن ذلك الـ «كارلوس مارتينيز» كان يواظب على مغازلة زوجتك منذ عامين في بياريتز؟

بسكال : هذا أول خبر. أتجهل أنني كنت في اسكندينافيا في تلك اللحظة.. ومع ذلك تلجأ إلى التلميح؟

روبير : إطلاقا. أقول، إن ما هو واضح للعيان، أن طلب مثل هذه الخدمة، في هذه الظروف شيء عجيب حقا، ومن الممكن أن يُفسح ذلك مجالا لافتراض تبييت النية لاستردادها في الوقت المناسب.

بسكال : أنت وغد. وهذه الحكاية لا قيمة لها في نظري. كل ما أستبقيه هو الشعور الذي دفعك إلى مخاطبتي وتوجيه هذا الإنذار. فهذا، يكشف عن أشياء.

المنظر الثاني

الشخصان أنفسهما، ومارك – أندريه

(مارك – أندريه يبدو متهالكا، ويتوقف عندما يرى روبير)

بسكال : ماذا جرى؟ ماذا حدث لك؟ إنك تبدو شاحبا كالملاءة البيضاء.

مارك – أندريه : هناك.. أوه! أستطيع – على كل حال – أن أقول ذلك أمامه. أوسعوني ضربا عند شخص كان يتظاهر بأنه صديقي. أتدري لماذا؟ لأني رفضت – ببساطة – توقيع نداء إلى الطلبة يدعوهم إلى الإضراب احتجاجا على إرسال قوات جديدة إلى الهند الصينية.

بسكال : أهنئك، ولكنني لا أكاد أفهم...

مارك – أندريه : أنا لا أعبأ بالهند الصينية، وأعتقد أن الاستعمار مشؤوم، وربما إجرامي، وأرى أنه كان ينبغي علينا الرحيل في ١٩٤٥. ولكنني تلقيت منذ بضعة أيام رسالة من صديق هناك في الجيش. زوّدني بتفاصيل رهيبة عن الظروف التي يحارب فيها جنودُنا. إنهم يعيشون على انتظار التعزيزات، وربما كان مقتل صديقي ورفاقه متوقفا على... كلا، هذا ما لن أفعله... أنت لا تفهم يا خالي روبير؟



روبير : أنا لا أحفل مثقال ذرة بصديقك وأمثاله. فلو أنه رفض الرحيل، أو ألقى بسلاحه، أو قتل رئيسه، لما انتهى بهم الأمر إلى انتظار أن يأتي آخرون لمشاطرتهم عارهم وموتهم.

بسكال : كفى.. يكفينا هذا! اذهب، فلم أعد أريد رؤيتك.

روبير : فورة مؤثرة من وطنيّ يتأهب للرحيل إلى أمريكا الجنوبية... وعليك – في الواقع – أن تأخذ احتياطاتك. فنحن عدد كبير هناك.. وستُعْطَى أوصافك.

بسكال : بوساطتك؟

روبير : أو بوساطة غيري.. وفيما يتعلق بالأمن، كان ينبغي إيجاد مكان أفضل.. ربما كانت جرينلاند أو جزيرة أخرى عزيزة على «جوجان».. وهناك تشرع في الرسم.. وداعا...
(يخرج)

المنظر الثالث

بسكال، ومارك – أندريه

بسكال : هل نظرت إلى وجهه في أثناء حديثه؟ إنه لم يكن وجه كائن بشري. كلا، إنه هو وزملاءه، ممسوسون.. أعلن دوستويفسكي هذا كله... ولكن، كيف تم هذا المس؟ سأحرص خلال السنوات التي ربما بقيت لي في الحياة على أن أفهمه ولكن، وربما كان هذا البحث بلا طائل، وربما كان هذا كله يجري خارج قدرة العقل على الإدراك.. كأنه وباء. ولكن، لماذا يظهر؟ ما الذي يُعطِي فجأة بعض الجراثيم التي كانت موجودة فعلا تلك القدرة الغامضة على الانطلاق بقوة؟ أو لعلها لم تكن موجودة؟ هذه أخطر مشكلة يمكن أن تكون، ولكن، ربما لم نكن مجهّزين لحلّها. يا بني.. مدَّ ذراعيك.. كنت شجاعا، وأنا أحبك حبا جمّا.



مارك – أندريه : لست أدري إن كان هذا يمكن أن يُسَمَّى شجاعة. هو بالأحرى ضرب من الطاعة، شيء في أعماق نفسي منعني من توقيع ذلك النداء، شيء صدر عن مكان آخر، ربما من أعماق ما نسمّيه بالموت.. أنا لا أعتقد أنني أومن بالرب، ولكنني أفكر باستمرار في الأموات. ربما لأنهم يجتذبونني إليهم طوال الوقت، أقاوم بهذا الإصرار، وأريد البقاء في لهفة شديدة. أنا مزدوج الشخصية – ياعمي بسكال – مزدوج الشخصية، ومع ذلك فأنا نفسي دائما. ثم هناك شعور أحسست به – في قوة – منذ لحظة عند موريزو! قبح هؤلاء المتعصبين... أوه! أنا لا أقصد قبح الخلقة، فقد كان فيهم اثنان أو ثلاثة يتصفون – على العكس – بجمال كجمال الجنيّ، وكان بعضهم الآخر بشعا، ومعظمهم لا يكاد المرء يتذكر ملامحهم. كالحال في كل مكان.. ولكنه قبح غير مرئي، كما أنه ليس أيضا قبح نغمة نشاز. إنه قبح نتنفسه، أو بالأحرى، كلا، إننا لا نستطيع أن نتنفسه... ثمة ألفاظ لم يعد من الممكن استخدامها لأن الرومانتيكيين أفسدوها. مع ذلك ينبغي إخراجها من القبور: كلمة مظلم... مظلم... منذ لحظة كنت أوثر أن أُقْتَل على أن أوقِّع... ولكن الآن، بعد أن لم يعد أولئك الفتيان أمامي، فإنهم يبعثون في نفسي رعبا شنيعا. ولم أعد أستطيع الانتظار حتى أنتهي من هذا الكابوس... معذرة، يا عماه، فإن كل ذلك يبدو خاليا من الاتساق. هذا الخليط... ولكني، لم أعد أستطيع الاحتمال.. ولو لم أجد وسيلة للرحيل، فسأقتل نفسي.

بسكال : ولكنني كنت أعتقد أنك متأكد من قدرتك على الرحيل إلى أفريقيا الاستوائية...

مارك – أندريه : بالأمس بدا لي «لوقا» مراوغا. وأعتقد أنه لم يكن جادا في حديثه، ولم يعد واثقا على الإطلاق بأن والده سيكون متفقا معه على اصطحابي. وقد حدث شيء فريد في بابه.

فإذا كنت عند «موريزو» منذ لحظة، فربما كان ذلك لأن صوتا مخادعا في قرارة نفسي، كان يوحي إلي بألا أحطِّم الجسور. وحين وجدت نفسي في مواجهتهم، انعكست الآية فكأن شيئا أقوى مني يرغمني على تحدّيهم.. آه، إنني متعب يا عماه، لو كان لك أن تعلم! ثمة «أنا» أخرى في نفسي تحب أن تموت.. أن تموت حقا... في الحال، من دون اختناق بطيء... أو تسمم.. كلا، إطلاقا.. كل شيء مفضل على ذلك.

وأنت؟ أكاد أجرؤ على سؤالك.. هل اتخذت قرارا؟

بسكال : كلا، لم ينعقد عزمي بعد، فمازلت مع شكوكي وهواجسي. ولكنني في الوقت نفسه لكي أكون مخلصا تمام الإخلاص، ألاحظ أن شيئا في نفسي في سبيله إلى اتخاذ قرار، نيابة عنِّي.

مارك – أندريه : أهذا صحيح؟

بسكال : تقول هذا مسرورا! على حين أنه شنيع... أشعر بأن الانحلال الذي أصاب بلادي قد أصبح الآن في نفسي، وأنه في سبيله إلى بلوغ غايته، وأنني أشارك فيه. يا طفلي المسكين، أنت تنظر إليَّ بعينين مذعورتين، بعينين تستجديان.. لن أتخلى عنك يا صغيري مارك – أندريه. ينبغي الاعتقاد، إن كان لهذاه العبارة معنى – وأنا أجهله – أنني مسؤول عن حياتك، وأنني لا أستطيع أن آخذ على عاتقي تعريضك لليأس والانتحار. ولأنك جئت لتراني ذلك المساء الآخر، أنت يا من أراك نادرا.. أجل، أعتقد أن هذا نوع من البرهان إلا إذا لم أكن أتعلق بهذه الفكرة كذريعة لمحاولة أن أبرّر إزاء عينيّ ما لا يقبل التبرير... ولكني، لست أدري... قلت كلمة «مظلم» حين تحدثت عن أولئك «الفتيان – الذئاب» الذين ينتمون إلى عالم آخر لا اتصال بيننا وبينه، وأنا أقول ظلمات،.. ظلمات.. هذا هو العنصر

الذي أغوص فيه.

مارك – أندريه : إذن، فأنت تريد أن تقول، يا عمي، ربما يكون من الأشجع...؟

بسكال : (في حزن عميق) لم أعد أعرف إطلاقا في أي جانب توجد الشجاعة.. ولعل هذا هو أسوأ ما أجتازه الآن. وحين استمعت إلى روبير منذ لحظة – بل لا أستطيع أن أقول حين استمعت، فقد عانيت... أحسست أنه من الخسة، بل من العبث تماما، أن أجرّد احتقاره من حدته بقولي: حسن! سأبقى. فهذا الاحتقار ينبغي ألا تكون له قيمة عندي أكثر من صرير باب أو دوارة هواء. ومع ذلك لو أنني قررت البقاء الآن، لاقتنعت في قرارة نفسي بأن بقائي هذا راجع إلى أنني أحسب حسابا لذلك الاحتقار. وهذا الموقف، أخذت أقلِّبه على جميع وجوهه منذ يومين. وهناك لحظات، وصلت فيها إلى النظر إليه من الخارج. وتساءلت إن كنت على استعداد للهرب والمعركة دائرة. ولكن كلا، ليست هذه إلا صورة لمعركة.. لقد انتهت اللعبة. أوه! إني أعرف جيدا! إني أناقض نفسي، كم من مرة أعلنت مخلصا: القدرية جريمة، ومازلت أعتقد أنها جريمة في الواقع. ولكن هل العمى الإرادي جدير بالاحترام؟ وقلت لنفسي، مهما يكن من أمر، لو أن الصراع ظل ممكنا، فربما لم يكن كذلك إلا بشرط انتزاع النفس مما لم يعد – ويالِلأسف – سوى ديكور نُحبه على سبيل الاعتقاد المزيف ربما... وأقول ربما مادمت لم أعد أعرف أين الشجاعة. أو حتى أين التضحية. أنت تفهم، يا مارك – أندريه، أنا لا أعرف ما سيبقى مني بعد ذلك الإبعاد هناك، لن أعرفه إلا فيما بعد، وربما كان ذلك لإدانة نفسي. يا بنيّ، أقسم لك، إن افتقاري إلى الإيمان لم أحسه قط بمثل هذه القسوة، فلو أنني كنت مرتبطا، مرتبطا بالمسيح، فلعل شيئا من



النور يوهب لي وأنا لا أبصر شيئا.. ستأتي والدتك.. وهي وحدها في هذا العالم التي يمكن أن تؤثر فيما أجرؤ – في مشقة – على تسميته قرارا. وأنت أيضا تبدو معتلا، يا بني المسكين.. اذهب، فاستلق بضع دقائق في حجرة روجيه، فلن يعود من الليسيه إلا في الساعة السادسة. اذهب...

(يخرج مارك – أندريه)

المنظر الرابع

بسكال، ثم إستير

بسكال : (ذاهبا إلى الباب القائم في المؤخرة) صباح الخير، يا إستير. لقد تأخرت في رؤيتك مرة أخرى وكان في إمكاني أن أزورك.

إستير : كنت في الحي، فكان من اليسير عليَّ أن أمر. هل خرجتْ رينيه؟

بسكال : إلى ما بعد الظهر. إنها تدور على المحلات، وعلى وكالات السفر... أولا، مارك – أندريه. هل كلّمك عن محادثتنا؟

إستير : بضع كلمات فقط. ولكنك أثّرت فيه وإني لأشكرك من صميم قلبي.

بسكال : وا أسفاه! بل الأحرى أنه هو الذي مسّني في الصميم.. أجل، أماط عني اللثام... فمنذ تلك المحادثة، لم أعد كما كنت. هذا شيء لا سبيل إلى التعبير عنه. وفضلا عن ذلك، كأنما تجمد الناس الذين كنت أراهم لكي يتحولوا ضدي.. حمَوايَ أولا... بعض الكلمات التي نطقت بها ذلك اليوم، حين استمعتها تخرج منهم، وجدتها مضحكة، منقولة ليعزفها أرغن الهمجية... انظري، إن واحدة من المزايا غير المرغوب فيها والتي يملكها شخص مثلي هي



معرفة النفس والاستهزاء بها من خلال أنصاره.. ولكن ليس هذا هو كل شيء. وكم رأيت من أشخاص غير قابلين للتحول، ولا يقسمون إلا بما تعرفينه. وهم يتغذون على سوابق تاريخية وهمية، ويتحمسون للصيغ المتطرفة، وهم لا يتحصنون على «الأدور»(*) أو على جبال البرانس، بل على النيّجر(**) الأعلى، إن لم يكن على الأوبانجي(***). إنهم عاجزون عن التفكير في الحدث، بل يضعون في مكانه شبحا مستمدّا من التاريخ الحربي.

إستير : ومع ذلك، يا بسكال...

بسكال : أجل، اتفق معك، ربما كان من الضروري أن تبقى هذه الأوهام حتى النهاية. وربما كان هذا هو الشكل الوحيد الذي يمكن أن تتخذه إرادة المقاومة عند أوساط الرجال. ثم إنني لست نبيا. وهناك احتمال واحد من ألف أن يرى هؤلاء الناس بوضوح. كل ما في الأمر هو أنني لا أستطيع أن أرغم فكري بحيث أصبح شريكا لهم. واعلمي يا إستير، أن الأمر ليس هو أنني لم أقرر شيئا على الإطلاق.. فمازالت القِطع هناك فوق رقعة الشطرنج، ولم ألعب دوري بعد.. لم أقرر شيئا، ولكنني أبحرت فعلا.. هذه تجربة غريبة، لم أجربها قط. إنها تحيرني، وتخزيني. وأنا أشبه حقا بمسافر صعد إلى ظهر السفينة عدة ساعات قبل الرحيل. فربما استولى عليه النعاس، أو استغرق في قراءة، فلم يسمع إشارة الرحيل، وفجأة، شاهد الشاطئ يتحرك وعلم أنه قد رحل.

(*) نهر يجري في الجنوب الغربي من فرنسا، وينبع بالقرب من «تورماليه».
(**) النيجر: نهر في غرب أفريقيا.
(***) الأوبانجي: نهر آخر في أفريقيا الاستوائية.

إستير : ما هذه السفينة؟ أهي مصيرك؟

بسكال : ربمـــا، غير أن تشـــبيهي ليس دقيقا تمـــام الدقة، ذلك أنه يستطيع أن يهبط في المرفأ القادم، إن لم يلحق به شخص آخر...

إستير : ورينيه...

بسكال : رينيـــه والطفلان موجـــودون فعلا في القمـــرة (الكابينة)، فالأمر لا يتعلق بهم إذن.

إستير : ولكن ماذا؟

بسكال : (في حنان) لن أغادر فرنســـا من دونك.. لا تســـارعي إلى الاعتراض. أخطرك بأن مارك – أندريه ســـيكون في هذه الرحلة.

إستير : ماذا تقول؟

بسكال : إنه لا يستطيع البقاء هنا، وهذا ما تعرفينه كما أعرفه. أما فيما يتعلق بمشروعه للذهاب إلى أفريقيا السوداء، فيبدو أنه لن يتحقق. فلا أملك إلا أن آخذه معنا.

إستير : أتريد أن تقول لي إن هذا بسببه؟

بسكال : لـــن يكون ذلك صدقا. ومع ذلك فقد اكتشـــفت بيني وبينه تضامنا غامضا.. لســـت أدري ما هو، ولكني أعرف أن من واجبـــي الاعتراف به.. وقبل أن أوجه إليك ســـؤالا خطيرا جدا يجُبّ كل الأسئلة الأخرى، أريد أن أسألك: أتعلمين أن كارلوس كان يغازل زوجتي؟

إستير : تتذكر أنني في ذلك العالم لم أمكث ســـوى بضعة أيام في بيارتيز، ولكنني أعتقد أنني لاحظت...

بسكال : الآن... هـــذا الأمر خطير يا إســـتير. وأنـــت التي تعرفين رينيه دائما، ألديك من الأســـباب ما يجعلك تفترضين أنها تستطيع...

إستير : يســـتحيل علـــيّ أن أجيبك. وأنت تعلم جيـــدا، أن رينيه لم تجعلني قـــط موضع ثقتها، ولم أقع مصادفة على شـــيء، فليس لدي من دليل.

بسكال : ألاحـــظ على الأقـــل أن أي احتجاج مباشـــر لم يصعد إلى شفتيك.

إستير : هذا شـــيء صبياني. أنت تعلم جيدا مثلما أعلم، أنه ما من شخص يستطيع أن يجيب نيابة عن شخص آخر.

بسكال : ومع ذلك، يبدو أنني أستطيع أن أجيب عنك.

إستير : آه. ربما كنت على خطأ، لأنني أعلم أنني مذنبة، وربما قلت لك يوما فيمَ كنت مذنبة، ولكننا نشـــرد عن الموضوع. أعود وأطلب منك أن توجه إليّ ذلك السؤال الخطير جدا.

بسكال : المســـائل جميعا مترابطة. أســـألك أن تخبريني من أعماق قلبك، هل تعتقدين أنني سأكون مذنبا برحيلي؟

إستير : (بصوت مرتعش) مذنب! بســـكال، نحـــن جميعا مذنبون، مهما فعلنا.

بسكال : ولكن هذا الشـــعور بالذنب، ألا أضاعف حِدّتَه برحيلي؟ ألا يعدُّ البقاء تكفيرا؟

إستير : أأنت واثق بقدرتك على إعطاء معنى لهذه الكلمة؟ ألم تنتقل إليك بالوراثة مع كثير غيرها مثل تلك الســـندات الأجنبية التـــي نعثر عليها في درج مـــن الأدراج، غير أن قيمتها قد هبطت إلى الصفر؟

بسكال : قيمتها؟

إستير : قيمتها بالنســـبة إلينا، يا بسكال. إنها الشيء الوحيد الذي يدخل في الحساب، إذا كنا غير مؤمنين.

بسكال : أهذا شـــيء أكيد؟ كثيرون ســـيوجهون إلـــيَّ اللوم. أعرف ذلك، وتعرفينه أنت أيضا. هل أســـتطيع التظاهر بأن هذا الاستنكار خليق بالإهمال؟

إستير : ربما كانت الشجاعة تتألف من الحكم عليه – في الواقع – على هذا النحو.

بسكال : ولكن، هذه الـ «ربما» مخيفة! أما من وسيلة لمحوها، ولأن نكون على يقين؟

إستير : لا أظن. فهنا، مثلما في أي شيء آخر، لا بد من المخاطرة.

بسكال : لو استطعت، على الأقل، أن أكون واثقا بأنك أنتِ نفسك..

إستير : ماذا؟

بسكال : لن تدينيني.

إستير : (في عمق) كيف أدينك مادمت أحبك؟ أجل، لقد كنت جبانة ذلك اليوم حين حاولت تأجيل الاعتراف الذي انتزعته مني عاطفة مباغتة. إني أحبك. أحبك منذ أن عرفتُك. وأنا مذنبة حين أقول لك ذلك. ولعلي أكون أكثر ذنبا لو لم أقل لك ذلك. لست أدري، فليس عليّ أن أختار الشعور بالذنب الذي أرتاح إليه. نحن في اللحظة الحاسمة من وجودنا، وأنت تعرف ذلك مثلي. والتحفظ والحياء قد أصبحا وراء ظهرينا. أنا أعلم أنني أستسلم لدوار، وهاأنذا أستسلم له في وضوح تام.

بسكال : ولكن، يبدو لي أنك تغيرتِ. كنت تحكمين بقسوة على من يرحلون، وكنت تَتحدثين عن القرار...

إستير : وكنت على صواب، بلا شك.

بسكال : ثم ماذا حدث بعد؟

إستير : أعتقد أن هذا الرحيل هو، في وقت واحد، خطأ وعقاب على هذا الخطأ. ومع ذلك، لن يكلفني البقاء إلا أقل القليل، كما ترى. ذلك أنني أستطيع – بفضل طبيب صديق – أن أضع نهاية لحياتي حالما أريد، لأنني لا أتصور الرب «ناظرا لمدرسة»، كما لا أتصوره مُعَذِّبا. ولكن لأنه من اليسير عليَّ

البقاء، ولأنني أستطيع أن أكون في وفاق مع ضميري، لهذا السبب المحدد، لن أتخذ ذلك القرار بالرحيل. أو لعلني أحاول استبقاءك، وأنا أعلم أن ذلك ليس من حقي...

بسكال : لماذا، يا إستير؟

إستير : لا يستطيع المرء أن يبقى إلا لأداء رسالة. بيد أن هذا النداء أنت لا تسمعه، أو لعلك لم تعد تسمعه أو قد أدعك ولكن لماذا؟ لكي أستمتع بشعور التفوق؟ يا لها من سخرية. كلا لست على هذا النحو. كل ما في الأمر أنه ينبغي مواجهة الأشياء.. أولا، هل أنت على استعداد لفرض وجودي على رينيه وعلى أصدقائك؟

بسكال : إنهم ليسوا أصدقائي. وإذا صدقنا ما يكتبون فهناك مساكن رحبة.. أما فيما يتعلق برينيه، فهذا هو الشرط الذي سأضعه لرحيلي. بيد أنك قلت جملة أريد أن أفهمها: إن هذا الرحيل هو، في وقت واحد خطأ وعقاب على ذلك الخطأ. أتراني سمعتُ جيدا؟

إستير : أجل يا بسكال، وأنا واثقة – لسوء الحظ – بأن الأمر على هذا النحو. فليس في مقدورنا أن نغادر هذه البلاد بقلب خال، وأن نندفع يملؤنا الأمل نحو سراب لا ندري كنهه، بفكرة حياة جديدة في عالم جديد. ولو كان مثل هذا الرحيل ممكنا – وأنى لنا أن نعرف؟ – فلعله لن يكون إلا بعد الموت. ومن هذه الناحية، نحن الذين لم نتطهر، ليس لنا أن نتوقع العدالة. نحن ملوثون يا بسكال، وهذا الرحيل نفسه ليس إلا دنسا. هذه الحقيقة، أطالبك – كما أطالب نفسي – بأن تنفذ إلى أعماقها.. هذه بداية الموت.

بسكال : الدنس... الموت...

(يُخلدان إلى الصمت)



المنظر الخامس

الشخصان أنفسهما، ومارك – أندريه، ثم رينيه

إستير : كيف! كنت هنا، يا بنيّ؟

مارك – أندريه : ألم يخبرك عمي بسكال؟

بسكال : خشيت أن أسبب لأمك انفعالا لا جدوى منه، فلتقص عليها أنت (ينظر إليها) هذا غريب، فأنا أعتبركما وإياي أسـرة واحـدة، نحن الثلاثة... ومع ذلك سـوف تعـود رينيه بعد قليل، وهناك الواجبات الأخرى...

مارك – أندريه : لقـد فكرت طويلا منـذ لحظة، وفجـأة راودني خوف... تشـكك... وأحب أن أَتخلص منـه.. أولئك الذين يذهبون هم الممتازون، أما الآخرون، أولئك الذين لا يملكون وسـيلة للذهاب...

بسكال : أجل، بكل تأكيد، هذا فظيع.

إستير : هذا التشـكك الذي تود أن نحـررك منه، عليك أن تحمله على كتفيك. لقد قلت لبسكال منذ لحظة، إن أحدا منا لن يرحل إلى هناك بقلب خال...

رينيه : (تدخل كلفحة الريح) إني مغتبطة بجولاتي. لقد اكتشـفت حانوتا على الضفة اليسـرى حيث تباع بعض السلع بسعر زهيـد.. حقائب جلدية مهربة من إسـبانيا... طيب! ماذا أصابكم؟

بسكال : (في مرارة عميقة) قلب خال، وسراب حياة جديدة.

* * *



الفصل الرابع

منزل ريفي صغير في البرازيل. حجرة واسعة مضيئة في هذا المنزل الذي يملكه آل مارتينيز. وفي مؤخرة المشهد يبدو صحن الدار.

المنظر الاول

شفرمون، ورينيه، ثم كارلوس

شفرمون : كلا، يا سيدتي العزيزة. لا أستطيع أن أقول – بكل صراحة – إننـي قد افتقدت باريـس حقيقة يوما واحدا طوال تلك الأعـوام. وأنا لا أحدثك عن صديقين أو ثلاثة من الأعزاء عليّ.. هم ثلاثة على وجـه التحديد مازال اثنان منهم في السجن، والثالث كان...

(يأتي بحركة)

رينيه : ولا يوما واحدا! إنك تدهشني.

شفرمون : كلا، فمنذ أن سُلّمت باريس إلى تلك العصابة من اللصوص وشركائها، نَزعْتُ منها عقلي وقلبي كليّةً. هذه قدرة أملكها. والحقيقة أنني لا أشـعر بتاتا بأنني هنا في المنفى.. ليس أكثر مما كنت في مدريد سنة ١٩٤٥.

رينيه : هذا شيء تُحْسَد عليه، ولكنني كنت أعتقد.

شفرمون : (من دون أن يصغي إليها) إنني أتابع من كثب ما يحدث هناك في الفن والأدب. فللصحف هاهنا مراسـلون يحسنون نقل المعلومـات. كل هذا يبدو لي منفـرا خاليا من المعنى. وقد أبعث في نفسك مزيدا من الدهشة حين أقول لك إنني أكاد أختال من فكرة الحكـم بإعدامي غيابيا على أيدي أولئك الناس هناك.

رينيه : أصحيح هذا؟

كارلوس : (مقتربا) مازلت تتحدث عن الحكم بإعدامك، إنك تتشدق يــا أرمان. أمــا أنا، فإن مجــرد التفكير فــي إعدام ظلي بالمقصلة يبعث في نفسي شعورا بغيضا.

شفرمون : الإعدام رميا بالرصاص، يا كارلوس. وقلما أعبأ بما يحدث لظلي. فلنقل إنني أفتقر إلى الخيال.. ومع ذلك، فليســت هذه هي الحالة. ســرني أن أتخيــل ذلك الرهط الصاخب الــذي يأتي إليَّ ملوّحــا بقبضته، أو باصقــا على وجهي، لــو كنت مــن الحماقة بحيــث أمد عنقي لذلــك الاغتيال الشرعي.. الشرعي؟ كلا.. غير الشرعي.

كارلوس : (مخاطبا رينيه) إنه شخصية، أرماننا هذا.. ومع هذا كله، فأنت تتحدث كثيرا عن الحكــم بإعدامك.. ولو كنت على هــذا القدر من اللامبالاة التي تزعمها، لأقللت من حديثك عنها.

شفرمون : لم أتحدث عن اللامبالاة... بل إني أتلذذ بها.

كارلوس : في غير صمت، على كل حال...

شفرمون : إن السيدة لومبيير مضطربة تماما.

رينيه : هذه أول مرة أجد فيها نفسي إزاء محكوم عليه بالإعدام.

كارلوس : من الأفضل أن تســكت يا صديقي العزيز! إنه ليس حكما حقيقيا بالإعدام.

شفرمون : إنك تسيء إليّ في هذه اللحظة.

رينيه : ولكن... أحذرك بأنني ســأتكلم بصراحة قاسية. فالأفعال التــي اتهمت بها، وكانت دافعا إلى إصدار هذا الحكم، ألم يحدث لك مطلقا أن عَانيّتَها؟

شفرمون : أرجــو ألا تقدمي على نطــق تلك الكلمــة المخيفة: تأنيب الضمير؟

رينيه : إني أفكر في ضروب من الأسف...

شفرمون : هذه حالات للنفس ينبغي أن نتقيها كما نتقي نزلة البرد.

كارلوس : وقد لا نستطيع دائما.

شفرمون : البرد، ربما، أما الأســف، وعلى الأخــص تأنيب الضمير، فهذا شيء نستطيعه.

رينيه : أنت تملك قدرا كبيرا من القوة الباطنية.

شفرمون : إني أنتمي إلى عالم مازال فيه رجال.

رينيه : إن زوجي يستخدم هذه العبارة في كثير من الأحيان، ولكني أتساءل، إن كان يستخدمها بالمعنى نفسه.

شفرمون : (باحتقار) هذا شيء قليل الاحتمال.

كارلوس : لومبيير شــخص جذاب على كل حال.. كانت إينيس مولعة به.

شفرمون : أيها المتهور!

رينيه : لا أهمية لذلك على الإطلاق.

شفرمون : أرأيت!

رينيه : لا تحــاول الفهم. وفضلا عــن ذلك ينبغــي ألا يكون علم النفس معقلك.

شفرمون : إنها محبوبة!

رينيه : ومع ذلك، فأنت لا تملك كل أنواع التفوق.

شفرمون : ولماذا، على كل حال؟

رينيه : (إلى كارلوس) هذه ظاهرة.

شفرمون : (ناهضا) ســأذهب لأرى إن كانت طائرة البريد قد وصلت. إلى اللقاء قريبا.

(يخرج)

المنظر الثاني

كارلوس، ورينيه

كارلوس : والآن! ماذا تقولين عن هذا الرجل؟

رينيه : إني متحيرة نوعا.

كارلوس : إنه لا يشبه أحدا، وهذا ما أعجبنا منه على الفور.

رينيه : لا أستطيع أن أقول إنني أستلطفه تمام الاستلطاف.

كارلوس : ولِمَ؟

رينيه : لأنه شديد الثقة بنفسه.

كارلوس : ألا يقال ذلك أيضا عن بسكال؟

رينيه : أوه، بسكال، إنه..!

كارلوس : سأقول لك بصراحة، إنه يثير الانقباض في نفسي.

رينيه : حقا؟

كارلوس : يشعر المرء في حضوره دائما بالرغبة في توبيخ نفسه، وأنا أكره هذا الشعور. أوه. ولكن من المفهوم، على الرغم من ذلك، أنه شخص لطيف جدا وعلى جانب كبير من الثقافة.. ثقافة.. أليس عضوا في أكاديمية سانت - بيف؟

رينيه : ليست الثقافة هي ما ينقصه، في الواقع.

كارلوس : لماذا تتنهدين يا صديقتي الصغيرة؛ الثقافة شيء جميل جدا.. إينيس وأنا في حالة إعجاب بها.

رينيه : أما أنا، فلا.

كارلوس : ولكن، من المستحسن أن تسكتي! كل ما قرأه هذا الرجل، وكل ما وعاه...

رينيه : مجرد إسفنجة.. حين نضغط عليها، تخرج الاستشهادات...

كارلوس : إنه يخلو من كل تحذلق. ثم، لا أهمية لهذا كله، في نهاية

الأمر. ولكني أريد أن أعهد إليك برسالة إليه، مسألة على شيء من الدقة.. فأنا لا أعرفه جيدا بحيث أستطيع أن أنقلها إليه مباشرة... إن غيابه من قداس الأحدَيْن الأخيرَيْن كان ملحوظا جدا.

رينيه : بسكال لا يضع قدميه إطلاقا في الكنيسة.

كارلوس : أليس كاثوليكيا، على كل حال؟

رينيه : بالمولد.. أوه! وقد أدّى تناوله الأول...

كارلوس : من حقه أن يفكر في أعماق نفسه بما يشاء، أنت تفهمين جيدا، ولكننا في هذه البلاد نعلق أهمية قصوى على بعض الشعائر. ويجب أن أخبرك أنه إن لم يذهب بانتظام إلى القداس في سان - فيليب أيام الآحاد، فلن يتمكن من التدريس.

رينيه : (بعد فترة قصيرة من الصمت) أنا أرى أن هذا الأمر - في جوهره - حسن جدا.

كارلوس : أنا لا أعرف إن كان هذا حسنا جدا، فأنا بالأحرى متحرر، كما تعلمين، وهي كلمة لم تعد مطابقة لذوق العصر. ولكن الأمر على هذا النحو، في هذه البلاد. الأمر يختلف في ريو. فلأنها مدينة أكبر كثيرا...

رينيه : أود أن أعرف، ما الحاجز الذي يمكن أن نضعه - عدا الكنيسة - في معارضة الشيوعية. ثم إني أعتقد أنه في اللحظة التي نَقْبَل فيها ضيافة بلد ما، ينبغي علينا أن نتوافق مع تقاليده. إنها بكل بساطة مسألة أدب. وأنا لا أحب الأشخاص الذين لا يراعون اللياقة.

كارلوس : أنت في كامل الاتزان، يا صديقتي الصغيرة.. حاولي أن تشرحي له.

رينيه : لعلك لاحظت أنني لا أملك أدنى تأثير في زوجي.

كارلوس : يخطـئ خطأ كبيرا حين لا ينصت إلى كلمة تخرج من هذا الثغر الشهي!

رينيه : لا أظن أنه قد وجه – قط – التفاتا كبيرا إلى ثغري.

كارلوس : يـا للعار!... ثمة موضوع آخر ينبغي أن أتناوله، ولكن يجب عليّ أن أقول إنه أكثر دقة.

رينيه : فلتحاول على كل حال...

كارلوس : يتعلـق الأمـر بإظهار بعض المشـاعر بالنسـبة إلى الرأي العام.. إنه شـيء مرهف إلى أقصـى حد في هذه البلاد. وكلمة «رأي» غير مناسبة تماما. إنه نوع من الحساسية.. أشـبه باللوحة الفوتوغرافية. من المفهوم أننا كنا سـعداء جدا باسـتقبال أختك وابن أختك الفاتن الذي وقعت ابنة أخي تيريزا في غرامه فعلا. ولكن...

رينيه : استمر. لقد راودني الشك في أمر ما...

كارلوس : تلـك النزهـات التـي يقـوم بهـا زوجـك كل مسـاء مع شقيقتك..

رينيه : (مصححةً) مع أختي غير الشقيقة.

كارلوس : ما علينا.. لقد أثارا هاهنا دهشـة معينة.. أحسست جوانب عديدة. وإنه لشـيء مضحك بالتأكيـد.. ولكن قد يكون من التهور – على ما أعتقد – ألا يراعي المرء تلك الآراء، مهما تكن صبيانية. أيضايقك حديثي يا صديقتي الصغيرة الساحرة؟

رينيه : كلا، استمر.

كارلوس : أريد أن أُفضي إليك على الفور بأسـاس تفكيري. لا يبدو لي مستحسـنا أن تقطن أختك معكم في سـان – فيليب.. لقـد حدثت فضيحة هنا ذات يوم.. بالطبع أنا لا أوجه أي اتهام.. بيد أننا لا نسـتطيع أن نمنع الناس من تذكر حكاية جوزيه دي كاسترو..

رينيه : أوثر ألا أعرفها.

كارلوس : لم يكن في نيتي أن أقصَّها عليك.

المنظر الثالث

الشخصان أنفسهما، وبسكال

بسكال : (في عصبية شديدة) هل خرج؟

كارلوس : عمن تتحدث؟

بسكال : عن صديقك شفرمون.

رينيه : أرجوك يا بسكال!

بسكال : من المسـتحيل ألا تفهم ما أشعر به في حضور شخص قد وشى بفرنسيين في أثناء الحرب.

كارلوس : أطلب منك بإلحاح يا صديقي العزيز أن تعتبر هذه المسألة منتهية.

أنا أجنبي – بكل تأكيد – وليسـت لي أي صفة تسـمح لي بالتدخل في هذه المسـائل.. ومع ذلـك، من حقي أن أقول إن الفظائـع كانـت ترتكب من كل جانـب، ومن بين هؤلاء الفرنسيين الذين قلت إن شفرمون قد وشى بهم، كان هناك أشـخاص لو أنهم عاشوا، لما أحسوا بأي تردد في قتل، بل في تعذيب خصومهم. الحكمة في أن ننسى – هذا ما أؤكده لك – بل أكثر من الحكمـة. لن ألجأ إلى الإنجيل، مادمت لا تمارس واجباتك الدينية على ما أظن، ومع ذلك... أرجو المعذرة، إذ ينبغي أن أترككما بضع لحظات. ولكن، أرجوك – يـا صديقي العزيز – أن تهدئ من روعك.. هل تعرف ما إذا كانت زوجتي عادت؟

بسكال : كنا نتمشـى معا منذ لحظة.. ويبدو لـي أنها تفهم حالتي النفسية تمام الفهم.

كارلوس : إنهـا تفهم بكل تأكيد، إينيس تفهم كل شـيء. وأنا – أيضا – أفهم. ولكن، أمن المغـالاة أن أطلب منك التخلص بعض الوقـت من تركة الحقـد والبغض التـي حملتها معك من أوروبا؟ أظن، أن لا... إلى الملتقى يا صديقيَّ العزيزين.



المنظر الرابع

بسكال، ورينيه

رينيه : أنت مجنون تماما. هذه الطريقة في شكر أصدقائنا الرائعين على كرم ضيافتهم شيء لم يُسْمَع به من قبل.. ثم، عندما أتذكر ما كتبته بنفسك في مقال...

بسكال : عفوا، قلتُ دائما إني أعتبر الوشاية جريمة لا تغتفر، الجريمة الوحيدة التي لا تستحق أي شفقة.

رينيه : لستَ مسؤولا عن إقامة العدالة هنا. وأفكارك لا تهمُّ أحدا.. نحن لاجئون.. فلنقل لاجئون قبل حالتهم النهائية.. وهذا وضع يتطلب التواضع واللباقة.

بسكال : إن كلمة «لاجئون» هذه تُرَوعني.

رينيه : ألعلك تحاول إقناع نفسك بأنك سائح أو محاضر في جولة؟

بسكال : كفى.

رينيه : هذا شيء خارق للمألوف! منذ أن حضرت هنا، وأنت تتحدث كما يتحدث رجال المقاومة، والوطنيون.

بسكال : أنت لا تفهمين شيئا.

المنظر الخامس

الشخصان أنفسهما، وإينيس

إينيس : إني حزينة أشد الحزن لما حدث.

بسكال : لم يحدث شيء. عبرتُ بشيء من الحِدة عن شعور لا سبيل إلى التغلب عليه.

إينيس : لا تقل «لا سبيل إلى التغلب عليه»، بل يجب التغلب حقا. لقد نقل إليَّ كارلوس كلمة، ولكنني رأيت أنه يجد مشقة،



وأنا أكره أن يجد مثل هذا... إنني أهيب بعطفكما الكبير... شفرمون... أنا لا أجادل.. قد تكون له أخطاء خطيرة جدا، هذا محتمل.. ولكنه إنسان تعس جدا.

بسكال : يبدو لي أنه راض تمام الرضى عن حالته.

إينيس : إنه يكابر، ولكني أؤكد لكما أنه يتعذب كثيرا. إنه لا يملك شيئا من المال، كما تعلمان، ولا يستطيع المرء أن يعطيه شيئا، لأنه شديد الكبرياء.. ربما وجدنا له شيئا في فنزويلا. كتبنا إلى أصدقاء لنا في كاراكاس. ولكننا، في انتظار الرد، أرجو أن تتحملا.. وإلا أصبح الوضع عسيرا غاية العسر، ينبغي أن أذكِّركما دائما.. لسنا هنا في أوروبا.

رينيه : ولهذا السبب أتينا.

إينيس : ثمة شيء من أوروبا يلتصق بنعال أحذيتكما. ولكن أرجوكما أن تمسحا أقدامكما بعناية، وكأنما تدخلان حجرة أرضيتها من الباركيه المدهون جيدا - عندما تمتلئ الشوارع بالأوحال.

بسكال : (بصوت خفيض) هذا فظيع.

إينيس : كلا، إنه ليس فظيعا، يا صديقي العزيز .. إنها مسألة نظافة، لا غير. أعرف أن هذا عسير. وقد وجد شفرمون هو أيضا شيئا من العناء في البداية.

بسكال : وهكذا، في رأيك، أن الحالتين متماثلتان؟

إينيس : إنهما شيء واحد تماما... أرجو المعذرة، إني أرى أنني أجرحك. ولكنني لا أعقد مقارنة أخلاقية بينك وبين هذا الرجل الذي لا يعجبك. الرب وحده قادر. ولكن، أحقا أنك لا تؤمن بالرب؟ هذا محزن جدا، ويسبب لي شقاء شديدا.. كل ما أريد أن أقوله هو أنك دخلت عالما ينبغي أن تفكر فيه على نحو آخر.. ينبغي أن تلتفت صوب المستقبل... هنا حقا بلاد المستقبل.

بسكال : أي مستقبل؟ وبالنسبة إلى شفرمون..

إينيس : يـا لأرمان المسـكين! سـيموت قريبا، إنه مصـاب بذبحة صدرية، أتعرف ذلك؟ تستطيع إذن أن تصبر قليلا جدا... عليّ أن أعلن لك زيارة ربَّما لا تسرك كثيرا.. ولكنه يحرص على مقابلتك، ولم أستطع أن أقول له.. على العكس، أكدت له أنك ستغتبط بمعرفته.

بسكال : ولكن، عمن تتحدثين؟

إينيس : بكل بسـاطة عن الأب ريكاردو رئيـس الدير القائم هناك على قمة الجبل. إنه واحد من أصدقائنا الكبار..

بسكال : ولماذا يود أن يراني؟

إينيس : (مرتبكة) لست أدري بالضبط. إن لديه - بالتأكيد - سؤالا يريد أن يوجهه إليك، أو ربما كان اقتراحا يريد أن يعرضه عليك. لسـتَ على كل حال من أولئك الرجال الذين يلوذون - بالفرار عند رؤية طيلسان الكاهن؟

رينيه : (في حماس) لم يكن بسـكال معاديا قـط لرجال الدين.. ولكن، ربما كان في سبيله إلى أن يصبح كذلك.

بسكال : ولكن، في أي لحظة ينبغي أن يأتي؟

إينيس : كنت أعلم أنك سـتكون هنا بعد الظهر. وسـيأتي في هذا الوقت ومعه كارلوس.

بسكال : هذا ما يسمونه وضع السكين على العنق.

إينيس : إن لك - يا صديقي العزيز - طرائق غريبة في التعبير عن نفسك.

رينيه : لا بد أن أطلب منك - مرة أخرى - التماس العذر له. (إلى بسـكال) أتوسل إلى صديقتنا أن تسـتخدم تأثيرها فيك، لمسـاعدتك على أن تصبح مرة أخرى شـخصا مهذبا. أما أنا، فأتنازل عن هذه المهمة. إلى اللقاء.
(تخرج)

المنظر السادس

إينيس، وبسكال، ثم الأب ريكاردو

إينيس : لعلني أخطأت، ولسـت أريد أن أكون غير مهذبة، بيد أنني أخشـى أحيانا أن تعاني رينيه مشـقة.. مـن المحزن حقا بالنسـبة إليها أن تنفصل عن والديها اللذين لن تراهما - بلا شـك - مرة أخرى في هذا العالم، وعن كل أصدقائها، وعـن تلك الحياة في باريس التـي أحبتها كل ذلك الحب. أما بالنسـبة إلـى رجل من رجال الفكر مثلـك، لديه كتبه وتأملاته، فالأمر أقل عناء. إنه امتحان قاس بالنسبة إليها خضعت له من أجلك، وفي هذه الأحوال ينبغي أن تفعل كل ما في وسعك، لتخفف عليها الإقامة...

بسكال : أخشى ألا تكوني قد تلقيت معلومات صحيحة تماما. فلقد كانـت زوجتي - على العكس من ذلك - هي أول من أرادت الرحيـل. ولو كنت وحدي، لكان من المؤكد تقريبا ألا أغادر فرنسا.

إينيس : ولكن ليس هذا على الإطلاق مـا تركتني رينيه أفهمه. آه! هاهو الأب ريكاردو.

المنظر السابع

الأشخاص أنفسهم، والأب ريكاردو

الأب ريكاردو : أرجو المعذرة يا سـيدي علـى إزعاجك، غير أن السـيدة مارتينيز قالت لي إنه من الممكن أن أسمح لنفسي...

إينيس : سيكون السـيد لوميير سـعيدا جدا بالتحدث معك بضع لحظات، أليس كذلك؟ إني أترككما.
(تخرج)



بسكال : (بلهجة المغلوب على أمره) آسف - يا أبتاه - لأنك تجشمت عناء الحضور إليّ. وكان من الأيسر عليّ أن أزورك.

الأب ريكاردو : ولكن، ربما عانيت شيئا من النفور إزاء الأماكن الكهنوتية.

بسكال : نفـور؟ كلا. بالطبـع، فإن لـي أصدقاء مـن الدومينيكان واليسوعيين في باريس.

الأب ريكاردو : أقمـتُ طويلا في باريـس، كان ذلك قبل الحـرب العالمية الأولى.

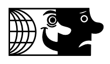
بسكال : (في لهجة ارتياب) وهل أعجبت بها؟

الأب ريكاردو : أعجبت - كما تتوقع بحق - بالروائع الفنية التي تكدسـت فيها على مدى القرون. لسنا همجيين يا سيد لوميير، وإن كانت صحفكم ومجلاتكم تنشـر أحيانا عن بلادنا تعليقات تؤلمنا أكثر مما تجرحنا. غير أن الإعجاب الذي أحسسـت به امتزج بقلق شـديد... كان ذلـك العهد هو عهد الجبهة الشعبية، يا سيد لوميير. أتأذن لي بأن أسألك؟ ولكن، كلا هذا السـؤال لا جدوى منه. فإن عقلا ممتازا مثل عقلك لا يمكن أن يخضع لإغراء تلك الغوغائية.

بسكال : كانت السياسة تبعث دائما النفور إلى نفسي. واليوم، أراني ألوم نفسي على ذلك النفور.

الأب ريكاردو : لو لم يكن الأمر بعيدا عن اللياقة، لأحببت أن أسألك: فيمَ تكمن أخطاؤك بالضبط، وفقا لتقديرك أتريد أن تقول إنه كان ينبغي عليك المشـاركة على نحو أنشط في الدفاع عن النظام؟

بسكال : (فـي حيوية) كلا، بكل تأكيد، فليس لي روح الشـرطي... كلا، لكن الأحرى أن أقول إنني أخذت حينذاك، في يسـر شـديد، نصيبي من الظلم الاجتماعي في زمن كان فيه من الممكن بالعزيمة الصادقة مكافحة ذلك الظلم كفاحا مفيدا بلا شك.



الأب ريكاردو : الظلم الاجتماعي؟ هذه كلمـات صحافي أو محام، ولكنها تصدم قليلا حين تخرج من فم رجل مثلك.

بسكال : أنـا لا أفهم، أو بالأحرى، إنني أفهم أكثر من اللازم. أعترف لك يا أبتاه، بأنني منذ أن أتيت إلى هنا، اتخذت بعض الألفاظ التي طالما ارتبت فيهـا، رنينا غير متوقع.. أوه لاحظت ذلك في الشـرق، يبدو لنا البؤس أشـد وضوحا حين نسافر إلى أرض أجنبية. ففي بلادنا، تكون عادتنا، وعملنا على الأخص، أشـبه بغلاف واق يعمي الأبصـار. إن وضوح الرؤية لا يكون ممكنا إلا إذا دفعنا الرحيل عن الأوطان ثمنا له.

الأب ريكاردو : لسـتُ على مثل يقينك يا سـيدي العزيز. فأنا أخشى ألا يكون المسافر من وجهة نظري سوى مخبر صحافي - مخبر صحافي مبتدئ. وحتى المخبرون المحنكون لا يفهمون شيئا مما يشـاهدون. بل يقال إنهم حـين يكونون بعيدا يفرزون أحكاما مسبقة كانوا منزهين عنها في بلادهم.

بسكال : أحكاما مسـبقة؟... (محاولا السـيطرة على نفسـه) إنك تتحدث بلغتنا على نحو ممتاز، يا أبتاه.

الأب ريكاردو : تلقيـت الشـطر الأكبـر من دراسـاتي في كليـة جزويت فرنسية.

بسكال : قلت لك من قبل إن لي الشـرف بأن يكون لي أصدقاء بين الآباء الجزويت (اليسوعيين)

الأب ريكاردو : من الممكن أن نخشـى لسوء الحظ - وأستطيع أن أتحدث عن هذا الموضـوع بحرية لأنني لا أنتمـي إلى «الجماعة» - أن تتعـرض وحدة هذه الجماعة للخطـر. إن معلومات دقيقة تصـل إلينا عما يجري في فرنسـا، وكان ارتياحنا عظيما حـين علمنا بالتحذيرات الجديـة التي وجهت في الأيام الأخيرة إلى أولئك اللاهوتيين الطائشين الذين تؤدي تعاليمهم الهدامة رأسا إلى الإلحاد.

بسكال : لست لاهوتيا، أو حتى فيلسوفا، ومعرفتي هزيلة بالمذاهب التي تشير إليها.

كل ما أعرفه هو أنني التقيت في تلك الطوائف برجال على درجة كبيرة من تفتح العقل.

الأب ريكاردو : إن ما تسميه تفتحا للعقل يمكن أن يكون ثغرة نفذ منها كثيرٌ من الأخطاء. فهنا، في هذه البلاد القائمة عبر الأطلنطي، نرى أن مهمتنا هي تحصين العقول ضد هذه الأخطاء التي أدينــت حديثا جدا، وتعاليم الأدب التي أشــاروا بها عليك بتوصية أشخاص من الصفوة مثل كارلوس مارتينيز – هذه التعاليــم قُدّر لها في تفكيرنــا أن تكون بمنزلة معقل ضد تلك الأخطاء البغيضة التي قادت أوروبا إلى حتفها.

بسكال : (في جفاء) بوصفي مؤرخا للأدب، وللشعر وللرواية، لا أرى فيمَ يمكن أن أؤكد هذا الدفاع.

الأب ريكاردو : أنت تدهشــني يا سيدي العزيز. في الصراع المكشوف بين الروح القُدُس والقوى الشــيطانية التي انطلقت من عقالها فــي العالم، لا يمكن أن يقــوم ثمة حياد في أي مجال كان، ولاســيما في المجال الذي تسميه بمجال الأدب. ولا يكفي أن يقتصــر الأمر أو أن يكون الغرض الرئيســي هو مجرد العرض، بــل ينبغي أن نحكم.. أن نحكم وفق معايير ثابتة. وقد كنت أنا نفسي مشغولا بأدبكم، فكتبت مؤلفا صغيرا عن «فيّو» العظيم الذي كان دليلا على وضوح في الرؤية عجيب في زمانه. ينبغي أن نعمــد إلى مراجعة الأحكام في ضوء الأحداث المعاصرة كما ينبغي أن نتخلص من ذلك التساهل المجرم الذي أبداه الناس نحو أولئك الذين حطموا الإيمان، وفتحــوا الطريق المؤدية إلى الفوضــى. وقد أكدوا لي أنك تنــوي محاضرة طلابك عن «جيد» و «بروســت»، وعمن لا أدري؟ .. وعلى فــرض أنهم خولوك هذا الحق – وهذا ما كلفتُ بإبلاغك إياه صراحة – فســوف يكون ذلك بشــرط

رســمي، وهو أن تكشــف عن الأخطاء، وعن الفظائع التي تحفل بها كتاباتهم. أنا أتحدث بالســماع، فإن عندي ما هو أفضــل من دس أنفي في تلك الأقذار. ولكني في الحقيقة لا يســاورني قلق. فإن وجودك هنا، بيننا يثبت إثباتا كافيا أنك معنا في هذا الصراع العظيم.

بسكال : معكم؟

الأب ريكاردو : لن أجرحك باعتقادي أن رحيلك كانت تمليه دوافع شخصية بحتة. فإذا كنــتَ قد غادرت أوروبا، فذلك لأنه لم يعد من الممكن مواصلة ذلك الصراع فيها مع أي فرصة للنجاح.

بسكال : (في ســخرية مُقَنَّعة) ألا تعلم – يا أبتاه – أنك تنيرني فيما يتعلق بنياتي الخاصة؟

الأب ريكاردو : هــذا المناضل العنيد، هو ذلك الرجل الذي اســتقبلناه بين ظهرانينــا، كل ما في الأمر هــو أن للمعركة قواعدها التي ينبغــي أن يخضع لها الجنــدي. وهذه القواعد لا يمكن أن تصدر إلا عن أعلى ســلطة، أعني الكنيســة. ولقد سمعت أن ممارســتك للشعائر الدينية كانت مهتزة قليلا في الأيام الأخيرة. عليك أن تشرح ذلك على كرسي الاعتراف. أنا لا أصــر، فهذا أمر غير لائــق. ولكنني أريد – بصورة مطلقة – أن نشعر بأننا على اتفاق تام. وأكرر لك أنني لا أطالبك بالإفضاء بشــيء عما تعانيه أو عمــا لا تعانيه. فأنت تعلم مثلي أن هذا لا أهمية له على الإطلاق. فحين يكون الجندي في الخدمة، لا نهتم كثيرا بعواطفه، أو ببرود أفعاله.

بسكال : (في حدّة) يا أبي، هناك ســوء تفاهم مخيف بيننا. إني لم أختر ما هو ضد الحرية.

الأب ريكاردو : ما الذي تسميه بالحرية؟

بسكال : كما أنني لم أختر ما هو ضد الحقيقة.. وهما – في نظري – ممتزجتان.



الأب ريكاردو : لن أطلب منك أن تشرح ما تعنيه هاتان الكلمتان. فمن الممكن أن يؤدي بك ذلك إلى ضـروب غريبة من الجهر بالإيمان. وأسلّم بكل بساطة بأنك لكونك فرنسيا لم تستطع أن تقاوم إغراء نفخ هذه الألفاظ الرنانة في أذني، تلك الألفاظ التي وجدت لديكم دائما كثيرا من الأصداء منذ أن نأت بلادكم التعسة عن التراث الديني. وإنـك لتذكرني بطفل صغير يقـرع الطبل. أجل، الأمر على هذا النحو تماما. وأنت في هذه اللحظة شـديد الانفعال، ولكنك سـتعود إلى مشاعر أكثر اتزانا.. وفي هذه الحالة، اعتمد كثيرا على الضرورة. إلى متعة لقائك مرة أخرى، يا سيدي العزيز.

(يخرج)

المنظر الثامن

فترة صمت طويلة

بسكال : (مناديا) إستير! إستير!

مارك – أندريه : (داخلا) لم تعد أمي بعد. ماذا أصابك يا عماه.

بسكال : إن الكلّابة تزداد ضغطا.

مارك – أندريه : أؤكد لك أنني لا أفهم.

بسكال : ولكن كلا، أنت فاهم!... الغرباء الذين نعيش عندهم، هذا الاختلاط البشع بفاسق، وعلى الأخص – وهذا أسوأ من كل شـيء – هذا الحجز، هذه المصادرة.. أما أنا، فلن أخون.. أوثر الموت.. وأنت يا بني، إلام تصير؟ ماذا سـيفعلون بك؟ ألم يُضنك الأسف على رحيلنا؟

مارك – أندريه : (في بسـاطة) كلا.. أقسم لك على أنه لا يضنيني. إن لديّ انطباعا.. كيف أنقله إليك؟... منذ أن أصبحت هنا يبدو لي أنني شـيء مطوِيّ يُنشَر، وأنني ربما وجدت نفسي. تيريزا.



إن لهـا أصدقـاء يبحثون عن مدرس شـاب لتدريس اللغة الفرنسية لأبنائهم. وقد عرضوا عليَّ هذه الوظيفة.. فقبلت طبعـا. لم أعد أريد أن أعيش طويلا على نفقة أصدقائك. وأنا الآن في الانتظار. وأرجو أن أجد سكرتيرة.

بسكال : الحق أنك لم تعد بالهيئة نفسها.. أينبغي أن أفهم أيضا أن هذه الفتاة...؟

مارك – أندريه : ألا تراها فاتنة؟ ثم إن لها لصوتا...!

بسكال : جميل.. وهكذا، لم نخطئ على الأقل فيما يتعلق بك.

مارك – أندريه : ألا تحقدون عليّ؟

بسكال : ولكـن كلا، يا بني، فهذا شـعور وضيع وغبـي.. أن نحقد عليك! ولكن هذا معناه الرغبة في الحياة نفسها.

مارك – أندريه : إذن ماذا؟

بسكال : فـي مثل سـني، يصبـح ذلك الحقـد أمرا لا سـبيل إلى الاعتراف به.. ويبدو أن ولدَي خالتك الصغيرين سـعيدان جدا، ولاسـيما إيزابيل، أما روجيـه، فهو حائر قليلا.. إنه يأخذ عني.. ولكنه سيعتاد.

مارك – أندريه : وأنت، يا عمي بسكال، أليس من المسموح به أن نأمل؟

بسكال : كلا، بـكل تأكيد، كلا... كانـت والدتك على حق، أكثر مما تسـتطيع أن تتصور هـي نفسها.. كان فراري خطأ وعقابه الخـاص في آن واحد. (إلى إسـتير التـي تدخل في هذه اللحظة شـاحبة الوجه ممسكة بخطاب في يدها) إستير! ماذا دهاك! لماذا هذا الوجه الزائغ؟

إستير : خبر مـروع. روبيـر.. اختفـى... ويخشـى أن يكون قد خُطِف.

بسكال : أأنت مجنونة يا إستير، من الذي خطفه؟

إستير : ولكن، ألا تتذكر؟.. إنه كان ينادي بشيوعية فرنسية...



مارك – أندريه : الشيوعية ستكون واحدة في كل مكان. ولكن من يدريك أنه لم يكن مكلفا برســالة سرية إلى أوروبا الشـرقية؟ ولكنني لا أفهم شــيئا يا أماه في نهايــة الأمر، إنك لم تُحِبّيه قط، وأنت، يا عمي بسكال، لم تكن تستطيع أن تتحمله... أخيرا، ماذا أصابكما؟ أنا لا أفهم...

(صمت – يخرج)

بسكال : (إلى إســتير في حزن عميق) ابتهجي، يا إستير. رسا ابنك على بلاد ذات عواطف غير مشوبة. وسيُكْتَب له البقاء.

إستير : ولكن أنت، يا بسكال، ولكن نحن؟

(بسكال يهز كتفيه في حركة تدل على الإعياء)

* * *



الفصل الخامس

ديكور الفصل الرابع نفسه. بعد مضي عدة أيام

المنظر الأول

بسكال، وإستير

(إستير تقرأ فقرة من صحيفة ناولها إياها بسكال. يمكثان هنيهة صامتَيْن)

إستير : يبــدو لي الأمر واضحا بما فيه الكفاية. لقد قتله الآخرون لأنه لا يوافــق على مزاعمهم. وكانوا قــد رأوا فيه زعيما لمعارضة يمكن أن تصبح معوِّقة.

بسكال : وهذا لا يدهشك؟

إستير : كلا.. أتذكر أنه قال لي ذات يوم: الاحتــلال الســوفييتي معناه قرن من الفاشية في فرنسا...

بسكال : أجل... ولهذا ظل فرنسيا حقا.

إستير : أترتاب في ذلك؟

بسكال : إني لأعتــرف به، هذا فظيع يا إســتير. هذا الضوء الذي ينيرنا بالنســبة إلى الأشــخاص حين يصبحون في عداد الأمــوات... افهميني جيدا، إن المثــل الأعلى الذي ضحّى أخوك بنفســه من أجله مابرح يفزعنــي، إنه إدانة لكل ما يدعوني إلى الحياة. وإني لأحطم نفسي حين أقبله.. ولكن أين هي تلك الدوافع التي تدعوني إلى الحياة؟

إستير : أســألك أن تفكر فيه بضع لحظات. أنا أعلم جيدا أنك لم تحبه، وأنا، هل أســتطيع أن أقول مخلصة إنني كنت أحمل له عاطفة حقيقية؟ إننــي أبحث، وأعود إلى الماضي.. إلى طفولتنا.. لم تكن لنا الميول نفسها قَط. كان مستبدا وعنيفا

في بعض الأحيان. سأفضي إليك بشيء رهيب: لم تكن أمنا تحبه، كان يذكّرها بشقيق لها، ثوري هو أيضا، كل ما في الأمر أنني أتساءل – وهذه فكرة مخيفة – عما إذا كان هذا الحب الفاشل قد تحول إلى بُغض في أغوار قلبه. لقد حدث لي، أوه! نادرا، مرتين أو لعلها ثلاث مرات، أن ألمح في عينيه تعبيرا كان هو تعبير اليأس حقا، وخصوصا حين يحسب نفسه وحيدا.

بسكال : ولكن، هذه المرأة التي كتبتِ إليك؟

إستير : أنا لا أعرفها. ولم يحدثني روبير عنها إلا لماما، ولم يكن يريد أن ألتقي بها. ربما تصور أنني قد أوجّه إليها كلمات جارحة.. وكان في ذلك مخطئا.. بيد أنه لم يكن يعرفني حق المعرفة، إذ لم يكن نفسانيا، وفضلا عن ذلك، كان يخطئ في حكمه على الناس جميعا، كما تعرف. بل كان يرفض أن يتصور قدرتنا على معرفة الآخرين، إنه لم يكن يؤمن بالآخرين، وكان يحتقر علم النفس، وينظر إليه بوصفه علما كاذبا بورجوازيا. ومع ذلك، فقد كان يعيش من أجل الآخرين.

بسكال : ألا تعتقدين أنه كان طموحا؟

إستير : كلا، بإخلاص، كلا، لا أعتقد ذلك. إن ما يملؤني بشفقة لا سبيل إلى احتمالها فكرة أنه كان يؤذي نفسه باستمرار أمام الناس جميعا. كان يُرغم الآخرين على الحكم عليه بأنه منفِّر وعلى أن يُعرضوا عنه. وهذا كان عيبه.

بسكال : والآن، لا نستطيع أن نصنع شيئا من أجله. وحتى لو عاد إلى الظهور أمامنا بمعجزة، فسوف يستولي عليّ مرة أخرى ذلك الشعور بالنفور الذي لا سبيل إلى قهره، والذي أوحى به إليّ دائما.. ولكن، هذه الشفقة التي تستيقظ في نفسي كلما تعاقبت اللحظات، أهي شعور كاذب، شعور يقتضي إعدام من تتجه إليه؟

إستير : يا صديقي..

بسكال : ماذا تريدين أن تقولي؟

إستير : لم أعد أجرؤ.. أخشى أن أتحدث مبكرا جدا قبل أن تنضج تلك الفكرة في أعماق قلبي.

بسكال : يا إلهي.

إستير : منذ لحظة.. بل بعد ذلك قليلا. أولا، دعني أوجه إليك شكري العميق. لقد نجا مارك – أندريه، وكنت على صواب.. أوه! إنها ليست بالنسبة إليّ سعادة غير مشوبة حين أرى أنه عاد إلى الحياة منذ أن أغلق الباب نهائيا على كل ما كان لنا.. لا داعي لأي وهم يا صديقي، مارك – أندريه لم يعد فرنسيا. فهل يصبح يوما مواطنا لهذا البلد؟ هكذا ممكن، ولكننا لا نستطيع أن نكون على يقين من ذلك.

بدأ... أينبغي أن نقول انسلاخه؟ أجل، إنه انسلاخ، تحول إلى صورة جديدة. أرأيت كم تغيرت نظرته؟ إنه يضحك الآن للاشيء، وهو الذي لم يكن يضحك قط... وقد أصبح معي مرة أخرى غايةً في الحنان... وهذه كلها علامات تبعث على الابتهاج.

بسكال : بأي حزن تقررين ذلك!

إستير : ليس في وسعي ألا أشعر بذلك الشعور، ولكنني أعلم أنه مذنب، إنه شعور الأم المتملكة التي لم أكن أريد أن أكونها بحال من الأحوال! وإني لأحاول – بمجهود شاق – أن أخفف من احتضاني له .. وسأبلغ ما أريد. إذ لا بد من ذلك. وحين أقبل مارك – أندريه أمس إلى حجرتي ليحييني تحية المساء، وجدني غارقة في الدموع، واستطعت أن أقنعه بأني أبكي على مصرع خاله.. ولم يكن ذلك حقا كله... ومع ذلك.. من المخيف، يا بسكال. تلك الطريقة التي تتصل بها الأحزان جميعا.



بسكال : أجـل. إنها تصب جميعـا فيما أسـميته، ذات يوم، نقطة الأسى الدائرية.

(صمت)

المنظر الثاني

الشخصان أنفسهما، ورينيه

رينيه : أظـن أنكم تتحدثـون عن روبير التعس. هـذا مخيف. كل ما أطلبـه منكم هو ألا تتوقفوا طويـلا عند هذا الموضوع في حضـور كارلوس وإينيس.. فلقد رأيت حرجهما عندما فهما أن روبير كان شيوعيا. وهذا أمر طبيعي جدا.. ضعوا أنفسـكم في مكانهما. ولو أن هذا النبأ انتشـر في سـان فيليب، فسوف يجر علينا بكل تأكيد عواقب وخيمة.

بسكال : ولكنك غريبة الشـأن يا رينيه. من الخسـة من جانبي أن أحاول إخفاء أن روبير كان شـيوعيا، وأنه مات في ظروف أحق بأن تُشَرِّفه.

رينيه : هذا، ما لا يعلمون عنه شيئا.

بسكال : الأسباب جميعا تدعو إلى افتراضه.

رينيه : الآن، بعد أن لم يعد عقبةً في سـبيلك، تكتشـف أساسـا عظيما يدعوك إلى إكباره. إني أعرف ما أقول. إن موقفنا صعب بما فيه الكفاية. ولا أسـمح بـأن يفعل أحد ما من شأنه أن يزيده تفاقما. وأضيف أن هذا «الشفرمون» الذي هو وباء...

بسكال : آه! ألاحظت أنت أيضا؟

رينيه : إنه لا يسـعى إلا إلـى إيذائنا. ولو علم بالنبأ، لسـارع إلى إذاعته.



أما كارلوس وإينيس اللذان هما الطيبة نفسها، فلن يتحدثا عنـه أبدا بكل تأكيـد، ولكنكما أنتما أيضـا مذنبان، أنت وهي، لارتكاب حماقة لا سبيل إلى إصلاحها.

المنظر الثالث

الأشخاص أنفسهم، وكارلوس

رينيه : أرجوك يا كارلوس، أسعفني، إنهما لا يريدان أن يفهما أنه لا ينبغـي إشـاعة قصة أخي غير الشـقيق، بأي ثمن. ولا يملك فينا نحن الثلاثة الإحساس بالوقائع، غيري أنا.

كارلوس : بسكال، جئت لأخبرك أنهم سـيحضرون هنا بالميكروفون بعد سـاعة حتى تسـتطيع – دون أن تنتقـل من مكانك – تقديم الإرسـال المخصص للفرنسيين في أوروبا.. وجدتك فـي غاية من الإرهـاق، فبدا لي من المستحسـن أن أوفّر عليك كل إزعاج.

بسكال : هذا شيء لطيف جدا منك، يا كارلوس، ولكنني لست أدري بعد ما سأقوله اليوم...

كارلوس : لسـت قلقا. فلا تشـغل بالك، فأنت تحسـن الارتجال إذا اسـتدعى الأمر. وإليك – من جهة أخرى – هذه الرسـالة التي وصلت إليك من سـان – فيليب بالبريد المسـتعجل. ومن العنوان أعتقد أنها من مدير الجامعة. لا شك في أنها لتحديد الموعد الذي طلبته.

(يمد يده بالرسـالة إلى بسـكال، الذي يفتحها ويقرؤها على عجل)

بسكال : يكاد هذا الخطاب يكون مؤدبا.. إني مندهش.. حين وصلت إلى هنا، كتب إليّ بأسلوب مختلف تمام الاختلاف.

كارلوس : أخشى أن أخمّن تفسير هذا التحول.. ينبغي أن تعد نفسك

لتقديم تفسير عسير إلى المدير الذي قد يكون فظا...

رينيه : (مندفعة) بكل تأكيد... وذلك عقب محادثتك مع رجل الدين ذلك اليوم...

بسكال : حقا؟

كارلوس : لا يمكن أن يكون ثمة شك في هذا الموضوع. إن «الأب ريكاردو» الذي التقيتَه أمس الأول لم يخفِ عني أنه كتب إلى العميد لإشراكه في هواجسه.

بسكال : وماذا بعد! ولكن، هذا حسن جدا.

رينيه : كيف يمكن أن يكون حسنا جدا؟

بسكال : إنني أحب المواقف المحدّدة حبا جما. يجب أن أبدأ محاضراتي في غضون خمسة عشر يوما، ولا أسمح لنفسي بأن يطوف أقل التباس بالروح التي ينبغي أن ألقي بها هذه المحاضرات.

رينيه : (إلى كارلوس) هل فهمت؟

كارلوس : يا صديقي العزيز، أتوسل إليك أن تنتبه..

بسكال : لن يصنعوا مني مُطَهّرا للأدب.

كارلوس : دعني أقل لك إنني ضمنت مشاعرك الكاثوليكية.

بسكال : بأي حق؟

كارلوس : لقد أعطتني مدام لومبير - منذ عدة أشهر - جميع الضمانات الممكنة، ولما كنا قد فهمنا أنها تكتب على لسانك...

بسكال : هذا احتيال.

رينيه : (إلى كارلوس) أرجو أن تتركني على انفراد معه.. يعلم الله ما سيتهور بقوله.. رحماك. (إلى إستير في جفاء) إن مكانك ليس هنا. لدي انطباع بأنه قد استمد منك تشجيعا إجراميا لا أدري كنهه.

إستير : أنا لم أقل شيئا.

رينيه : عمَّ تتحدثان خلال تلك النزهات التي لا تنقطع؟ كلا، أوثر ألا تجيبي علي.

إستير : (إلى بسكال) أينبغي علي؟ .. كلا، إنها على حق في نهاية الأمر. وفضلا عن ذلك عندي قرار خطير ينبغي أن أتخذه، ولا بد أن أخلو إلى نفسي.

المنظر الرابع

بسكال، ورينيه

بسكال : لقد وقعت في كمين.

رينيه : الآن، أصْغ إليّ. إن ما يجري هنا أخطر مما تظن. وأنت في سبيلك إلى قطع كل ما وراءك من جسور من دون أن تفكر مليا في المستقبل الذي تعده لنفسك... أقول، الذي تعده لنفسك ولست أدري ربما كانت تراودك تلك الفكرة السخيفة، بالعودة إلى أوروبا.

بسكال : كلا.

رينيه : إذن؟ تتصور ما يحدث لو أنك فقدت كل أمل في العثور على منصب؟

بسكال : هذا سؤال ليس من حقي أن أضعه لنفسي.

رينيه : أنا، مع الطفلين، أستطيع أن أدبر أمري فهنا أناس رائعون...

بسكال : أتتحدثين عن إينيس وكارلوس؟

رينيه : كلا، فقد خيبا أملي تماما. فهي ليست سوى دمية..، وهو...

بسكال : ماذا تأخذين عليه؟

رينيه : (من دون أن تجيب) المسألة لا تتعلق بكارلوس في هذه

اللحظة، بل بنا... فلو تصرفت كشخص غير مكترث وكمجنون، فلن يلومني أحد على انتزاع الطفلَين منك. بل على العكس، سوف يشفق الناس جميعا عليّ.

بسكال : وهذه الشفقة تعجبك؟

رينيه : إن اللاجئين من أمثالنا لا يمكنهم أن يمتعوا أنفسهم بترف الظهور بمظهر الكبرياء الشديدة. وهنا أيضا - ولا أدري إن كان ذلك راجعا إلى اختلاط الأجناس - يبدو الناس جميعا لطافا، متسامحين.

بسكال : ومع هذا كله، من المستحسن ألا نصيح فوق الأسطح بأن لنا أخا شيوعيا.

رينيه : أولا، لم يكن روبير شقيقي... أحسست دائما أنني ابنة أمي أكثر من أن أكون ابنة أبي.

بسكال : عجيب... ثمة شخص لم يُنْطق اسمه بعد...

رينيه : ماذا تقصد؟

بسكال : إستير.

رينيه : فلنبتعد عن هذا الفصل، إذا سمحت. جاءت إستير إلى هنا على الرغم مني، وفي ظروف يتفق أصدقاؤنا...

بسكال : ثم ماذا؟

رينيه : يتفق أصدقاؤنا في الحكم عليها بأنها مشينة.

بسكال : ماذا تقولين؟

رينيه : لن تنكر أنك أرغمتني. وكانت إستير تعلم تمام العلم أنني لا أرغب إطلاقا في اصطحابها.

بسكال : ولماذا تصطحبينها؟ لقد دَفَعَتْ أجر رحلتها ورحلة ابنها.

رينيه : وإني لأتساءل أيضا: كيف كان ذلك؟ أشك شكا قويا في أنك قدمت إليها قرضا من المال.

بسكال : وأين العيب في ذلك؟

رينيه : لقد فُرِضتَ عليَّ إذن بطريقة اعتبرها وقحة.

بسكال : أنت تهذين. وإنما أريد أن أعرف ماذا تعني كلمة مشينة التي استخدمتِها منذ لحظة.

رينيه : مع ذلك الذي لا تفهمه!

بسكال : أوثر ألا أفهم.. أو لعلك تريدين حقا أن أدافع عن نفسي؟

رينيه : أنا، لم أتهمك.

بسكال : أتلمحين إلى أنني في نظر الناس هنا عشيق أختك؟

رينيه : أنا لا أتحدث عن كارلوس وإينيس، ولست بعد على يقين...

بسكال : لا يهمني ما يفكرون فيه أساسا. إنهم أناس من هذه الدنيا وليسوا كائنات بشرية.

رينيه : يا له من احتقار! أتعتقد نفسك من البروليتاريا مثلا؟ إن ما أستطيع أن أضمنه لك أنا، أنك لو واصلت التصرف على هذا المنوال، فستجد نفسك بعد وقت ما حُطَاما، لا تنتمي إلى أي طبقة، طفيليا لا جدوى منه.. وحين أقول طفيليا، ليس طفيليا من يريد.. لا بد من أن تنال الإعجاب، أما أنت فتبعث على النفور.. أنت تسعى إلى أن تكون شاذا. ومادمت تتحدث عن إستير، فسأنقل إليك التحذير الذي بلغني ذلك اليوم. يجب وضع نهاية بأسرع ما يمكن لصلة حميمة يُحْكم عليها بأنها أكثر من مريبة. وبهذا الشرط وحده يمكن أن تُقْبل في سان فيليب. أوه! إنني أعلم جيدا، من يسمعك منذ لحظة يمكن أن يظن أنك قد تنازلت أنت نفسُك عن هذا الكرسي، ولكنني أراهن على أن صيحاتك ومظاهرك الفخمة لا تدل حقا على شيء، وأنك بعد ليلة من السهاد سترجع بلا شك إلى نظرة أقل رومانتيكية للموقف. إني أعرفك، إنك لا تشعر بأي ميل إلى عدم الاستقرار، وما من أحد أشد منك احتياجا إلى الشعور

بأن حياته المادية مضمونة. وأذكر تلك اللحظة التي شاعت فيها ضجة مريبة حول بنك بيرييه الذي كنت من عملائه.. كدت تخرج عن طورك من القلق.

بسكال : وهـــذا أيضا!... لقد احتفظت عمدا، وعن تفضيل، بكل ما يمكن أن يكون - في حياتي - موضع احتقار... لماذا؟

رينيه : لي دائما ذاكرة جيدة جدا. ولا أرى ما يدعو إلى مؤاخذتي عليها.

بسكال : من الممكن أن يقال إنك قد وُضِعْتِ على طريقي لكي تضعي خطـــا حاقدا تحت الفجوة القائمة بين ما أنا عليه وبين ما أتمنى أن أكونه.

رينيه : لا أحب الأماني. إنها مهزلة يلعبها المرء على نفسه. وأرفض أن أكون مخدوعة. هذا شـــيء أشبه بذلك النوع من الحب الأفلاطوني بين إســـتير وبينك.. وأنـــا لا أعرف ما ينطوي عليه من شيء مضحك أو شاذ.

بسكال : اسكتي.

رينيه : أذكر أنني عثرت في منزل ريفي قديم على مجموعة «مجلة عَالَمَيْن»، وكانت تضم روايات لإدوار رود. إنك شخصية من شخصيات إدوار رود.

كل ما في الأمر أن الناس أقل سذاجة اليوم مما كانوا عليه في ذلك العصر.. هـــذه الغراميات الطاهرة، يعرف الناس ما وراءها..

بسكال : كيف تعرفين أن إســـتير ليست عشيقتي؟ (تنفجر رينيه في ضحكة مزدرية)

إني أكرهك.. أنتِ شقائي.. لقد كنتِ دائما شقائي...

المنظر الخامس

الشخصان أنفسهما، وإستير

رينيه : (إلى إســـتير) أتريدين أن أخبرك بما يســـعى بســـكال إلى إقناعي بـــه؟... تخمنـــين؟ لعلك في قرارة نفســـك تكونين مســـرورة لو أنه نجح... ولكن لا حيلة لنا في شـــيء... (إلى بسكال) أنت لست رجلا، ولم تكن رجلا قط.. وربما كنت في أحسن لحظاتك أكثر قليلا من إنسان.. قد أعتقد هذا...

ولكنـــك في حياة كل يـــوم أقل كثيرا من إنســـان، وهذا ما يفسر كل شيء.

(تهم بالخروج)

بسكال : لا تذهبي، قبل أن أقول لك - أنا - رأيي فيك... ألا يكفيك أنـــك تحايلت للحصـــول على رد مـــن أصدقائك متظاهرة بأنـــك تكتبين نيابة عني وباســـمي... وأتيـــت هنا بأمل أن تلتقطي كارلوس كما تلتقط البغيُّ زبونها على الرصيف... كل مـــا في الأمر أنك خُدِعت.. وهو أيضا على الأرجح، بل هو أولا.. لقد تغيرت يـــا رينيه، منذ أيام بيارتيز الجميلة. ولاحظت النظرات التي تبادلها أصدقاؤك أول أمســـية... وتســـتطيعين أن تبحثـــي عن ذكر لـــه إرادة قوية ليخلصك من ماضيك الثقيل كامرأة شريفة. إن ذلك الماضي يلتصق بجلدك، ويحرقك.. فلم تعودي تتحملينه...

(تخرج رينيه. يترنح بسكال، ويتقدم بضع خطوات في اتجاه الباب الذي خرجت منه، ثم ينهار في مقعد كبير)

إستير : (تتحني عليه) بسكال!

بسكال : (بصـــوت خافت) إني حقير.. الوضاعـــة معدية، التقطتها كالحمـــى.. أو ربما... ربما كانت كامنة فـــيّ.. أجل، لا بد أنها كانت بكل تأكيد، كامنة فيّ دائما.

إستير : (في عذوبة) كلا.

بسكال : لا بد أنها ذبلت من اتصالها بي.. ذبلت بكل أشكال الذبول... هذا شيء لا يُطاق...

إستير : (في العذوبة نفسها) لماذا تَشُقُّ على نفسك.. حين أحاول أن أبَرِّئَك؟

بسكال : ليس ذلك في وسعك، يا إستير.. قسيس؟ هذه العبارة البسيطة «مغفورة لكم خطاياكم...» يا لها من معجزة!

إستير : أما أنا، فلا أراها معجزة، بل شيئا يخلو من المعنى... رجل، وليكن مثل الأب ريكاردو، أيملك هذا الحق؟ هذا شيء يندّ عن التفكير.

بسكال : هذه القدرة لا تنتمي إليه هو، فما هو إلا أتعس الأدوات... سأقول لك شيئا فريدا .... هذه الكهنوتية السفيهة، الوثنية، لأنها إهانة للمسيح، تقرّبني منه مثلما يفعل الاضطهاد.. والحقيقة أن هذا اضطهاد آخر.

إستير : (متأملة) لا أفهم..

بسكال : إنها في الواقع حركة للروح شديدة الغموض.. أو أنها بالأحرى كأنها تمهل غريب وراء أقوال هذا الرجل الديني المنافقة، جعلني أعتقد أنني أسمع نداء خفيا إلى ما لا نهاية.. إجابة عن سؤالي...

إستير : سمعت؟

بسكال : لا بواسطة الحواس... هذا شيء لا سبيل إلى التعبير عنه. ربما لم يكن سوى تفكير غير منطوق نطقا متميزا.

إستير : وماذا طلب منك؟

بسكال : ألا أخون.

إستير : ومتى حاولت أن تخون؟

بسكال : (من دون أن يجيب) والأغرب من ذلك، أنه في ذلك الصباح

نفسه الذي اعتقدت فيه أنني أستمع إلى هذا النداء، صادفت مقابلة غير متوقعة، مع راهب شاب حركت هيئته الجديرة بالإعجاب أعمق أعماق نفسي. ومع أنه ليس من عادتي مخاطبة الغرباء، فإنني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أقول له بضع كلمات... ولن تتخيلى صفاء الابتسامة التي أضاءت هذا الوجه النحيل... كانت ابتسامة المسيح.

إستير : ماذا تعرف عن ابتسامة المسيح يا بسكال؟ ثم إذا كان هذا اللطف الإلهي غير المفهوم قد مُنح لك، فكيف تفسر العنف الذي أبديته منذ لحظة مع رينيه؟ أنا لم أسمع الكلمات، ولكنني أستطيع أن أخمن تقريبا..

بسكال : إني أعيدها عليك يا إستير، رينيه هي شقائي. إنها الكائن الذي لم يكف عن جرِّي إلى أسفل، عارضا علي صورة لنفسي هي أشد الصور تثبيطا لهمتي.

إستير : ألا ينبغي علينا أن نكون متواضعين؟

بسكال : متواضعين، بلاشك، لا أذلاء. المذلة تدمِّر وتحطِّم. (صمت) ما أقسى أن أشعر بك – في هذه اللحظة التي ربما أوشك على التيقظ فيها لله – بعيدةً كل هذا البعد، غائبة كل ذلك الغياب...

إستير : إني قلقة، وأنت تعرف جيدا أن هذه الأفكار غريبة عليّ. أتريد أن تقول إنك على وشك الخضوع؟

بسكال : أمعرفتك بي سيئة إلى هذا الحد؟

إستير : ولكن ماذا إذن؟ لا تجب عليّ بعد. إذ ينبغي عليّ أيضا أن أصارحك بأن أخي التعس قد ترك طفلا صغيرا في الثالثة من عمره. وهذه المرأة التي كان يعاشرها، فهمتُ من بعض العبارات التي أفلتت منه، أنها لا تهتم بذلك الطفل...

بسكال : (بصوت مختنق) أتريدين العودة إلى الوطن؟ أتريدين أن تضعي المحيط بيننا.. إنني لن أعود إلى أوروبا.. فأنا لا



أعتقد...

إستير : طبعا، إنك لا تستطيع أن تترك رينيه والطفلين.

بسكال : ليس ذلك بسببهم.. بل إن السبب أكثر من حيثُ عدم التميز، ولكنه أيضا أكثر طغيانا.. إذا عدتُ إلى فرنسا، فماذا أفعل هناك؟ استئناف كتابة أعمدتي؟ التأليف... لم يعد لهذا كله أي معنى. الدخول في الصراع؟ الالتحاق بحزب، الانضمام إلى مالرو وأصدقائه؟ هذا مستحيل. أما فيما يتعلق برفاق أخيك، فأنا لا أستطيع أن أقبلهم إلا بشرط ألا أراهم وألا أسمعهم. لقد نذرت نفسي لعدم الفاعلية، وأنا أعرف ذلك الآن. يجب أن أعترف بذلك في تواضع مطلق. ولكن، ربما كان المرء يستطيع ابتداء من هنا أن يصاعد «نحوه»، وأن يكون قريبا «منه»... (إلى مارك – أندريه الذي دخل) تعال يا بنيّ، عندي كلمة أخرى أريد أن أقولها، كلمة مُقَدَّرة لك.

مارك – أندريه : (منزعجا) ما هذه؟

بسكال : لا تتخذ هذه الهيئة المذعورة. لا شيء هنا ينبغي أن يزعجك، بل على العكس أعتقد... أتتذكر أنك حدثتني منذ أشهر عن رجل، والد أحد أصدقائك، وكان يقول: لست أدري ما يمكن أن يصنعه الحدث بي، ربما جعلني رخوا أشل. ولكني أحسب أن الرب لن يتخلى عني، وأنه سيجنبني السقوط الأعظم...

مارك – أندريه : ماذا إذن؟

بسكال : وسألتني إن كنت أستطيع أن آخذ هذه الأقوال لحسابي، فأطرقت برأسي.. بيد أن شيئا ما قد تغير. فالخطاب الذي سأكتبه بعد لحظة إلى مدير جامعة سان فيليب سيخلق موقفا محددا تماما التحديد. وهذا الامتناع عن الإذعان لمطالب يستنكرها ضميري، أملاها عليّ حقا الرب الحقيقي.. ومن هذا اليوم أعترف به، وألتزم بالاتجاه نحوه، ويبدو لي في تسامحه أو في كرمه.. إذ لا يمكن أن يكون ثمة رب بلا شرف.



مارك – أندريه : ماذا أصابك، يا عماه؟

بسكال : لا شيء، دوار... لست اليوم على ما يرام. إني أقبل إذن عدم الاستقرار المطلق، أقبله هنا كما قد كان ينبغي علي أن أقبله هناك... المكان لا قيمة له...

كارلوس : (داخلا) رجل الإذاعة في الحجرة المجاورة مع الميكروفون. أتشعر بأنك في حالة طيبة بحيث يمكن أن تقدِّم البرنامج؟

بسكال : أجل، أجل، يجب أن أفعل ذلك، هاأنذا قادما..

(يخرج من باب المؤخرة الذي ظل مواربا. نسمع في غير تميز ضجة الاستعدادات)

مارك – أندريه : أتبكين، يا أماه؟ وأنا على هذه الدرجة من السعادة.

إستير : كل هذا لا سبيل إلى التعبير عنه.

بسكال : (بصوت قوي) يا أصدقائي في فرنسا.. طلبوا مني أن أتحدث إليكم مرة كل خمسة عشر يوما، لكي أقول لكم: كيف أننا نحن المهاجرين، نحن الهاربين، نرى فرنسا...

مارك – أندريه : لقد قال «الهاربين»!

بسكال : في مأساة لكورني عفّى عليها النسيان بضعةُ أبيات شهيرة، وجديرة أيضا بالإعجاب، يعلن سرتوريوس – وهو جنرال متمرد في إسبانيا – أنه هو الذي يجسد روما الحقيقية فيقول:

«لم أعد أسمّي روما أرضا تحوطها الأسوار، تملؤها العادات بالمآتم، فهذه الأسوار التي كان مصيرها أبدع ما يكون في الماضي.. لم تعد سوى السجن، أو بالأحرى القبر: ولكن لكي تُبْعث من جديد في قوتها الأولى انفصلت تمام الانفصال عن الرومان المزيفين، ولما كنت أملك حولي الآن كل دعائمها الحقيقية فإن روما لم تعد في روما، لكنها تكون كلها حيث أكون».

يا أصدقائي، هذه هذه الفكرة الباطلة، وهذا ما أريد أن

أستصرخكم إياه اليوم. أخطأنا حين رحلنا.. وكان ينبغي أن نبقى، وأن نناضل في أماكننا. والوهم القائل بأننا نستطيع أن نحمــل الوطن معنا لا يمكن أن يولد إلا من الغرور ومن أشد أنواع الاعتداد بالنفس حمقا. وأنتم يا من قد تترددون حيال خطر الغد، أســتحلفكم بالله أن تمكثوا، وإذا كنتم لا تشعرون بالقوة.. إذا كنتم لا تملكون القوة...

(يترنّح، يتهاوى على الأرض. تندفع إستير نحوه، وفي هذه اللحظة يظهر راهب شاب عليه سيماء الزهد، وحين يهمون باعتراض طريقه، يخاطبهم في رفق)

الراهب : سيدتي، دعيني أذهبْ إليه. أنا أعلم أنه ينتظرني.

(ستار)

* * *

تعليق على مسرحية «روما لم تعد في روما»

بقلم المؤلف

(هــذه الصفحات مأخوذة من محاضرة ألقيت على مســرح هيبرتو في ١٨ مايو ١٩٥١. وقــد ظهرت في مجلة «رجال وعوالم» Hommes et Mondes تحت عنوان «المشكلات الحقيقية في مسرحية روما لم تعد في روما»):

أريد أن أفحص في هذه الصفحات القلائل الاعتراضات الرئيســية إلتي وُجِّهت إلى مسرحيتي الأخيرة: «روما لم تعد في روما».

وينبغي أن أقول إنني كنت مندهشــا حين اكتشــفت أن بعض النقاد يهاجمون ما حلا لهم أن يسموه - على نحو جزافي تماما - بمصادرة المسرحية، ومعنى هذا في أذهانهم أن مســألة «الرحيل» لا توضع اليوم فــي بلادنا. ويكفي أن تحمل ردود فعل الجمهــور لهذا التوكيــد الغريب أجلى أنواع التكذيب. ومــا كان من الممكن أن تكون المناقشــات على مثل هذا الاحتداد لو لم توضع المسألة أصلا، وينسحب القول هنا على أناس ينتمون إلى أوساط اجتماعية أشد ما تكون تباينا. وفضلا عن ذلك، كيف يمكن ألا يوضع هذا السؤال؟ إني أسلِّم جدلا مع «تييري مونييه» بأن الموقف العالمي «في الآونة الحاضرة» لا يبرر تبريرا مطلقا بالنســبة إلى الفرنســيين ذعرا كالذعر الذي رزحت تحته زوجة الشــخصية الرئيســية في الرواية، ومع ذلك، يكفي أن نقرأ في أي صحيفة يومية التفاصيل الدقيقة التي تُقَدَّم لنا عن علاقة القوات العســكرية القائمــة لكي نعترف بأن في هذه العلاقة مــا يبرر، عند كل من يعرف القراءة، حالة من القلق يمكن أن تؤدي مباشرة إلى ذلك الذعر. وماذا نقول عن الشواهد التي تصل إلينا يوما بعد يوم عن الموقف الدولي؟ وحتى مع التسليم بأنه ينبغي الحكم اليوم على هذه المخاوف بأنها متطرفة، فمن الواضح أنه من الممكن أن يقع في بضعة أشهر أو حتى في بضعة أسابيع حدث في الشرق الأوسط أو الأدنى يعمل على تضييق الكلَّابة التي نجازف بالانسحاق فيها. مثل هذه الأحداث أمور قابلة للتنبؤ بها بحيث يتوقعها القلق: ولنتذكر أن القلق في جوهره توقع محموم.

وثمــة اعتــراض آخر وُجِّه إليّ، ولكنه يبدو لي أحق كثيــرا بأن يؤخذ على محمل الجد، ذلك أن أساســه لا يقوم – كما يقوم الاعتــراض الأول – على العمى الإرادي: قيل لي: «ألا تخاطر مسرحيتك بإضعاف معنويات شطر من الجمهور، وتقوية الشعور الذي يمكن أن يكون لدى الخصم بقدراته وتفوقه؟».

فلندع جانبا الشطر الثاني من الحجة: فأنا لا أعتقد أن الشيوعيين في حاجة إليَّ أو إلى أي كاتب آخر من رأيي، للوعي بقدراتهم النفسية التي يملكونها. بيد أن الشطر الأول من الحجة لا يخلو من قوة: فإن عرض مسرحية معناه إنجاز فعل، والاضطلاع بمســؤوليات. وعلى هذا المســتوى ألا أُعرِّض نفسي للنقد؟ أعترف ببساطة شديدة بــأن الاعتراض لا يقبــل التفنيد بصورة مطلقة. كل ما في وســعي أن أفعله، هو أن أوضــح المنظور الذي هــو منظوري هنا. وأعترف بأننــي أرى روح الهروب الظاهرة في كل مســرحنا المعاصر تقريبا – باستثناء سارتر، وربما كامي – خليقة بالاحتقار تماما. وســأترك «كامي» جانبا في هذه الصفحات، لأنه لا يبدو لي كاتبا مســرحيا أصيلا، ولا أرى أنه قد تجنب في أي مكان من مسرحه التعثر في صخرة المسرحية ذات الموضوع Pièce â t èse، وأنا لا أجد عنده ذلك الاحترام المطلق لشــخصياته ولحرياتهم التي ينبغي أن تطبع بخاتمها العمل الدرامي. وهذه الحرية محترمة – على العكس من ذلك – في أفضل المسرحيات التي قدمها لنا سارتر حتى الآن، وأعني بها مسرحية «الأيدي القذرة». فالمشكلة مطروحة فيها بإحكام لا منفذ فيه. وكنت أعتقد أنه من المناسب كتابة مسرحية يمكن أن تخاطب كلًّا منا على نحو أكثر مباشرة حقا وحيــن أقــول «كلًّا منا» فأنا أقصد أولئك الذين على وعــي يصل إلى الحد الأقصى مــن الوضوح بالموقف الذي يتخبط فيه إنســان اليوم. بيد أن هذا لم يكن ممكنا إلا بشــرط تجاوز الاعتراض المذكور. وقد بدا لي – فضلا عن ذلك – أن من الخطورة بمكان التســليم بأن ذلك النوع من العمى الإرادي أو شــبه الإرادي، الذي يعيش فيه ذلك العدد الكبير من الناس في الغرب، ينبغي تجنبه لأسباب تتعلق بمجرد الحيطة. فالحكــم على هــذا النحو، معناه التقدم خطوة أخرى علــى الطريق التي لا يمكن أن تؤدي إلا إلى العبودية. أجل، إن العمى لا يمكن أن يقود إلا إلى العبودية، وإلى العبودية وحدها – أردنا ذلك أو لم نرد.

ولكنــي أعترف – على كل حال – بأن المناقشــة تظل مفتوحة عند هذه النقطة. كل ما في الأمر أنني ســوف أثور – حتى آخر لحظة في حياتي – ضد أولئك الذين يُنَحُّــون أي موضوع – أيا كان – بحركة متحفظة أو خائفة بحجة أنه خطر. مثل هذا الموقــف لا يمكن قبوله إلا في مجال أدب الأطفال أو توابعه: فهناك بكل تأكيد أدب للبالغين – ســواء عند الشيوعيين أو عند بعض خصومهم بالطبع – لا يعد إلا تذييلا لأدب الأطفال.

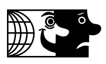
وهناك سؤال بالغ الدقة وُجِّه إلي بصدد الإذاعة التي يوجهها «بسكال لومبير» في ختام المسرحية من البرازيل إلى مواطنيه الذين قد يترددون في اقتفاء أثره، ولكنهم مدفوعون مع ذلك إلى مغادرة فرنسا. فقد صاح فيهم قائلا: «لا ترحلوا، ناضلوا في موقعكــم، وإذا لم تكن لديكم القوة...». وســأعود إلى هذا الشــطر من الجملة وإلى الطريقة التي كان من الممكن أن تُكْمِلَ بها لو لم يصب بسكال في تلك اللحظة بنوبة قلبيــة. وقــد أبدى لي روائي مــن أصدقائي هذه الملاحظة: «في هذه الملابســات المســرحية الأخاذة التي قيلت فيها تلك الأقوال ينسدل الستار، ويغوص المتفرج في ظلام تام، وأمامه، محطة إذاعة، بحيث يمكن أن يفكر حقا أنه هو الفرنسي المنتمي إلى فرنسا – المقصود بتلك الاقوال – وبالقوة نفسها يتدعم وزن هذا النداء أو هذا التحذير تدعيما ملحوظا. ويكاد المرء يتســاءل: ألا تتخذ هذه الرســالة قيمة تنبئية في فكر المؤلف، وكأنه قول يهبط من الأعالي». وأضاف صديقي قائلا: «ولكن، أليس ذلك اتخاذ مسؤولية ثقيلة على نحو رهيب حين نوحي إلى المتفرجين بأنهم يقترفون جريرة أخلاقية حين يغادرون بلادهم؟». وهنا وجدت نفسي – أنا المؤلف – موضوعا في موقع ينبغي أن أقول فيه عما إذا كنتُ آخذ هذه الرسالة على عاتقي.

وأنــا أجيب مــن دون مراوغة، بالنفي. وأقــول هنا، بأكبر وضــوح ممكن: لو أن شخصا لا أعرفه جاء إليَّ عقب عرض «روما لم تعد في روما» – وهذا ما يحدث لي أحيانا – وسألني بوصفي موجِّها للضمير هل أثني عزمه حقا عن الرحيل، أو عما هو أخطر من ذلك – عن ترحيل أطفاله – هنا امتنع امتناعا مطلقا عن التعبير عن نفسي على النحو القاطع الذي عبَّر به بســكال عن نفسه، إذ لا أعترف لنفسي بأي حق في هذا. وإني لأذكر – فضلا عن ذلك – أن وجهات نظري الدرامية لا تحتمل إطلاقا أن يتخذ المؤلف في أي لحظة واحدا من شــخصيات مسرحياته بوصفه متحدثا باسمه



Porte – Parcle. والحقيقة أن تلك الرســالة الإذاعية تتماشى مع تفكير بسكال كما رأيناه آخذا في التطور منذ بداية المســرحية؛ فمن «الضروري» في هذه اللحظة من تطوره أن يصيح بمناسـبة أبيات ســرتوريوس الشــهيرة قائلا: «هذا التفكير باطل»، وهذا كله بلهجة من النُصْح المؤثر أشد التأثير. ذلك أنه صادر عن شخص قد يكون مشرفا على الموت، وإن يكن على كل حال قد انتهى مستقبله بالنسبة إلى هذا العالم. ومن المؤكد أنه على هذا النحو باســم مطلق معين، أو باســم شعور مطلق، ولكن من دون أن أنســى لحظة واحدة – بوصفي مؤلفا – أن الواقع ينطوي على وجه آخر، وأن «مارك – أندريه» ابن أخت زوجة بسكال – ذلك الشاب الذي لم يعد في قرارة نفسه يشــارك في التراث الفرنسي أي مشاركة – تنفســح أمامه كل الفرص لكي يجد في البرازيل ذلك المناخ في راحة البال الذي يمكن أن يتفتَّح فيه وأن يجد نفسه. ثم، هل نستطيع فيما يتعلق برينيه البغيضة زوجة بسكال، وبالطفلين اللذين أرادت حمايتهما هل نســتطيع – إذا تحدثنا بصيغة مطلقة – أن نأخذ عليهم أي خطأ؟ وفي رأيي أنه ليس في وسع الإنسان أن يعطي إجابة مطلقة عن هذا السؤال، ذلك أن تلك الاجابة تتوقف – في نهاية التحليل – على الحدث، والحدث هاهنا مجهول.

ومع ذلك، أضيف ملاحظة أعترف بأنها يمكن أن تبدو مزعجة إلى حد ما، ولكن ممــا يجانب الأمانة ألا أصوغها هنا. إن عملاً كمســرحية «رومــا لم تعد في روما» هــو في جوهره عمل ســيمْفوني. وقد أشــرت في معرض الحديــث عنه إلى الوعي البوليفوني بعالم يشعر بخطر الموت. بيد أنه من الجلي أن هذه البوليفونية لا يمكن إلا أن تكون متتابعة. ذلك أن ردود الفعل المتعاكسة عند كل من «بسكال» و «مارك – أندريه» لا يمكن أن تعرض في وقت واحد معا، ومن ثم لا يمكن أن تنتهي المسرحية – إذا أردنــا لها نهاية هارمونية – إلا بذلك النوع من اليقين المأســاوي الذي توصل إليه بســكال. وقد كان مــن الممكن أن نقع في ذلك الخطــأ الضخم الفاضح – من الوجهة الهارمونية – لو انتهت بذلك المشــهد الغرامي الصغير بين «مارك – أندريه» والفتاة البرازيلية الصغيرة التي أيقظته على حياة الحواس. والنغمة الأساسية – سواء قبلنا رسالة بسكال بوصفها حقيقة نهائية أو لم نقبلها – لا يمكن أن تعطيها إلا هذه الرسالة نفسها.



أيؤخــذ عليَّ في هذه الأحوال أنني أخدع المتفرج، وأنني أتركه يعتقد أن المؤلف هو الذي يعبر عن نفسه بلسان بسكال؟ وهنا يتخذ ذلك الشطر القصير من الجملة: «ومن لا يملك القوة...» كل دلالته. فلو كان بسكال – في هذه اللحظة الحاسمة – في حالة تسمح له بإتمام هذه الجملة، فماذا كان سيقول؟ شيئا كهذا: «فإذا لم تكن لديكم القوة على البقاء والنضال فــي أماكنكم فاعرفوا على الأقل كيف تعترفون بضعفكم، وكيف تبلغون الوعي به: واضحا مريرا، وتَخَلَّوْا إلى الأبد عن الادعاء بأنكم تجسِّدون الوطن خيرا من أولئك الذين آثروا البقاء في فرنسا، وبأنكم – على نحو ما – تقفون ضدهم». ونحن نعلم بالتأكيد أنه ما من فرنسي واحد خلال الحرب العالمية الأخيرة – سواء أكان في لندن أو الجزائر أو نيويورك – إلا راوده هذا الادعاء الفظيع.

ولكــن يبدو لي أنه عند هــذه النقطة تتمهد أرض للاتفاق بين الأشــخاص ذوي النية الحســنة: فأنا لم أتردد قط في الاعتراف بأنه فيما يتعلق بي أعتقد أن التفوق الأخلاقــي – مــن حيث المبدأ – في جانب أولئك الذين ينــوون الصراع في أماكنهم حتــى آخــر لحظة، وإن كان مــن الممكن أن نتســاءل بعد كل هذا عمــا إذا لم تكن مصلحة فرنســا العميقة لا تقوم على التضحية بالصفوة عن بكرة أبيهم، بل تقتضي هــذه المصلحة أن يبقى بعض ممثليها في الخــارج. وعلى العكس من ذلك، أرى أنه من المســتحيل اســتحالة مطلقة على كائن من كان أن يقرر فــي حالة معينة ما إذا كان هــذا الفــرد أو ذاك يملك من القوة ما يكفي للدخول في هذا الصراع، ففي هذه المســألة لا يستطيع أحد أن يقطع برأي إلا فيما يتعلق بنفسه، ولا بد أن نضيف إلى ذلــك أن من لا يملك القوة لتحمل هذه المحنة، عليه أن يملك الشــجاعة – كما قلت آنفا – للاعتراف بهذا الضعف، واستخلاص نتائجه، وقبول المذلة التي ترتبط بوضع اللاجئين حتى منتهاها. كل هذا يتخذ طابعا افتراضيا، وشــرطيا مطلقا وهنا – كما هو الشأن في كثير من الحالات – تكون الأحكام المطلقة إساءة للعقل.

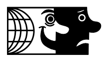
وعلى هذا الأســاس نفسه، توضع مشكلة تحتل مكانا رئيسيا في مسرحيتي، وإن كنت قد قَدَّرتُ ألا ينبغي عليَّ وضعها إلا على ســبيل التلميح بصورة ما، والتي يمكن أن تضفي على العمل طابعا أكاديميا بغيضا.

وأنا أقصد أولا الســؤال الذي وضعه – على سبيل الاستهزاء – اللاجئ الألماني الذي يوشــك على الرحيل إلى مراكش في مســتهل المســرحية حين قال: «أين هي



فرنسا؟»، هذا السؤال هو الذي أخذته زوجة بسكال فيما بعد لتدعيم موقفها، أما «مارك – أندريه» الفتى العدمي الحائر، فقد حله مرة واحدة وإلى الأبد بالنفي. وهو يوضع أخيرا أمام ضمير الشخصية الرئيسية في المسرحية (بسكال) الذي يتظاهر – عند رحيله – بأنه لا يري ما يدعو حتى إلى إثارته، ولكن حين يفرض السؤال نفسه عليه، لا يجد مفرا من مواجهة الرحيل، ذلك لأننا إن لم نعد نعرف أين فرنسا، فمن الممكن تصور أنها خارج نفسها، وأن من الممكن نقلها إلى مكان آخر بواسطة الأوفياء لروحها، ولكن إذا حكمنا على هذا النحو، أفلا نخطئ في حق التجسيد، ألا نستبدل بالواقع النابض الحي لفرنسا فكرة بسيطة مجردة؟

ومن الجلي من ناحية أخرى أن مسألة فرنسا ومسألة الشرف الفرنسي لا تنفصلان. وإذا صرَّحت «رينيه لوميير» ساخرة بأنه لم يعد ثمة وجود للشرف، لأن كلمة وطن – من ناحية أخرى – لم يعد لها في نظرها أي معنى. وهكذا الحال بالنسبة إلى مارك – أندريه. فحين يحاول خاله الإهابة بشعور الشرف لديه لكي يتراجع عن قراره بالرحيل يجيبه قائلا: «حاول الناس – باسم الشرف أن يبرروا خلال أربعة أعوام – أشد التصرفات تعارضا، فلا مناص من الاعتقاد أنها ليست فكرة شديدة الوضوح!». وبعبارة أخرى أصبح من المستحيل معرفة الجانب الذي يقف فيه الشرف، ومن ثم الجانب الذي توجد فيه فرنسا. وعلى هذه البيِّنة يبدو أن بسكال لم يكن يملك جوابا. وكان قد امتنع في أثناء الحرب عن الاشتراك في حركة المقاومة السرية، من دون أن يرتبط بالمحتل في الوقت نفسه أدنى ارتباط. وكانت زوجته التي لم تدع قط أقل مناسبة للحط من شأنه – لأسباب غامضة يدخل ضمنها بلاشك نوع من الحقد الجنسي – وأخوها الشيوعي يزعمان أنه مدفوع إلى هذا الحياد بجبن خليق بالاحتقار. بيد أن كل الشواهد تدل على بطلان هذا الزعم. وربما كان بسكال يتخذ في قرارة نفسه الموقف ذاته الذي يتخذه أحد أبطال مسرحية من مسرحياتي الحديثة وأعني به أنطوان سورج Ontoine Sorgues في مسرحية «المبعوث» L'Emissaire، فقد أحس بما في الجانبين من تلوث، فلم يستطع بوصفه مفكراً أن يلتزم إلى النهاية. وهذا لا يعني إطلاقا أنه متذبذب كما زعم البعض، بل يعني أنه – على العكس – رجل يتمتع بشجاعة ذهنية وأخلاقية عظيمة، ولكنه يجهل إلى أي حد يمكن أن تمضي شجاعته الجسيمة في هذا الظرف أو ذاك. وتثبت



التجربة بطريقة لا مطعن فيها أن هذه الأشكال المتباينة من الشجاعة لا ينطوي بعضها على البعض الآخر، وهنا أيضا أذكر ما قالته شخصية من شخصياتي هي شخصية فرنر شني Werner Schnee في «الرمح» Le Dard من أن المرء يمكن أن يكون شجاعا أمام الموت ولا يكون كذلك أمام الرأي. ولا ننسى أن بسكال لم يتردد في الاحتجاج على تعسفات التطهير الدنيئة من دون أن يهتم أي اهتمام بالعداوات التي يمكن أن يجرها عليه هذا الموقف.

لا جبن إذن من جانبه حين يضع بدوره هذا السؤال: أين هي فرنسا؟ وأضيف أن المسرحية لا تستطيع أن تحمل – في نهاية التحليل – أي حل لهذا السؤال. وإذا بدا أنها تحله، فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بضرب من الانفعال وانعدام الأمانة. كل ما نستطيع أن نقوله هو أنها تؤدي بالمتفرج إلى إدراك لماذا يمكن أن يبدو هذا السؤال بلا حل في الظروف الحاضرة. فروبير فيلار الشيوعي الذي يعتقد، في سذاجة، أن الاحتلال السوفييتي يمكن تجنبه لأنه قد تلقى هو وأصدقاؤه وعودا رسمية من موسكو، والذي يؤمن بإنشاء قريب لشيوعية فرنسية خالصة، يلقى مصرعه على أيدي أنصار ستالين الذين يرون فيه خصما خطيرا. وحين يتناهى هذا النبأ إلى بسكال في البرازيل يصيح قائلا: «هكذا بقي روبير فرنسيا!». فحتى إذا كان المثل الأعلى الذي ضحى بنفسه من أجله يفزعنا، وحتى إذا كنا ندينه لأن جميع الوسائل تبدو حسنة مادامت تمهد لظهور النظام الجديد، فإنه لا يبدو من الممكن استبعاده من المجتمع الفرنسي. وعلى العكس من ذلك، لم يعد «مارك – أندريه» الصغير – وإن يكن أكثر جاذبية وأشد تأثيرا – منتميا بعد إلى ذلك المجتمع. فهو يبدو على أهبة الاستعداد فعلا ليصبح رجلا من رجال العالم الجديد، هذا مع التسليم بأن له من القوة الباطنة ما يكفي ليضرب بجذوره حيثما كان، وهذا في حد ذاته أبعد ما يكون عن اليقين. بيد أن هذا التضاد لا بد من أن يرغم المتفرج على التغلب على ما قد ينشأ في نفسه من انسياق لمشاعره، فيؤيد مارك – أندريه، ويُعرض عن روبير، وهنا أضيف أن المتفرج حاضر في قرارة نفسي: فأنا أحب «مارك – أندريه» تلقائيا وعاطفيا، ولا أطيق روبير. غير أن الرسالة الحقيقية للكاتب الدرامي هي أن يتغلب في نفسه على مشاعر الاستحسان والاستهجان الخاصة به.

ومع ذلك، فإني أشير عابرا إلى أن المشكلة – فيما يختص بروبير – أشد تعقيدا مما قد يبدو للوهلة الأولى. فقد أُخذ علي أنني جعلته يقول: «عندما ينطق أحد بكلمة «إنسان» أمامي، فإني أشهر مسدسي». وأعترف – عن طيب خاطر – بأنه ما كان ينبغي أن يقول مثل هذه الجملة. ولكنني أردت أن أبيّن أنه حينما يصل الوعي الطبقي إلى ذروته، يختفي حتما معنى «الكلي»: فهاهنا شطر من الجنس الإنساني قد حكم بالموت – فورا أو على المدى الطويل – على شطر آخر، مدفوعا إلى ذلك بدوافع أيديولوجية. فمن المباح إذن – برغم كل شيء – أن نتساءل عما إذا كان من الممكن أن نظل فرنسيين حين نعتنق هذا الموقف، وعما إذا كان لا ينطوي على استئصال باطني بشع تفقد معه فكرة فرنسا خير ما فيها من مضمون؛ ذلك أنه لا سبيل إلى إدراك هذا المضمون من دون رجوع معين إلى التاريخ. أليس ذلك الذي يأخذ على عاتقه فرنسا الثورية – والثورية وحدها – مقضيا عليه بهذه الفعلة نفسها أن يلقي في الظلمات الخارجية بفرنسا الأخرى، فرنسا الملوك والتراث الديني؟ ليس هذا بالتأكيد سوى سؤال، ولكنه يوضع حتما على مشارف المسرحية، ولهذا نجد أنفسنا مرغمين على التساؤل، وإن يكن ذلك على مستوى أعمق: أين هي فرنسا؟ وإلى ذلك التمزق الذي حدث طوال القرن التاسع عشر، ألا يعد في هذه اللحظة من التاريخ، التي وصلنا إليها، صدعا لا رأب له يمكن أن يعقبه؟ ورجل التأمل الذي هو على شاكلة بسكال لوميير ولا يميل ميلا تلقائيا إلى فرنسا الثورية، ولكنه لا يعترف لنفسه بحق استبعادها ببساطة – مثل هذا الرجل يعرف أنه لا يمكن أن يستبدل بفرنسا الثورية فرنسا مضادة للثورة Antinévolutionnaire: ذلك أنها تفترض التنكر لبعض المقدمات الجوهرية للعبقرية الفرنسية: ومن هنا، ألا يجد نفسه إزاء موقف لا مخرج منه؟ وأقول لا مَخْرج منه على المستوى الزماني! إذ يتبقى له – في الحقيقة – ملجأ، وملجأ واحد فقط هو تجاوز التاريخ، وليس ذلك ممكنا إلا بالتحول إلى الإيمان. وهذا الملاذ الأسمى في عيني المؤمن يَعْرِض بوصفه هروبا، ومن العبث تماما أن نحاول البرهنة لغير المؤمن على أنه مخطئ. والحقيقة هي أن هذا «الملاذ» يتمثل على أساس محنة معيشة إلى أعمق أغوارها، أعني إلى حد اليأس. وهنا يبدو منطق أعلى يتسم مع منطق الإبداع – وأنا أفكر على الأخص في الإبداع الفني – لتلك السمة المشتركة من أنه ليس منطقا لكل الناس، منطقا لأي كائن كان. ولكن يبدو اليوم في بينة لا سبيل إلى دحضها أن «الكلي» L'univerel لا يمكن أن نفكر فيه خلالها في

حدود الامتداد، وأنه ينحط، ويفسد – بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة – ابتداء من اللحظة التي نفكر فيها بحدود إحصائية متماشية مع مطالب نزعة عقلانية ساقطة فقدت حتى الشعور بـ «النور» غير المخلوق الذي يتحول بدونه العقل إلى نوع من السلوك النمطي. غير أن هذا المنطق الأعلى هو ما يسري في المشاهد الأخيرة من مسرحيتي بحيث يؤدي في نهاية الأمر إلى التحول النهائي لدى البطل إلى الإيمان.

ألا ينبغي أن يُفسَّر الرحيل حينذاك بوصفه رفضا لموقف لا منفذ منه؟

بيد أن رفض شيء ما معناه – أردنا ذلك أو لم نرد – قبول شيء آخر. ويبدو أن أولئك الذين حيرهم الفصل الرابع من المسرحية ينكرون عليّ هذا الذي هو سمة جوهرية للموقف الحاضر. فنحن نعيش – واأسفاه! – في عالم يزداد انقسامه يوما بعد يوم إلى شطرين، عالم يولِّد فيه التعصب تعصبا مضادا يقوم إزاءه وجها لوجه. أما المواقف الوسط – أعني المواقف الليبرالية بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة لا بالمعنى الكاريكاتوري لها – فتميل إلى الاختفاء أكثر فأكثر، وكأن أولئك الذين يريدون الاحتفاظ بها بأي ثمن مقضيٌّ عليهم بأن يقعوا بين شقي الرحى. ولم يُقبل بسكال لوميير للتدريس بجامعة سان فيليب في البرازيل إلا بشرط وهو: أن يشارك مشاركة إيجابية في الصراع ضد الشيوعية التي رفضها. ولكن ينبغي أن نلتفت إلى هذا: فمن وجهة نظر الإكليروسية المتعصبة لا تَنْصبُّ الإدانة على الشيوعية وحدها، بل على مجموعة بأكملها من الأفكار التي يقال عنها إنها هدامة، والتي تنضوي بصورة متعسفة – مباشرة أو غير مباشرة – تحت الشيوعية. ونحن نعرف حق المعرفة ما تتضمنه فكرة «الثورة المضادة» – المشوشة أشنع التشوُّش – من إيجاز متعسف، أو تعميم مخل. وحين يعلن «الأب ريكاردو» أنه لا مكان للحياد في الصراع الدائر بلا رحمة بين «الروح القدس» والقوى الشيطانية التي انطلقت من عقالها في العالم، كيف لا نرى أنه يقصد تصفية ما يسميه بـ «الروح القدس» لحساب مذهب يفهم في أضيق معانيه وأشدها تحديدا، مذهب لا يمت بأي صلة في نهاية الأمر إلى الكنيسة مفهومةً بمعناها الحقيقي الوحيد، أعني معناها «الشامل» universel، بل يتصل بأولئك الذين يزعمون أنهم يمثلونها من دون وجه حق.. وعندما يقول «بسكال» إنه وقع في كمين، فتلك هي الحقيقة بعينها. ويتظاهر «الأب» بأنه يجبره على الاعتراف بأنه في قبوله كرسيَّ سان فيليب قد حدد اختياره، وبدون هذا الاختيار،

لا مندوحة عن التسليم بأن رحيله لم يكن سوى هروب يمليه حرصه الوحيد على أن يحافظ على أمنه الشخصي. هذا هو نوع الابتزاز الأخلاقي الذي يقوم به «الأب ريكاردو». وهو ابتزاز مادي أيضا، لأنه إذا لم يذعن بسكال، فستغلَق أبواب الجامعة في وجهه، وفي هذه الحالة كيف يمكنه أن يعيش؟

وأنا أسلِّم طوعا بأن ثمة – بكل تأكيد – إمكانات هنا أو هناك للخروج من هذا المأزق البشع، ولكن كيف لا أرى أن هذه الإمكانات سريعة الزوال، وأن هذه الحالة الحدية cas – limite تكاد تصبح القاعدة بضرب من التصلب المطرد من المواقف التي يتخذها هذا الجانب وذاك؟

ومهما يكن من أمر، فإن بسكال يرفض الإذعان، وهذا الرفض يتخذ هاهنا قيمة حاسمة. فلنحاول أن نفهم الطبيعة الحقَّة لهذا الرفض. فليس من شك في أنه لا يرفض التسليم بأن التأثير الذي يمارسه شخص مثل «جيد» كان مفسدا حقا من بعض جوانبه. ولكن، لأن بسكال يتمتع بعقل أمين في جوهره، فإنه يرى أن الواجب الأول على مؤرخ الأدب قبل التذوق – وهو ما يعني هنا الإدانة – هو الفهم بمجهود من التعاطف يمتزج بسخاء النفس، فإذا كان ثمة افتقار إلى هذا التعاطف أو هذا السخاء، فلم يعد هناك مكان للفكر الحر. وهنا ينحط النقد ويتحول إلى ضرب من ممارسة نوع من الأتوماتية (الحركة الآلية) automatisme، وهذه نقطة لا يستطيع أن يتخطاها من دون أن يخون رسالته.

ولكن ينبغي أن نرى هذا جيدا: على الموقف الذي يتخذه في وجه ما يعرضه عليه «الأب ريكاردو» يتوقف الحكم الذي يمكن أن يصدره هو نفسه على رحيله الخاص عن فرنسا. فالواقع أن هذا الرحيل هو الالتباس نفسه، ولن يتخذ هذا الموقف معناه ومغزاه الحقيقي إلا من خلال هذا القرار. أجل، إن بسكال لن يقْدم على اتخاذ قراره بالنسبة إلى المستقبل القريب فقط، بل بالنسبة إلى الفعل الذي تم، والذي لم تتضح أبعاده بعد في ناظريه. ومن المدهش حقا، في رأيي، أن هذا كله قد فهِم – بوجه عام – فهما سيئا. فالفعل الحر – كما كتبت في موضع آخر – هو الفعل المحرِّر liberateur، بيد أننا لو أخذنا الرحيل في حد ذاته، لما ألفينا ممثلا لهذه القيمة المحررة. بل إن هذا الرحيل – كما وصفته «إستير» باستقامتها المميزة لها – ليس إلا تلوثا، وهذه الكلمة ينبغي أن نأخذها بأدق مفاهيمها، فهو ملوث لأنه

غير متميز، ولأننا لا نعرف قيمته. والآن فقط، يستطيع بسكال – بالاختيار الذي يتخذه في وضوح تام للرؤية هذه المرة – أن يخلع على فعله معنى يوضحه. فلو أنه رحل حقا – كما فعلت «رينيه» – لمجرد الحصول على الأمن، لكان صنيعه ذاك صنيع عبد. وفي هذه الحالة، لن يعدم وسيلة للإذعان لمطالب «الأب ريكاردو»، بعد أن يعقد مع ضميره صلحا أساسه سوء الطوية mauvaise foi. والعكس صحيح، أي أنه في اللحظة التي يرفض فيها الخضوع، يثبت بذلك أنه لا يضع الأمن في المقام الأول، وأن رحيله ينطوي على إمكانية الفعل المحرر، وإن يكن ذلك في حالة كمون.

وهنا تعرض للعقل طائفة أخرى من الملاحظات أكثر من ذلك أهمية، وتستهدف هذه الملاحظات توضيح الرابطة التي لا تنفصم عراها والتي تربط، في هذه المسرحية، بين مسألة الحرية ومسألة «اللطف» أو الإيمان. وفيما عدا واحدا أو اثنين من النقاد، لم يفطن أحد منهم إلى تلك الصلة، ولا يستطيع المرء أن يرتكب خطأ أفدح من قوله: إن المشكلة الدينية تنضاف على نحو غير متوقع إلى المشكلة القومية.

واللحظة الحاسمة في المسرحية هي اللحظة التي يدفع فيها مارك – أندريه عمه (بسكال) على نحو ما إلى تحديد موقفه من الأقوال التي أعلنها والد دنيس موري Denis Moreuil (صديق مارك – أندريه) حين قال « .... إنني لا أعلم إطلاقا ما يصنعه الحدث بي، ربما جعل مني رخوا أشل. أنا لا أبالغ في الثقة بقواي، ولكني أومن بالله، وأحسب أنه لن يتخلى عني، وأنه سيجنبني السقوط التام، وأنه إما أن يستردني، أو أن يمنحني القوة لاحتمال التعذيب». فهل يملك بسكال من نفسه ما يستطيع به – بكل إخلاص – أن يصدِّق على تلك الأقوال؟

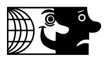
في رأيي أن الصمت الذي أعقب ذلك هو أشد اللحظات مأساوية في هذه الدراما. ولأن بسكال أمين بعمق – (وأنا لا أفوِّت فرصة من دون التذكير بذلك، ومن الغريب أن هذه الأمانة لم يعترف بها إلا القليلون، والحقيقة أنها لم تحطم في أي عصر كما حُطّمت اليوم) – فقد وجد نفسه مدفوعا إلى هذه الإجابة: «كلا... لا أستطيع ذلك بكل أمانة». فماذا يعني هذا بالضبط؟ من الواضح أن هذا يعني ما يلي: لست أملك الإيمان الذي يسمح لي باليقين من أنني سأصان في المستقبل من أفظع أنواع الإنكار، أما «دنيس موري» فقد رفض باسم هذا الإيمان المنصب الذي عُرض عليه في المكسيك. وهذا الإيمان عينه هو الذي سمح له بأن يقرر البقاء في مكانه،



من دون أن ينطوي هذا القرار من جانبه على صلف لا مبرر له. وهكذا ألفى بسكال نفسه مسوقا إلى قياس المسافة التي تفصله عن ذلك المؤمن الصادق، وأن يسأل نفسه عما إذا كان هذا القرار، المشروع تماما في حالة والد «دنيس موري»، لن يكون في حالته هو سوى محض اعتداد بالنفس. وبالطبع، هذا شيء لم يفصح عنه النص، ولكنه موجود بين السطور، وأعترف بأنه يحتاج في فهمه إلى نوع من الانتباه شبيه بالحدس الذي يتجاوز ما يحق لنا أن نطلبه من المتفرج. ولكن يبدو أن المتفرج، وإن لم يقم بصياغة هذا المعنى على نحو متميز تماما، فإنه يشعر بطريقة لا جدال فيها بأن ضروب الدفاع الباطنة التي تمتع بها بسكال أخذت تتساقط - في هذا المشهد الرئيسي - الواحدة تلو الأخرى.

وهنا أورد بين قوسين فقرة طويلة، وأشير إلى الدراسة التي ألقيتها في مؤتمر «حرية الثقافة» الذي عُقد في برلين في الصيف الماضي، وهي دراسة يتضمنها الكتاب الذي ظهر هذه الأيام في طبعة «كولمب» Colombe تحت عنوان: «البشر ضد الإنساني» Les Hommes contre L'Humain.

قلت في تلك الدراسة إننا نشهد اليوم موت «الرواقية». والموقف الرواقي يتضمن في الواقع تفرقة صاغها «إبكتيت» Épictete في أقصى ما يمكن من الوضوح: ألا وهو التفرقة بين الأشياء التي تعتمد علينا والأشياء التي لا تعتمد علينا. والرواقيون يضعون وجود الضمير الداخلي بوصفه وجودا لا سبيل إلى الشك فيه، وفي هذا الضمير يجد الفرد ملاذا لا تستطيع كل تدخلات السلطة أن تنتهكه. فلا قيام للرواقية من دون الإيمان بسيادة باطنة لا تُمَس، من دون امتلاك مطلق للذات بواسطة الذات. غير أن وسائل الإذلال التي يمكن أن نعد من بينها عقاقير البوليس (الغاسلة للمخ) تتألف من وضع الفرد في موقف يفقد فيه اتصاله بنفسه، بحيث يصبح خارج نفسه - بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة - إلى حد القدرة بإخلاص على إنكار أفعال وضع نفسه فيها كُليّة، وعلى اتهام نفسه بأفعال أخرى لم يرتكبها حقا. ومن الإسهاب، بل من العبث، تعداد الحيل النفسية التي تسمح باختلاق ما يمكن أن نسميه بالإخلاص الزائف، أو الإخلاص «المُفبرك» بيد أن الموقف الذي على كل منا أن يواجهه في هذه الظروف - وأنا أقول على كلٍ منا - هو الموقف التالي: إذا لم نشأ أن نكذب على أنفسنا، أو أن نرتكب الخطيئة في صلافة لا مبرر لها، فعلينا أن نسلم بوجود وسائل



عينية تجعلنا نفقد تلك السيطرة على أنفسنا التي كان الرواقيون يعتقدون استحالة كسرها. فلنمتنع عن القول بأنه تتبقى لنا - على الأقل - إمكانية الانتحار الرحيمة. فلم يعد هذا القول دقيقا، إذ أصبح في الإمكان أن نوضع في موقف لا نرغب فيه حتى في قتل أنفسنا، وحيث يظهر لنا الانتحار بوصفه ملاذا غير مشروع، وحيث يصل بنا الأمر إلى أن نتمنى، بضرب من غريزة معاقبة الذات ante-punitif، العقاب الذي تستحقه أخطاء ننسبها إلى أنفسنا من دون أن نكون قد اقترفناها.

وأضفت في هذه الدراسة أن من واجبنا الاعتراف - بوجه أعم كثيرا - بأن الفكر المادي يتبدى قادرا، بفضل الوسائل الفنية التي يطورها ويصل بها إلى الكمال على إنشاء عالم يتحقق أكثر فأكثر من صدق مسلماته. وأقصد بهذا القول أن الكائن الإنساني الذي كابد نمطا معينا من المعاملات يتحول شيئا فشيئا إلى أن يكون مجرد شيء، ولنقل «شيئا نفسيا» خاضعا لنظريات يضعها علم نفس مادي في جوهره، قائم على الفعل المنعكس الشرطي Le réflex conditionnel ولكن فلنحاذر من أن يكون المقصود هو أن علم النفس المادي هذا - على ما فيه من ابتذال وتهافت وعجز عن تفسير الأنشطة العليا للروح - من شأنه أن يكشف لنا عن الواقع مأخوذا في ذاته. كل ما ينبغي أن نراه حقا هو أن الإنسان يعتمد إلى حد كبير على الفكرة التي يصنعها لنفسه، وأن هذه الفكرة لا يمكن أن يُحط من شأنها، من دون أن تصبح بدورها عاملا للحط من شأن الإنسان. وفي هذا القول نوع من الحجة الواخزة ضد الفكر المادي. وهذا الفكر يُمثِّل في وقتنا الحاضر تلاحما وعرامة لم يكن هناك مثلهما في القرن التاسع عشر، حين كان الناس يرون رجالا يعتقدون أنهم مشبعون بالمبادئ المادية، ومع ذلك يظهرون في الحياة أمانة أشد ما تكون محاسبة لنفسها. غير أن أصحاب النزعة المادية في يومنا هذا يستطيعون أن يصيحوا، كما صاح «سجاناريل» موليير، قائلين: لقد غيرنا كل هذا! وإن يكن هذا التوكيد لا يحمل هنا ما يبعث على الإضحاك. وينبغي الاعتراف - على ما أعتقد - في وضوح مطلق بأن هذا الفكر المادي يفترض بلا شك وجود اختيار من الأصل، بيد أن هذا الاختيار وليد حرية تنكر نفسها، وتقرر ضد نفسها، وليد فعل تتعاقب نتائجه فيما بعد وفقا لمنطق محتوم هو منطق الموت.



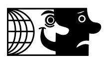
ولكـن، وهل تأخذنا هذه الأفكار بعيدا عـن «روما لم تعد في روما»؟ كلا. بل إنها تتحســس – على العكس – ما يمكن أن نسـميها «الأغوار الميتافيزيقية» للمسرحية. وهي تحمل شـرحا قد يكون ضروريا للتصريح الخطير المشحون بالمعنى الذي أدلى به والد «دنيس موري»، ذلك التصريح الذي دفع بسـكال إلى تحديد موقفه، ليس من حيث واجبه في أن يختار فقط – فنحن مقضيّ علينا بالاختيار دائما، وسارتر على حق في هذه النقطة – ولكن في أن يختار الحرية ضد عقيدة تقتل الروح باسم الروح.

ومن وجهة النظر هذه نرى، بوضوح أكبر، لماذا لا يوجد خطأ أفدح من تفســير تحول بسـكال إلى الإيمان بوصفه نوعا من الانحراف التعسـفي لاتجاه المسرحية. فهذه المســرحية المعروضة في لغة واضحة ترمي إلى إلقاء ضوء على هذه الواقعة الجوهرية تماما، وهي أنه في عالم لا أسـتطيع فيه أن أجيب عن نفسي بأمانة وعما يصنــع الحدث مني، فإن الملاذ الوحيد في هــذه الحالة يكون متعاليا transendant، ولكن ماذا تعني هذه الكلمات بالضبط؟

نحن نعلم الاسـتعمال الآخـذ في الخلط أكثر فأكثر لكلمــة «العلو» في كثير من المذاهب المعاصرة.

أمــا أنا فآخذها هنا بالمضمون الوحيــد الصحيح في نظري: وما أريد أن أقوله باختصار هو أن فرصتنا الوحيدة هي إلهية، ولا أقول بسـلطة، ولكن بالأحرى بمجال للــروح هو أيضا مجال اللطــف الإلهي، وأن نعلن قبل فوات الأوان أننا نرفض مقدما الأفعــال أو الأقوال التي يمكن أن ينتزعهــا منا تكنيك أيا كان. فنحن نؤكد في جدية تامة أننا عبر au dela هذه الأفعال وهذه الأقوال. ألا يقال إننا نمنح أنفسنا بهذا نوعا من الرضا الأفلاطوني؟

ولكـن، فلننتبــه إلى ما يعنيه هــذا التوكيد، أو فلنجتهد بالأحرى إلى اســتخراج مضمونه، علينا أن نعلن أننا لا ننتمي كلية إلى هذا العالم من الأشياء التي يسعون إلى إحالتنا إليها، والتي يملكون القدرة في الظاهر على اسـتيعابنا فيها آخر الأمر. علينا أن ندرك إذن أن هذه الحياة الدنيا التي أصبح من الممكن بالوسـائل الفنية الحديثة أن تُصنع منها صورة بغيضة بشعة لكل ما نضعه موضع الإجلال والتقدير هذه الحياة ليست، بعد كل شيء، سوى قطاع تافه من تطور يجري فيما وراء المرئي.



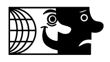
وهذا معناه أن فلسـفات المحايثـة L'immanence – وأنا على وعي تام بخطورة هــذا التقريــر – قد ولَّــى زمانها، وأن علينا اليـوم أن نفضح ما فيهــا من لاواقعية أساســية، بل ما هو أخطر من ذلك .. أعني ما فيها من تواطؤ أخير، هناك حيث لا تصل إلى تجاوز أنفســها، مصحوبة بوثنيات يمكن أن نراها متساوية كوثنية الجنس، ووثنية الطبقة. وأضيف أنه حتى بعض الأديان الحقيقية في مبدئها يمكن أن تنحدر إلى الوثنية عندما تفســدها إرادة القوة.. وهذا – واأسـفاه – ما يحدث في كل مرة تتمتع فيها الكنيسة بسلطان زمني.

وهنــا يتحدّد في كثير من الدقة المعنــى الوحيد الذي يمكن أن نخلعه على كلمة علو، وبالنسـبة إلينا، نحن الغربيين، نستطيع أن نجد في المسيحية، وفي المسيحية وحدهــا، ذلك الملاذ والسـند، على شـرط أن تظل تلك المسـيحية مخلصة لروح الشمول التي هي مبدؤها نفسه.

ولقد تلقيت منذ يومين رسالة طريفة من رجل نبذ الشيوعية بعد أن كان يعتنقها بكل إخــلاص، ولكنه لم يهتد بعد إلى الإيمان الديني، ومازال يتمســك بأيديولوجية معينة، هي الأيديولوجية الاشتراكية. وقال لي في خطابه: «لكي يكون البرهان مقنعا، لا بد أن ينطوي على إقناع في وجه الزماني، وأن يكون له رأي سياســي. وليس لهذا البرهان شــيء من ذلك. ومواجهة إنســان ما بهذه المشكلة التي يمكن أن يستعد لها من دون أن يكون متدينا، وجعله يفشــل، ثم أن يكون التفســير المتقدم لنا أخيرا هو افتقار الإنسان الذي لا يتمتع بالإيمان الديني إلى الجذور، هذا كله يبدو لي أنه عرض للمســألة على نحو غير ملائم، ذلك أن بسكال يمكن أن يُعد غير موجود من الناحية السياســية، ومن ثم فإن حالته لا تثبت شيئا مادام الأمر يتعلق بالمشكلة السياسية». ولكني أجيب: ما معنى أن بسكال غير موجود من الناحية السياسية؟ أن بسكال نفسه يعلن في الفصل الرابع أن السياسة كانت دائما منفرة له. ويضيف أنه مدفوع الآن إلى لوم نفســه على ذلك، ولكن ما معنى هاتين القضيتين في وضوح؟ الأولى معناها أنه رجل لم يشــعر قط بأي ثقة في الأحزاب السياسية، وأنه رفض الانخراط في حزب أيا كان. وهنا أضع في بساطة هذا السؤال: ألا يحمل تاريخ الأحزاب في فرنسا منذ التحرير إلى نفور بسكال ورفضه أقوى المبررات؟ وإذا كان الآن يلوم نفسه على هذا النفور وذاك الرفض فهذا معناه أنه حين يصل في أمريكا الجنوبية، إلى الوعي الحاد



بالبؤس المخيف الذي يفترس شطرا من الجنس البشري، يدرك أنه قد أغمض عينيه طويلا عن هذا البؤس، وأنه قد عاش محصورا أشد الانحصار في عالم لا أقول عنه إنه عالم الكتب والأوراق فقط، بل عالم تتحكم فيه بلا شك الاهتمامات النقدية، أو فلنقل: الاهتمامات الروحية الصرف. وحتى حين يتخيل لحظةً - مدفوعا بالفزع من روح الرجعية التي يجسدها «الأب ريكاردو» وأشباهه - أنه كان من الممكن أن يتعاطف في سنة ١٩٣٦مع «الجبهة الشعبية»، فمن الجلي أن هذا التصور وهم، وأن الأسباب التي منعته عن ذلك التعاطف مازالت محتفظة بكل قوتها، ويمكن أن أقول هذا القول بالنسبة إلى أي حزب وُلد غداة التحرير. ويبدو لي أن هذا المراسل الذي احترم إخلاصه بل أوهامه - احتراما كبيرا - لا يريد أن ينظر في وجه الحقيقة المأساوية التي تتجاوز الإفلاس الشامل للأحزاب. وهذه الحقيقة أمر تفترضه مسرحيتي افتراضا مسبقا. وهي تُسهم في تفسير نوع الإملاق التام الذي تصل إليه الشخصية الرئيسية والذي تستطيع منه الصعود إلى الرب: وهذه الكلمات ليست مُرضية كل الرضا، لأن هذا الصعود لا يمكن أن يكون ممكنا إلا بفضل التنازل الذي يقف إزاءه بسكال. فلنفترض لحظةً أنني تخيلت جعله ينتسب منذ البداية إلى تشكيل سياسي أيا كان، وليكن ذلك التشكيل هو الحزب الاشتراكي... من الجلي في هذه الحالة أنه سيجد نفسه مضطرا إلى الانفصال عن هذا التشكيل، لأن استشفاف النفس لا يمكن إلا أن يؤدي إلى العزلة. ومن المحتمل أن يعترض معترض بأن مثل هذا التطور لا يمكن إلا أن يكون - لحسن الحظ - استثنائيا، وأنه لا وجود فيه لشيء يمكن أن يكون شبيها بحل نافع لهؤلاء أو لأولئك. وأنا في الواقع أوافق على كل هذا. بيد أن مثل هذه الاعتراضات تنطوي على إنكار مطلق للمسرح، ولما أسميه بالمعرفة المأساوية: فهذه المعرفة ليست، وينبغي ألا تكون، على أي صلة بما تمليه الحياة العملية من توصيات علينا أن ننصت لها في موقف معين. وبسكال لومبيير شخصية مأساوية أساسا. فإذا لم يدرك الكثيرون هذه الحقيقة، فذلك لأنهم ينطلقون من هذه الفكرة الساذجة حقا، وهي أن الناقد الأدبي الذي كتب خمسمائة صفحة عن جوبير Joubert وتزوج وأنجب أطفالا... إلخ.. لا يمثل نوع الكرامة المطلوبة. وأنا أعتقد - بلا مغالاة - أنه ينبغي للشخصية المأساوية أن تمثل - بالنسبة إلى هذه النفوس الساذجة - جهازا معينا، لم يكن له وجود في هذه المسرحية. وأضيف أن الأمانة العميقة التي اتسمت بها تلك الشخصية لم تؤثر في هؤلاء السذج، لأننا نعيش،



للأسف، في عصر لم يعد يقدر الأمانة أو حتى يعترف بها، وأقول عن الشجاعة ما قلته عن الأمانة لأنهما لا تنفصلان.

ولكي تُقدر الشجاعة حق قدرها، لا بد أن تكون بعيدة النظر. فلو كان بسكال من رجال المظلات مثلا ولكن، كلا.. بسكال لا يمكن أن يكون من رجال المظلات، لأن شجاعته من نوع آخر، وكرامته المأساوية تتجلى في مجال آخر، وبهذا نراه شخصا يُمكِّن منه أعداءه، ولا تحرص زوجته على مراعاة شعوره، وأنا أتخيل أن كثيرا من المتفرجين، أو بالأحرى كثيرا من المتفرجات سيعتقدن أن تهكماته وسخرياته المزرية موجهة إليهن. ولكن ينبغي على كل حال أن نتساءل: ألا يقوم أصل هذا الفهم على ضرب من الحقد الجنسي المنحط؟ وبالإضافة إلى ذلك، نحن نواجه هاهنا باعثا آخر دفع البعض إلى الحكم على هذه الشخصية في كثير من الأحيان بأنها خليقة بالازدراء. فبسكال ليس عاشقا، وليست له طبيعة العاشق. فهو لن يكون عاشقا لـ «إستير، وإذا كان يحبها حب المودة والصداقة، فإنه ليس مغرما بها.

وقد أدهشني فيلسوف من أصدقائي حين أعرب عن أسفه لأن نجاة بسكال لم تكن على يدي الحب. بيد أن ما أسمح لنفسي بأن أدعوه بالرومانسية الرخيصة لا شأن له هنا، فهذا الحل الذي يلجأ إلى الحب لن يكون سوى حيلة بشعة، هذا إذا نظرنا إليه من مستوى منطق عميق معين هو المنطق الوحيد الذي يمكن أن يضعه الكاتب المسرحي في اعتباره. فالمناقشة هنا على صعيد آخر، والإجابة الوحيدة تكمن في مجال آخر. وربما لم يفطن البعض بما فيه الكفاية إلى أن «إستير» طبيعة أخلاقية بحتة، وأنها تظل حبيسة بين المقولات الأخلاقية. وهذا هو السبب العميق الذي جعلها غير قادرة على نقل شيء إلى ابنها على الرغم من تفانيها الذي لا يكل. بل - على العكس - لعل هذه الأخلاقية التي كانت أسيرة لها هي التي أسهمت في دفع «مارك - أندريه» إلى النزعة العدمية. وهذه العدمية تتبدى - بالتأكيد - أقل عمقا وميتافيزيقية مما يمكن أن نعتقد في الفصل الثاني. أو بتعبير أدق، هذا العمق - الذي يتكشّف لبسكال - لا يمكن أن نقول إن كان في «مارك - أندريه». فـ «مارك - أندريه» قابل للشفاء. ومن الممكن أن تشفيه البرازيل. ليس لأن حواسه سوف تستيقظ، كلا، بل لهذا السبب الأعمق وهو أن كارلوس وإينيس، وكل من هم على شاكلتهما، مخلوقات بلا مشكلة.. مخلوقات ترفض المشكلات. وعالم المشكلات

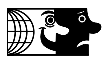


والروابط المتناقضة هو ما أراد «مارك – أندريه» أن يهرب منه، ولهذا فإنه يسقط دونه حين يرتفع بسكال إلى ما وراءه. وقد قلت: يسقط.. ولكن هل ثمة معنى في توجيه أي لوم إلى سلوك «مارك – أندريه»؟ لا أظن ذلك، بكل إخلاص. فهنا عملية استرداد حيوية أشبه بالنوم. فهل يعد من ينام مذنبا؟ وأضيف – بين قوسين – أنني مقتنع بأن كثيرا من انحرافات الشباب التي نشهدها اليوم يمكن تفسيرها بأنها حالة من حالات الإرهاق والتوتر العصبي المفرط، وأقول عامدا: إنها ضرب من الأرق.

ولكن يبدو لي أن هذه الملاحظات تسمح بإدراك الأهمية القصوى لما سميته بُعْد «مارك – أندريه» في «روما لم تعد في روما». فبدون هذا البعد تفقد المسرحية ذلك الطابع البوليفوني الذي أحرص عليه قبل كل شيء. وهذا الطابع يمكّن منها حتما أولئك الذين يريدون – بأي ثمن – تفسير هذا على نحو دجماطيقي. وأقولها مرة أخرى، إن هذا الطابع القطعي هو ما أرفضه رفضا باتا. وبهذا أعود إلى الملاحظة العامة التي بدأت بها وهي: أن المرء يدخل في هذا الفكر وفي هذا العمل بمقدار ما يعرف كيف ينفصل عن كل انشغال سياسي أو أخلاقي، مثلما يفعل المستمع إلى رباعية أو إلى سيمفونية. والمفارقة – وهذا ما أعلمه جيدا – هي أن المادة السيمفونية هنا منسوجة من المشاعر، بل من العواطف المتصلة بموقف تاريخي معين لا سابق له. بيد أن طموحي – ولعله طموح أخرق – كان يؤمن بأننا نستطيع مع كل هذا، وعلى الرغم من كل شيء، أن نؤلف عملا موسيقيا.

جبرييل مارسل

* * *



مقدمة
لمسرحية المحراب المضيء

بقلم المترجم

كتب «جبرييل مارسل» هذه المسرحية مرتين، مرة تحت عنوان «الأرض المحطمة» Le Sol Detruit، ومرة أخرى تحت عنوانها الذي ننشرها به: «المحراب المضيء» أو «مصباح النعش». وكانت كتابتها في صورتها الأولى قبل مسرحية «رجل الله»، وذلك في أواخر عام ١٩٢١. بيد أن هذه الصورة الأولى كانت ناقصة، وقد رأى «مارسل» أنه قد يكون من المفيد نشر هذه الصورة غير المكتملة في مجلد واحد مع الصورة النهائية التي قمنا بترجمتها في هذه المجموعة من الأعمال المختارة، فقد تكون المقارنة بينهما كاشفة، من وجهة النظر الدرامية، عن بعض الاهتمامات التي تتحكم في تطور العمل المسرحي أيا كان. أما الصورة النهائية فقد اكتملت عام ١٩٢٥، وعرضت على المسرح في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٥.

ويعتقد جبرييل مارسل، في ملاحظة له أوردها في المجلد الذي يضم المسرحيتين: الناقصة والمكتملة، أن مسرحية «المحراب المضيء» تحتل مكانة خاصة في مؤلفاته المسرحية، فهو يعدها أكثر مسرحياته دلالة، لأن الإشارات الفلسفية «أقل» ظهورا فيها من مسرحياته الأخرى، فهي تنتمي إلى «المسرح البحت» أو «المسرح الخالص»، إن كان من الممكن أن يكون لهذا المصطلح أي معنى.

ولما كان من غير المعقول أن نترجم في مجموعة الأعمال المختارة نصَّين لمسرحية واحدة – وإلا انتفت فكرة الاختيار – فسنكتفي بالإشارة إلى بعض الفروق بين النسختين. ومن المستحسن طبعا قبل ذكر هذه الفروق أن نورد ملخصا سريعا للنص النهائي للمسرحية.

وكما يعالج مارسل في مسرحية «رجل الله» رسالة رجل الدين حين تنحرف عن وضعها الصحيح، يعالج في مسرحية «المحراب المضيء» حالة من حالات «الوفاء» المتطرفة التي تضل عن مقصدها. وصاحبة هذا الوفاء المتطرف المسرف هي السيدة «آلين فورتييه» التي فقدت ابنها «ريمون» Raymond في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨). فمنذ أن فقدت السيدة «آلين» هذا الابن اصطبغت حياتها



نهائيا بهذا الفقدان، فهي لا تعيش إلا على ذكرى هذا الابن، وعلى الرغبة في أن يعيش كل من حولها لهذه الذكرى أيضا، حتى ليخيل إلى المرء أنها تؤثر الموت على الحياة، وأنها ترى الشيء الحقيقي الوحيد في الحياة هو الشقاء.

وكان لابنها قبل مصرعه خطيبة هي «ميريي برادول» Mireill Pradol فتاة نقية الفطرة، مستقيمة الطبع، معتدة بحريتها وكرامتها، تعيش فترة بعد وفاة خطيبها تحت سيطرة الأم الثكلى، وفاء لخطيبها بالطبع، حتى أنها لتدعوها «ماما».

بيد أن الحياة أقوى من الموت دائما، إذ تلتقي «ميريي» شابا قويا على كثير من الحيوية والتألق هو «روبير شانتاي» Robert Chantail فيظفر بإعجابها، ولكنها تكتم هذا الإعجاب عن أم خطيبها، على حين تضع الأم في طريقها شابا عليلا من أقربائها يدعى «أندريه فردييه» André Verdet. ونتبين بعد قليل أن هذا الشاب العليل يهيم غراما بميريي، وحين تعلم هذه الأخيرة أن أقل صدمة يمكن أن تودي بحياته المعلقة بخيط واهٍ لا تجد أمامها إلا الخضوع لرغبة الأم في الزواج منه، معتقدة أنها بهذا الزواج تكوّن على تواصل وثيق مع أم خطيبها المقتول، ومن ثم تظل وفية لذكرى «ريمون».

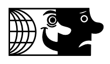
وتتحقق رغبة الأم بهذا الزواج، غير أن الحوادث تتخذ مجرى آخر يُفسد تدبير الأم. ذلك أن «روبير شانتاي» يموت في حادث سيارة، ويتناهى النبأ إلى «ميريي» فيهز أعماقها هزا عنيفا، ويلحظ الزوج «أندريه فردييه» الوقع الأليم لهذا النبأ على زوجته، فيدرك بالطبع أن هذا الزواج قد تم على سبيل الشفقة، بل يسأل «ميريي» إن كانت قد فعلت ذلك تحت إلحاح «آلين فورتييه».

وتناضل «ميريي» للاحتفاظ بحياتها ضد الآثار السيئة التي تركتها «آلين» على تلك الحياة. ويبدأ كل شيء من جديد، وتستمر «الأم» الأخطبوطية في محاولة إضفاء الحداد على وجود الآخرين. «إنها إنسانة لا تمَّحي أبدا... إنسانة تحول بينك وبين الوجود».

(المنظر السابع من الفصل الثالث)

وفي ختام المسرحية حين تحاول «آلين» أن تتدخل من جديد في حياة «ميريي» و«أندريه»، تخرج ميريي على تحفظها، وتقذف في وجهها بهذه الكلمات:

ميريي : (في حدة مباغتة) ماما، قولي لأنك تستطيعين من هنا



إحداث أكبر قدر من التحطيم دخلت هذه الحجرة؟ أتراك تخشين أن تبقى هنا أثارة من حياة؟ كلا، كلا، لا تصطنعي عيني الضحية هاتين... آه! أنت مخيفة، بعد أن حطمت قلبينا، ها أنت تأتين لإرغامنا على أن نطلب الصفح منك!».

(الفصل الثالث – المنظر الثامن)

ومع كل هذا، فإن «ميريي» تلتمس العذر لهذه «الأم» الضالة، وترى أنها امرأة مسكينة، أكثر من أن تكون مخلوقة شريرة. وتعتقد أنه إن دفعها اليأس إلى الانتحار، فإن حياتهما الزوجية تصبح حينذاك مستحيلة. ولهذا فإنها تهم في نهاية المسرحية بدعوتها إلى مشاركتهما في تلك الحياة تحت سقف واحد، وفي هذه اللحظة التي نمتلئ فيها إعجابا بميريي، وبتضحيتها الكبرى، ونبلها ومروءتها الشديدين، نشعر في الوقت نفسه بكثير من القلق من عواقب هذا القرار الذي يمليه الكرم وسخاء النفس، ونحس كأن المأساة لم تنته، بل إنها بدأت من جديد.

بقيت كلمة عن الفروق بين هذه الصورة النهائية التي عُرضت بها مسرحية «المحراب المضيء» على المسرح، وبين صورتها الأولى التي كتبها «مارسل» سنة ١٩٢١، ونشرها – كما سبق أن ذكرنا – في مجلد واحد مع هذه الصورة النهائية.

في «الأرض المحطمة» – أي في النسخة الأولى من المسرحية – لم يكن والد الشاب الذي قُتِل في الحرب ضابطا، بل هو من رجال الصناعة، وشخصيته من الشخصيات المتحذلقة، وهو لا يهتم إلا بصحته، ومن الواضح أن المؤلف يدفعنا إلى ألا نأخذه مأخذ الجد. وعلى حين تتضح العلاقة المأساوية بين الوالدين: آلين (الأم) وأوكتاف (الأب) في النسخة النهائية، نرى أن النص الأول يخلو تماما من ذلك الطابع المأساوي لتلك العلاقة. كما أن ما يتضمنه الموضوع من منطق عميق لم يهتد إليه المؤلف تمام الاهتداء في «الأرض المحطمة»، ولهذا السبب يتضح التركيز على العنصر التهكمي الساخر الذي يمكن أن يكون مشحونا جدا نظرا إلى غياب ذلك المنطق العميق المشار إليه. أما في الصورة النهائية فإن شخصية «إيفون» شقيقة ريمون هي وحدها التي تحمل آثارا من ذلك العنصر التهكمي، ولا يظهر زوجها في النص النهائي، بل يشار إليه فقط، على حين أنه ظاهر بشخصه في «الأرض المحطمة».

ولا ينص المؤلف في النسخة الأولى على أن خطيبة الجندي المقتول يتيمة الأبوين، وهو يأسف لأنه حذف شخصية أم «ميريي» – وكان اسمها «مدام تورنير Tourneur – من النسخة النهائية، على الرغم من أنها كانت تنطوي على صدق عظيم، وأن العلاقة بينها وبين ابنتها كانت ذات أهمية كبيرة. وقد اضطر «مارسل» إلى حذف هذه الشخصية وما يترتب عليها من علاقات، لأنه رأى أن بقاءها يضيف تعقيدا لا غناء فيه إلى الخطة الرئيسية للمسرحية، ووجد من الأفضل ألا تملك الفتاة أي ملاذ عائلي، وأن تكون تحت رحمة أم خطيبها تماما. وبالطبع كان المؤلف خاضعا في ذلك لضرب من الاقتصاد الدرامي، كان مسيطرا بلا شك – بدون قصد منه – في تطوير المسرحية، بحيث أدى بها إلى الصورة النهائية.

ويعترف مارسل بأن الخط الدرامي كان مهزوزا بوجه عام في النص الأول، وكان هو نفسه مترددا إلى حد ما. وهذا التردد يظهر بوجه خاص في شخصية «أوكتاف»، وكذلك في شخصية «لوي» التي احتل «شانتاي» مكانها في النسخة النهائية.

لكن ربما كان الأجدر بالملاحظة ذلك الانقلاب غير المتوقع تماما في الفصل الثاني من «الأرض المحطمة»، إذ يعتقد مارسل أن القيمة الدرامية الباطنة في هذا الانقلاب شيء لا سبيل إلى إنكاره، ولكنه يقضي قضاء مبرما على المسرحية نتيجة للطريقة التي يعمل بها على تغيير العلاقة بين «آلين» و «ميريي»، وذلك بإيقاظه شعورا مريرا بالغيرة في نفس الفتاة نحو أم خطيبها. والواقع أن هذا التغيير يؤدي بالمسرحية إلى طريق مسدود، لم يكن «مارسل» يجد منه منفذا يستطيع معه الاستمرار في كتابة المسرحية.

ومن هذه النقطة كان عليه أن يعود على أعقابه، وأن يفكر من جديد في كل معطيات المسرحية، وأن يتدبر إمكانية قيام حركة درامية متسقة فيها، وكان عليه أن يعمِّق الصلات الجوهرية بين الشخصيات، وأن يجعلها أكثر حدة وشدة، وهكذا استهدفت كل التغيرات والتحولات التي أدخلها على النسخة الأولى هذا الإبراز، وهذا التوكيد للعلاقات بكل ما ينطوي عليه من تبسيط وتدعيم في آن واحد.

ويرى «مارسل» أننا لو تأملنا طويلا هذه التغييرات لوجدناها تصويرا مفيدا لنمط خاص من المنطق (لا من «الديالكتيك» وهي كلمة لا يراها مناسبة في هذا

المكان) يتدخل عند المؤلف الدرامي، وذلك حين لا يضع هذا المؤلف في حسابه أي اعتبارات أخرى غريبة على رسالته الحقيقية، وهي أن ينفخ الحياة في أشخاص عليه تطوير طبيعتها الخاصة وإلقاء الضوء عليها، وتوضيح العلاقات الظاهرة أو الخفية التي يمكن أن تقوم بينها في آن واحد.

ومن هذا المنظور ينبغي النظر إلى أعمال جبرييل مارسل المسرحية، تلك الأعمال التي لم يُنْظر إليها حتى الآن إلا في علاقتها بفكره الفلسفي، على حين أن هذه الأعمال المسرحية هي التي حرّكت ذلك الفكر الفلسفي، وكانت تجسيدا له في وقت معا.

* * *



المحراب المضيء

أو

مصبَاح النعْش

مسرحية من ثلاثة فصول

تأليف:

جبرييل مارسل

ترجمة وتقديم:

فــــؤاد كــامــــل

مراجعة:

محمد إسماعيل محمد



العنوان الأصلي للمسرحية

GABRIEL MARCEL

LA CHAPELLE ARDENTE

Pièce en trois actes

LA TABLE RONDE

8 RUE GARANCIÈRE 6

PARIS



عُرضت هذه المسـرحية لأول مرة في ٢٥ سـبتمبر ١٩٢٥ على مسـرح «فييـه كولومبيـه» Vieux Colombier، ومثلتهـا فرقـة «مسـرح المؤلفيـن الشـبان» Théatre des Ieunes Auteurs وأخرجهـا جاستون باتي Gaston Baty.



شخصيات المسرحية

Octave Fortier	أوكتاف فورتييه
André Verdet	أندريه فرديه
Alaine Fortier	آلين فورتييه
Mireille Pradol	ميريي برادول
Madame Verdet	مدام فيرديه
Louise	لويز
Ivonne Cambrin	إيفون كامبران
Anna	آنا
Jacques Le Petit	جاك الصغير



الفصل الأول

تجري أحداث المسرحية في عام ١٩٢٠.

حجرة جلوس رحبة، في الريف. أبواب على اليمين وعلى اليسار. في مؤخرة المسرح باب كبير من الزجاج يؤدي إلى الحديقة التي نلمحها.

المنظر الأول

آلين، ثم لويز

آلين ترسل البصر إلى الحديقة، وقد أسندت وجهها إلى راحتها، ثم تسير إلى الجرس بالقرب من المدفأة، وتضغط على الزر. تمر فترة من الوقت.

لويز : (داخلةً) هل ضربتِ الجرس يا سيدتي؟

آلين : (مشيرة إلى الحديقة) ما تلك اللعب التي أراها هناك؟

لويز : (مُحْرَجَةً) ينبغي ألا توبخني سيدتي. فمدام كامبران هي التي طلبت مني أن أصعد معها إلى «الصندرة» للبحث في أشياء مسيو ريمون (حركة من آلين) عما إذا كان فيها بعض اللُّعب لجاكو.

آلين : وهل استأذنت مني؟

لويز : كنت أنا أريد ذلك، غير أن مدام كامبران قالت لي إن المسألة لا تستحق العناء. وحين أتلقى أمرا...

آلين : لا يُعْطي الأوامر هنا أحد سواي، يا لويز.

لويز : اعتقدت أن سيدتي ستوافق... وكان ذلك لابنها الصغير...

آلين : يَحْسُن بك أن تعيدي هذا الصندوق حيث أخذتِه.

لويز : عندما ترى مدام كامبران ذلك... لن يجد جاكو فيما يبدو ما يتسلى به.



آلين : ولماذا لم تأخذ ابنتي ما كان ينبغي أن تأخذه؟

لويز : كان يبدو حينذاك أن هناك فائضا...

آلين : سيذهب فيكتور حالا إلى المدينة، وليس عليه إلا أن يشتري ما هو ضروري.

المنظر الثاني

الشخصان أنفسهما، وميريي

(ميريي تدخل بملابس التنس، وقد أمسكت مضربها بيدها)

آلين : هكذا عدتِ سريعا، يا عزيزتي؟

ميريي : فـي هذه السـاعة، يبـدأ ملعـب التنس داخلا فـي ذروة الشمس.

لويز : أتريد الآنسة أن أعدَّ لها ثوبا آخر؟

ميريي : كلا، أشكرك، يا لويز، سأبقى كما أنا.

آلين : إذن، ستفعلين ما قلتُه لك. أليس كذلك؟

(تخرج لويز)

ميريي : (ذاهبة إلى آلين، في حنان) لم أكد أقول لك: صباح الخير يا ماما هل ترويّت مليّا؟

آلين : ماما.. أأنت متأكدة...

ميريي : أجل، دعيني أنادِك: ماما.

آلين : لست أدري.. إني أتساءل...

ميريي : لو استطعتُ أن أكون زوجته، لوجدتِ هذا طبيعيا جدا.

آلين : ربما.



ميريي : يبـدو لي الآن، بعد أن لم يعـد موجودا، أن كلا منا صارت أقرب إلى الأخرى.

آلين : واصغيـراه! (تتعانقان) وعلى كل حـال.. ينبغي ألا تناديني على هـذا النحو لإرضائي... ولكن فـي حالة ما إذا أتاك ذلك تلقائيا... أليس كذلك؟ ربما أحس والداك بشـيء من الحزن، لو استطاعا أن يتنبآ بذلك!

ميريي : مادمت لم أعرفهما... كلا، كلا، أنت ماما حقا بالنسبة إليّ.

(صمت)

آلين : من كان يلعب التنس؟

ميريي : كالعادة، هنرييت، جان، وإخوانهما... وكان روبير شـانتاي هناك أيضا.

آلين : إنه يأتي الآن في جميع الأيام تقريبا؟

ميريي : أجل...

آلين : ودائمـا بغيض أيضـا؟ (حركة غامضة مـن ميريي) أنا لا أعرف عنه إلا ما أخبرتني به.

ميريي : قـد يكون من الحق أنـه ليس جذابا جـدا... ولكنه يجيد اللعب على كل حال.

آلين : آه؟

ميريي : ولكن حين نصل، فإن له طريقة في النظر إليك من أخمص قدميك إلى رأسك...

آلين : ليس هذا صنيع الرجل المهذب.

ميريي : (مترددة) لا يمكن أن يقال عنه إنه سيئ التربية...

آلين : ومع ذلك، فإن تلك النكتة التي أطلقها عن جان موريل ذلك اليوم، بدت لي قليلة الذوق إلى حد بعيد!



ميريي : يا لذاكرتك! فأنا لا أذكر حتى أنني قصصتها عليك. ولكن مـــن الممكن أن تكوني على صواب. وبالإضافة إلى هذا، إن له أسلوبا في التهكم على خالة موريل العجوز، تلك الخالة الصماء...

آلين : الواقع...

ميريي : أوه! وفضلا عن ذلك، فإنه شديد الإعجاب بنفسه. فاجأته وهو بســبيله إلى النظر إلى وجهه في مرآة للجيب. والحق أن هيئته أفضل من شــخصيته، ولكن، مع ذلك.. ألم تريه قط؟

آلين : كلا، لا أظن...

ميريي : إنه من ذلك الطراز الذي لا يعجب كل الناس. شــعر فاحم الســواد، وعينان في زرقة صافية. وهذا شيء فيه غرابة. (صمت. تحــت ضغط هذا الصمت...) وربما كانت نظرته على شيء من القسوة.

المنظر الثالث

الشخصان أنفسهما، وإيفون

إيفون : صباح الخير يا ماما، صباح الخير، يا ميريي، كيف حالك؟ (إلى أمها) أتعرفين – مصادفــة – أين وضعوا اللعب التي طلبت إنزالها من «الصندرة» من أجل جاكو؟

آلين : أجــل، وقد أخبــرت لويز من فــوري أن تحملها إلى هناك حيث كانت.

إيفون : ما الســبب! لماذا؟ في الواقع هذا شيء لا معنى له، أصبح الصغير شديد التذمر في هذه الأيام الأخيرة، لم نعد نعرف كيف نلهيه.

آلين : سيشــتري فيكتور كل ما تريدين من «فيلنوف»، حيث ذهب منذ لحظة.



إيفون : ولماذا يشتري، مادام كل ما هو مطلوب موجودا هنا؟

آلين : إنه سيتقاضى الحساب مني أن.

إيفون : المســألة ليست مســألة الثمن، ولكنني لا أرى من الحكمة عدم الانتفاع بما نملك: أتؤثرين أن تتآكل هذه اللّعب بفعل الرطوبة في «الصندرة» من دون أن تفيد بشيء؟

آلين : أنوي بالفعل التوصية بصنع قطعة من الأثاث، حيث أحفظها مرتبة.

إيفون : ترتيبها! إني واثقة تمام الثقة بأن ميريي تشــاطرني رأيي. (حركة نفي من ميريــي) إن لك طريقةً في فهمك لاحترام الماضي!

آلين : (بصوت متغير) أرجوك...

إيفون : أنت لا تدينين بدين الماضي، بل بخرافته.

ميريي : إيفون!

آلين : لــن أجيب عليك بغير كلمة واحدة: حــين يكون المرء قادرا علــى الذهاب إلى حفل راقص بعد ثلاثة أشــهر من موت أخيه، فإنه لا يصبح كفوا لأن...

إيفون : هذا الحفل الراقص مرة أخرى! دائما هذا الحفل الراقص! آه! كم عدد المرات التي اســتخدمتِه فيها من أجلي! وحين أفكر...

آلين : كفى، من فضلك. فلا جدوى من الإلحاح.

إيفون : هذا أدعى إلى الارتياح.

ميريي : إنك تسيئين إلى والدتك، يا إيفون... (حركة من آلين) وإليّ، إنك تجرحينني أنا أيضا.

إيفون : أجرحك؟

ميريي : (وعيناها مســددتان إلى آلــين) ينبغي احتــرام مثل هذه المشاعر، يا إيفون!

إيفون : العقل السليم لا يَفْقد أبدا حقوقه، ولو كان زوجي هنا..

آلين : أجل، هذه عبارة من عبارات زوجك، في الواقع.

إيفون : أمـــا أنا، فأرى من هنـــا أننا لن نوفَّق فـــي الحياة في هذا البيت، لو لم يكن بسبب أبي...

(تخرج)

المنظر الرابع

آلين ، وميريي

آلين : (في مرارة) إليك!

ميريي : هذا مؤلم أشـــد الألم... ألا تعتقدين، مع هذا، أنه كان من الأفضل.. رأيت، أنني أيَّدتُك...

آلين : حتى لو كان ذلك لمجرد الشكل!

ميريي : كلا، غير أن هذه اللعـــب، كان من المؤكد أن يعطيها ريمون لابن أخته.

آلين : ريمون لم يعد هنا.

ميريي : هذه اللعب، ليست...

آلين : بلى... ليس في وسعك أن تفهمي.

ميريي : إنها بالنسبة إليّ أنا أيضا، ليست بالطبع سوى... أطلال.

آلين : كلا، أنـــت، إنه لـــم يكن لك عندمـــا كان صغيرا جدا وأنت لا ترينه مثلمـــا أراه أنا... حين كانـــوا يحملونه إلى مهده، وحـــين كان يلعب في الحديقة، وحـــين كان يمنحهم، وحين كان يعطيهم... كان يحب العطاء حبا جما.

ميريي : (بصوت خافت) بالضبط، إذن...

آلين : كيف؟

ميريي : لا شيء.

آلين : أما إيفـــون.. فكانت تريد أن تنهب كل شـــيء، ما من كلمة أخرى غيرها. حتى كتب أخيها المدرسية التي كان الصغير في حاجة إليها. آه! وكأنها تقرأ الغيب!

ميريي : لعل ذلك لتكون لها... ذكريات عن أخيها.

آلين : إنهـــا لم تحبه قط. أوه! أجل، كانـــت تناديه بأخي الصغير العزيز... تلك الكلمات التي تُلْزِم بشـــيء. ولكن، ماذا فعلتْ مـــن أجله؟ كلا، كلا، ينبغي أن نقولها: هنا، لم يكن ســـوانا نحن الاثنتين...

ميريي : ولكن حماي...

آلين : أوه! ومع ذلك... (تطوف عيناها في شـــرود بالمائدة) إليك، الواقع أنني كدت أنســـى أن أريك هذا الذي وضعته جانبا من أجلك.

(تناولها ظرفا)

ميريي : ما هذا؟ (تفض الظرف) أوه! ولكن، كيف لم تطلعيني عليها قبـــل ذلك بوقت طويـــل؟ «باراميه، ١٩٠٢» إنـــه هو، ذلك، الواقف هناك، على ساقين عاريتين؟ كم كان أكبر من سنه! وهناك فوق... إلام كان يشير بإصبعه؟

آلين : (تميل عليها) أريني.

(يدخل أوكتاف في هذه اللحظة)

ميريي : تعال انظر، يا أبي.

آلين : (تســـتعيد الصور الفوتوغرافية في حركة توشـــك أن تكون عنيفة) كلا، أعطينيها.



المنظر الخامس

الشخصان أنفسهما، وأوكتاف

أوكتاف : ما هذا؟

آلين : لا أهمية على الإطلاق.

أوكتاف : جئت أستنجد بذاكرتك: ألا تذكرين - على سبيل المصادفة - ماذا صار إليه الملازم كلوني؟ كان ينبغي أن ينقل إلى الكتيبة ١٥٤ في ١٨ فبراير، ولكن ما حدث منذ ذلك الحين؟ يبدو لي أننا علمنا...

آلين : ليست لدي أي فكرة عن هذا الموضوع.

أوكتاف : يجب أن أكتب إلى الأمانات. (إلى ميري) هذا من أجل كتابي، تعرفين؟ إني أتحدث عن الملازم كلوني بمناسبة خندق فرانكفورت.

ميريي : أهكذا تقدمت فعلا؟

آلين : (التي انهمكت في قراءة كتاب) إنه يعمل كثيرا.

أوكتاف : يجب أن ينتهي كل شيء عند بداية السنة الجديدة.

ميريي : لماذا؟

أوكتاف : هذا حدٌ فرضتُه على نفسي، ينبغي دائما أن يضع المرء لنفسه حدا.

ميريي : لا بد أن هذا يمثل عملا هائلا.

أوكتاف : إن الشطر الأعظم منه هو المراسلة مع العائلات.

ميريي : لو أردت أن تعطيني بعض هذه الخطابات لكتابتها... (آلين تسدد بصرها عليها) ماذا هناك، يا أماه؟



آلين : لا شيء، إني مندهشة.

أوكتاف : هؤلاء الناس الذين ينبغي ملاحقتهم ثلاث.. أربع مرات، قبل أن نحصل منهم على ردّ.. أوه! ولكنني أملك المثابرة.. كل أولئك الأشخاص المساكين الذين كانوا في الكتيبة ٤٢٧، إنهم أبنائي إلى حدٍّ ما، وينبغي أن أعرف ما صاروا إليه جميعا ماداموا قد بقوا على قيد الحياة. أولا، كتيبة على هذا النحو، تخيّلي، في ثلاث سنوات، لا وصمة، لا ضعف... ولو لم تُحَلّ غداة وقوع الأعمال العدوانية، لما قدمت استقالتي.

ميريي: : أصحيح هذا؟

أوكتاف : بالتأكيد!

آلين : يبدو أنهم أحضروا إليك ربطة من مازيريه.

أوكتاف : (في حيوية) من صاحب المطبعة، أين هي؟

آلين : (تشير إلى اليمين) أعتقد أنهم وضعوها هناك، على جنب.

أوكتاف : (خارجا) لماذا لم تخبريني بذلك على الفور!

(يخرج)

آلين : يا عزيزتي، إذا أردت ألا تسببي لي ألما عميقا، فلا تجددي اقتراحك.

ميريي : أي اقتراح؟

آلين : عن موضوع الخطابات التي تطوعتِ بكتابتها.

ميريي : اسمعي - يا ماما - لو كان في ذلك خدمة له...

آلين : (في شيء من القسوة) أولا، هذه المكاتبات تشغله.

ميريي : ومع ذلك...

آلين : (ذاهبة إليها) ثم، إن مجرد فكرة هذا الكتاب ترعبني.

ميريي : ولكن...

آلين : وكنت أعتقد أنك تشاطرينني شعوري، نحن على اتفاق، بوجه عام... قلعة المادلين، وخندق فرانكفورت (تنتحب) العلامة الرقم ١٣٦، يا ميريي، العلامة الرقم ١٣٦.. إنه يريد أن يخلِّد ذكرى تلك المذابح، تلك المجازر.. وتساعدينه على ذلك؟... كلا، يا صغيرتي، لن تفعلي ذلك!

ميريي : (مذهولة) سأفكر مليًّا، أنا...

آلين : (تثوب إلى هدوئها) في هذه الحالة، يهدأ بالي.

أوكتاف : (يدخل ممسكا بمجلدين في يده. بصوت قليل الثقة) انظري.. إنه ليس الإخراج الذي كنت أتمناه تماما، ولكنهم لا يصنعون ما يريده المرء. على كل حال، أنْبِئاني برأيكما فيهما.

(يمد يده في ارتباك بأحد المجلدين إلى ميريي، وبالآخر إلى آلين)

ميريي : (بعد أن تأمّلتْه) أوه! كم هو جيد! كم هو ممتا... (تلتفت في هذه اللحظة إلى آلين التي تصلبت في نوع من اليأس المتشنج، فتنقطع عن الكلام)

أوكتاف : انظري، هنا أولا صورته الفوتوغرافية، صورته عند دوبان، وفي الصورة الأخرى تبدو هيئته كطفل. وهناك، نصوص الاستشهادات، نصوصي أولا، حين أوردها بترتيب كتيبتي، ثم بترتيب فردان... ثم الأخيرة. وهناك أيضا رسائله، تلك التي كتبها إليَّ (نشعر بأن وجود زوجته يربكه. يرغم نفسه على الكلام، غير أن صوته يخفت شيئا فشيئا) هناك منها خمسٌ وستون - على ما أعتقد - كلا، أربع وستون... فليكن، ما علينا، سترين... الكلمات الصغيرة لم أُعِد طبعها... فلا أهمية لها... ولن يعرض هذا الكتيب للبيع...

ميريي : أجل... بالطبع.

أوكتاف : إنه من أجل الأصدقاء فقط.. من أجل أولئك الذين عرفوه.. وأنت، يا آلين، ما رأيك في هذا الموضوع؟

آلين : لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

أوكتاف : كيف لا شيء؟

آلين : (متمالكةً لنفسها) الورق جيد... وحروف المطبعة مقروءة.. جدا.

أوكتاف : هذا واضح! لم يبق إلا أن تكون تلك الحروف غير مقروءة!

آلين : إنها حسنة تماما.

أوكتاف : إذن فأنت.. مسرورة؟

(لا تجيب عليه، وتظل خلال بقية المنظر كأنها مستغرقة في تأمل حزين)

ميريي : (لكي تقول أي شيء فقط) ما كان أقل توقعنا لشيء كهذا! أن نرى هذه الخطابات منشورة!

أوكتاف : أي نعم.

ميريي: (بصوت خفيض) فكرة حسنة جدا.

أوكتاف : (مرهفا سمعه) كيف؟ (ميريي لا تجيب) أعطني نسختك لكي أبعث بها إلى التجليد.

ميريي : شكرا.

أوكتاف : (بصوت هامس، مشيرا إلى آلين) المسألة غاية في الصعوبة، يظن المرء أنه يبعث السرور إلى نفسها، ثم...

ميريي : (بصوت هامس) ليست تلك الطريقة نفسها في معاناة الشقاء.



المنظر السادس

الأشخاص أنفسهم، وإيفون

إيفون : سنذهب للجلوس تحت شجرة الأرز مع «النونو»، والطفل الصغير، فإذا أراد أحد أن يأتي إلينا... أنت يا بابا، ألم تقل حتى صباح الخير لحفيدك؟

أوكتاف : ما هذا؟ لقد «هشكته» فوق ركبتي طوال ربع ساعة!

إيفون : وأنت، يا ميريي؟ أتعلمين أنه يطلبك!

آلين : اذهبي يا عزيزتي، فستعودين لاصطحابي بعد لحظات إلى الأم نويل، فقد وعدتها أن أحضر لها سلة من الكرز. وسيسرها أن تراك، تلك المرأة المسكينة.

أوكتاف : أخبريها أنني كتبت للمرة الثانية عن موضوع الميدالية العسكرية لابنها.

آلين : آه! حقا؟

ميريي : سنقول لها ذلك.

إيفون : (توجه الكلام في أثناء خروجها إلى ميريي) لقد قُتِل نويل الصغير، أليس كذلك؟.. وفضلا عن ذلك، لكي تذهب ماما إلى هناك...

(تخرج مع ميريي من الباب الزجاجي)

المنظر السابع

أوكتاف، وآلين

(صمت. آلين تتصفح الكتيب، بيدين مرتجفتين. أوكتاف ينظر إليها بنوع من اليأس. وفجأة، تهب آلين واقفة)

آلين : ماذا يعني هذا؟

أوكتاف : (مقتربا) ماذا؟



آلين : تلك المحادثة التي يلمّح فيما إلى... إنك لم تقرأ لي قط هذا الخطاب.

أوكتاف : أرني... (تناوله آلين الكتيّب، وتسدد إليه بصرها) آه! أجل...

(في شيء من الارتباك) عم تسألينني، بالضبط؟

آلين : لماذا يقول: «سأندم دائما على أنني لم أتبع نصيحتك» ؟.. أي نصيحة؟

أوكتاف : لكن..

آلين : «أشكرك على أنك هديتني إلى الطريق». والتاريخ... (بحدة) لقد أشرت عليه بالتطوع قبل موعد استدعائه للجندية!

أوكتاف : تذكَّري حالته النفسية: كان مترددا، معذبا، وكان ذلك عندما أذنت له في ١٦ ديسمبر. أقبل عليّ ذات مساء قائلا – في هذا المكان بالضبط –: «بابا، ماذا تفعل، لو كنت مكاني؟»

آلين : إذن، فقد كانت كلمة منك تكفي لاستبقائه؟

أوكتاف : آلين!

آلين : كنت تُمْسك حياته بين يديك في تلك اللحظة؟

أوكتاف : طلب مني أن أحدِّثه بصراحة، حديث رجل لرجل.

آلين : رجل لرجل! انظر إليه..

(تشير إلى صورة ريمون الفوتوغرافية الموضوعة على المائدة)

أوكتاف : لم يكن من حقي أن أخيِّب أمله.

آلين : لقد اسأت استغلال مكانتك، وضعفه، والخوف من أن يسقط في نظرك...

أوكتاف : أفْهمْته أنه حر تمام الحرية.

آلين : يا له من نفاق!

أوكتاف : أقسم لك على أنني لم أمارس أقلّ ضغط عليه.



آلين : كانت الحرب تفزعه، ولـم يكن من الصعب أن تحصل منه على وعد بألا يشترك فيها.

أوكتاف : وأنت لم تنجحي في هذا.

آلين : بسـبب خطئك.. أوه! ثم إنني لم أكن أجد نفسـي في تلك اللحظـة - وكأنما كنت أعيش فـي كابوس - (صمت) كان يعتمد عليك في أن تثني عزمه عن الرحيل.

أو كتاف : إنك تدنسين ذكراه، إنك تجعلين منه جبانا.

آلين : طفل مسكين كان يرى رؤية صافية.

أوكتاف : ألـم تقولي إن الحـرب كانت تفزعه؟ ومـن ذا الذي أحب الحرب؟

آلين : أنت... ألم تقل ذلك اليوم للدكتور موريل: «أجمل سـنوات عمرنا...».

أوكتاف : لا علاقـة إطلاقـا بين هـذا وذاك. لم تكـن الحرب هي الجميلة، وإنما الخطر، الصداقة في الخطر. لا تسـتطيع المرأة أن تفهم.

آلين : وهذا خير لها! ثم، أكان من الممكن أن تكتب مذكراتك لو لم تحب الحرب؟

أوكتاف : إنها ليسـت مذكراتي. بل هي حوليـات كتيبتي، وهذا على سبيل الوفاء.

آلين : أما الآخرون، فإنني أرى جيدا ما هم عليه، إنهم لا يتحدثون عنهـا أبدا، وكأنهـم يخجلون منها... أما أنـت.. فإنك لا تستطيع حتى أن تترك الأموات في سلام.

أوكتاف : من واجبي أن أخلّد ذكرى صمودهم، وبطولتهم، و...

آلين : كلمات. وبسـبب هذه الكلمـات يعود كل شـيء ليبدأ من جديد... إلى أن يفنى آخر إنسان ولا يبقى أحد.

أوكتاف : كلمات؟ أنتِ تُنْكِرين ابنك.

آلين : أما أنت، فقد...



(تتوقف عن الكلام)

أوكتاف : انطقيها.

آلين : كلا.

أوكتاف : هيا، أعرف ما تفكرين فيه.

آلين : آه!

أوكتاف : أهي غلطتي لأنه لم يَعُد.. أتتهمينني بأنني لم أسـهر عليه سهرا كافيا.. آه! لماذا ذهب إلى الكتيبة الرقم ٤٢٧؟

آلين : كأنك لم تجتذبه إليها!

أوكتاف : لقـد طَلَب مني أن أَقْبَلَـه فيها، وهو الـذي اختار المجيء إليها.

آلين : إنه لم يختر شـيئا، لقد ترك نفسه ليصنعوا به ما يشاؤون، ولم يدافع عن نفسـه... وهذا أشبه باليوم الذي... (نشعر بأن الشهقات المتصلة تهزها هزا) إن الرقم ١٣٦...

أوكتاف : تلك المهمة، لقد تضرع حتى يعهدوا بها إليه.

آلين : لـم يكن يسـتطيع أن يفعل خـلاف ذلك... هذه مسـألة متشـابكة... كلا، كلا يا أوكتاف، أعرف ما تريد أن تقول، ولكن لا أريد.. أتسمعني.. لا أريد.

أوكتاف : (وقد علاه شحوب شديد) إذن، فأنا، لم أحبه؟

آلين : أقل من مكانتك.

أوكتاف : وأنا لم أتعذب؟

آلين : عـذاب رجل. مجرد شـارة... يمكن أن توضـع في عروة السـترة.. أوه! لا تنكر ذلك. اطلعت على بعض الخطابات التي كتبتَها... بعد ذلك... وكلمة فخر تتكرر في كل سطر:
«إنني فخور...
نحن فخورون لأننا وهبنا فرنسا...».

أوكتاف : (بقوة) هذه هي الحقيقة.

آلين : أجل، حسن، وهذا دليل على أنني محقة. وحين يتعذب المرء



كما تعذبتُ أنا... لا يشـعر بمثل هذه المشاعر الجميلة، ولا يبقى له ما يمكن أن يعطيه، شنيع هو العذاب، ولا يمكن أن يوضع في أبيات من الشعر المقفّى الموزون.

أوكتاف : كيف؟

آلين : عثـرت على مسـوَّدة مبعثرة، وقاموسـك للقوافي التي لم ترتبها.

أوكتاف : (بصوت يهتز بالانفعال) أصغي إليّ يا آلين، لسـت ممثلا، إني يائـس أنا أيضا، ولا أسـمح لك، أتسـمعينني.. وإذا خطرت لي فكرة نظم بعض الأشعار التي أريدها أن تُحْفر على قبره...

آلين : (بصوت مكتوم) كلا، كلا.

أوكتاف : وإذا كنا قد أحضرنا ابننا إلى هذا المكان، فذلك لكي نمجد ذكـراه التي أعتبرها مقدسـة، على حين تُصرين أنت على تحقيرهـا. وإذا كان يرانا، أنت وأنـا، وإني لعلى يقين من ذلك...

آلين : اسكت.

أوكتاف : تسـتطيعين أن تقولـي لنفسـك.. تسـتطيعين أن تقولي لنفسـك.. (يقرع أندريه الباب الزجاجي في هذه اللحظة) إيه! ولكن، هذا أندريه.. ادخل، يا صغيري.

المنظر الثامن

الشخصان أنفسهما، وأندريه

أندريه : صباح الخير يا عمي أوكتاف، صباح الخير يا خالتي.

أوكتاف : كنت أنوي المرور على «القومسيون» للحصول على أنباء عن الاستشارة الطبية.

آلين : هذا صحيح، كان ذلك أمس.



أندريه : يبدو أنه مرض عصبي، بكل تأكيد.

أوكتاف : وماذا عن تلك الاختناقات؟

أندريه : لا خطورة منها.

آلين : والقلب؟

أندريه : يـكاد يكون طبيعيـا. ولكنـه أعطاني مع ذلك شـيئا من الديجيتال.

أوكتاف : مع ذلك..

أندريه : هذا من قبيل زيادة الحـرص. وهو يعزو ذلك إلى الإرهاق الذي عانيته في العام الماضـي. ومجمل القول: لم يبق إلا انتظار ما سوف يحدث.

أوكتاف : رائع، هذا شيء عظيم.. ولا بد أن والدتك مسرورة جدا.

أندريه : أعترف بأن المسـألة بالنسـبة إليّ أيضا أشـبه بالحكاية المعروفة عن اقتطاع جزء من الوزن. وقد يبذل المرء أقصى جهده، وينتهي به الأمر إلى إيذاء نفسه.

آلين : هذا واضح.

أندريه : هل ميريي... هنا؟

أوكتاف : إنها في الحديقة مع إيفون والطفل.

أندريه : لقد لمحتها من بعيد في أثناء مروري على ملعب التنس. إنها تذهب إلى هناك كل يوم تقريبا، أليس كذلك؟

أوكتاف : إنها لا تملك هاهنا من وسائل التسلية إلا أقل القليل..

آلين : (في حيوية) هل سـمعتَها تشـكو مرةً من هـذا؟ إن لديها موارد كافية في نفسـها، ولكنها تحرص، ومعها حق، على أن تمارس بانتظام قليلا من الرياضة.

أندريه : لقد كانت مع ذلك الـ «روبير شـانتاي»... يبدو أنه شـديد المواظبة على التنس، هذا الصيف. لعل في نيته أن يسـتقر هنا نهائيا، وأن يتزوج كذلك.

أوكتاف : آه! صحيح؟

أندريه : ربما كانت واحدة من بنات «موريل» يكون قد رآها...

أوكتاف : سيدهشني ذلك، فإنهن لا يملكن غير «دوطات» تافهة، ولا بد أن له مطالبَ ضخمة.

أندريه : (منزعجا) لا يوجد هاهنا من الوارثات عدد وفير..

آلين : وفقا لما قيل لـي عنه، تبدو لي شـخصيته قليلة الأهمية، وإني لمندهشـة مـن أن أفعاله وحركاته تشـغلكم إلى هذا الحد.

أندريه : ولكن، يا خالتي...

المنظر التاسع

الأشخاص أنفسهم، وميريي

ميريي : أهذا أنت! صباح الخير يا أندريه...

أوكتاف : إنه يحمل إلينا أنباء طيبة عن استشارة الأمس.

ميريي : (بلطف، ولكن من دون حرارة) آه! الحمد لله.

(يدير أندريه عينيـه فيلمح المجلد الذي تركته ميريي على المائدة، يتناوله)

أندريه : آه! لم أكن أعلم...

أوكتاف : لقد تسلمتهما منذ لحظة.

أندريه : لم تخبرني بأنك تزمع هذا النشر.

آلين : إنها مفاجأة أراد عمك أن يباغتنا بها.

(تنهض)

أندريه : وهل تعتقد أن ريمون؟... أجل، من الواضح..

آلين : ماذا تريد أن تقول؟

أندريه : كلا، لا شيء... إني أتساءل فقط...

آلين : أكمِل.

أندريه : لم تعد لهذا، الآن، أي أهمية.

آلين : هل أفْضَى إليك ريمون بشيء؟

ميريي : (تخاطب أندريه بصوت خافت وبنبرة متوسـلة) ما جدوى ذلك، الآن؟

أندريه : لم يقل لي شيئا محددا، ولكن، أتَذَكّر أن طبع هذه الرسائل، ومذكّرات الحرب...

آلين : ماذا إذن؟

أندريه : إنه كان يجد هذا كله على قليل من...

آلين : من الفسق؟

أندريه : فليكن من قلة الحياء.

آلين : (إلى زوجها) أرأيت!...

(يهز أوكتاف كتفيه في حركة تشنجية وكأنه يريد أن يقول لها: ماذا تريدينني أن أصنع؟

تخرج هي وتغلق الباب الأيمن خلفها في رفق)

المنظر العاشر

ميريي، وأوكتاف، وأندريه

(يظل أوكتاف صامتا لحظة، ويبـدو أنه ينتظر من ميريي كلمة لا تأتي، فلا يلبث أن يتحدث بصوت لا حياة فيه)

أوكتاف : أنا سأذهب لرؤية جاكو، لم يبق إلا الأطفال.

أندريه : (مُقْبِلا نحوه) عمي، إني آسف...

(يخرج أوكتاف من دون أن يجيب)

ميريي : (في مرارة) لماذا قلتَ هذا؟

أندريه : لــم أكن أريد... ولكنها ألحّت... لا أهمية لذلك. لو ارتكب خطأ...

ميريي : أتعتقد؟

أندريه : لم يكن هذا ضده، ولم يكن ضد أحد، وحتى لو ارتكب خطأً...

ميريي : لن تغفرها له ماما.

أندريه : تقولــين الآن ماما عن خالتي؟ (صمت) أؤكد لك أن هذا لا أهمية له.. (وكأنما أصابه تشنج) المهم، أن تقولي لي... هل هو جذاب في نظرك؟

ميريي : لا أدري عمن تتحدث؟

أندريه : هـذا الشاب الـذي تلعبـين معـه كل الأيـام تقريبا... هـذا الـ «شانتاي»!

ميريي : إنه لاعب ماهر للتنس.

أندريه : إنـــه يأتي من أجلك يا ميريي. أنــت تعجبينه، وفي يوم من الأيام، سيطلب منك أن تكوني زوجته.

ميريي : لا شــك في أن معلوماته خاطئة إذن! فما من أحد في هذا البلــد لا يعلــم أن كل هذه الأمور قد انتهت بالنســبة إليّ، وأنها لن تكون - إلى الأبد - موضوعا للبحث.

أندريه : (متواضعا وسعيدا) عفوا.

ميريي : حين يعرف المرء ما عرفتُه... وحين يأمل تلك السعادة...

أندريه : (بصوت خافت) أنا أعلم.

ميريي : (في حماســة) أنت لا تعرف... ما من إنســان واحد في هذا العالم - أتسمعني - لا يبدو تافها، حقيرا... وهذا الفتى الذي تتحــدث عنه، والــذي هو أفضل كثيرا مما يتـــ... (تحتد من جديد) ثم، بأيِّ حق توجّه إليّ هذا السؤال؟ من الذي سمح لك بأن تســتجوبني؟ (تذهب إلى المدفأة، وتستند إليها بمرفقيها، وقد وضعت رأسها بين يديها، وأدارت ظهرها لأندريه)

أندريه : (مقتربا) إني أتعذّب... وما أعانيه ليس خليقا بالاحتقار.. إن من تبكينه، كان صديقــي... وكنتُ معجبا به. وحدادك عليه هــو حدادي أنا أيضا.. (بصــوت خافت) أنا لا أغار منه.. ولكن فكرة أن شخصا آخر... هذا ما لا أحتمله، هذا ما لا أحتمله!

ميريي : (تســتدير نصـف اســتدارة إليه، وتخـاطبه بقسـوة) هـذا الـ «شــانتاي» خاض غمار القتال، وجُــرِح مرتين... (يلقي عليها أندريه نظــرة مفعمةً بالعتــاب ويبتعد، وقد اهتزت كتفاه بنـــوع من الرِعّدة) إن ما ســأقوله غاية في العنف.. فمعذرة.. ولكن إذا كنت تحس الجو الذي أعيش فيه هنا.. ثمة لحظات يبدو لي فيها أنني أختنق.

أندريه : كيف؟ ومع ذلك فكل الناس يحبونكِ هنا، كل الناس قد تبنَّوك.

ميريي : (مستغرقة في التفكير) أجل.

أندريه : وخالتي لا تستطيع الاستغناء عنك..

ميريي : وأنا أيضا لا أستطيع أن أكون في غنى عنها.

أندريه : إذن؟

ميريي : عندما نكون لازمين للآخرين على هذا النحو.. لست أدري، لا نكون بعد أحرارا... إننا لا.. إننا لا نتنفس بعد (في فزع) آه! مــاذا قلت؟ كلا، ليس الأمر على هذا النحو، ليس الأمر على هذا النحو... إنك لا تفهم..

المنظر الحادي عشر

الشخصان أنفسهما، وآلين

(آلين تقف لحظة على العتبة، وتنظر إليها)

ميريي : (مقبلــة عليها) ألا ينبغي أن نذهب معــا إلى الأم نويل، يا ماما؟

آلين : يجب أن يُحْضِروا إلى هنا الكَرَز الذي وعدتُها به.
(صمت)

أندريه : وفضلا عن ذلــك، الوقت متأخر، ولا بــد أن أترككم، كما أوصاني الطبيب ألا أسرع في المشي.

آلين : أجل، بالطبع.

أندريه : (إلى ميريي) ألــن تأتي لرؤية والدتي في يوم من الأيام، يا ميريي؟

ميريي : ولكن، بلى... بكل تأكيد.

أندريه : ألا يمكن أن نتفق على موعد؟

ميريي : (مسدِّدة عينيها إلى آلين) ربما.

آلين : يا عزيزتي، عليك أنت أن تقرري بنفسك.

ميريي : قل لها إنني سأكتب إليها.

أندريه : لا تتأخري كثيرا... (مخاطبا آلين) إلى اللقاء، يا خالتي.

المنظر الثاني عشر

ميريي، وآلين

آلين : لماذا كانت هيئته حزينة عندما دخلت؟

ميريي : لكن...

آلين : إذا كان الطبيب قد طَمْأنه حقا...

ميريي : ربما كانت لديه هموم أخرى.

آلين : كان دائما شديد الانشغال بصحته، وليس هذا بجريمة، إنه فتى هزيل جــدا... وإن كان يغالي أحيانا في الاحتياطات إلى حد ما. وكان ريمون يمازحه في كثير من الأحيان حول هذا الموضوع.

ميريي : ومع ذلك يمكن أن تكون له موضوعات أخرى... للقلق.
(قالــت ذلك بصوت مرتعش قليلا، مــن دون أن تنظر إلى آلين. صمت)

آلين : مادمتِ قد تمسكتِ يا عزيزتي من تلقاء نفسك، بأن تقولي لي «مامــا» فأنا - كما تعرفين - لم أكن أفكر في ذلك، بل ربما حتى لم أكن أتمناه.

ميريي : وبعد؟

آلين : دعيني أكمل، من فضلك، أؤكد لك أن المســألة خطيرة. إذ ينبغي ألا تكون مجرد كلمة رقيقة، ولكن كاذبة، بل ينبغي أن تكون حقيقة قلبك.

ميريي : إنها الحقيقة.

آلين : ضعي ثقتَك فيّ.

ميريي : (في شــيء من الجدة) ولكنك تعلمين أنني لا أســتطيع أن أفعل شيئا سوى أن أثق بك.. ماداموا قد ماتوا جميعا، ولم يعد لي ســواك... وفضلا عن ذلك، لست من القوة بحيث أحتفظ بأسرار.

آلين : ومــن الذي تحدث عن أســرار؟ غير أن قيــام أي ظل من الالتباس بيننا يُفْســد كل شيء، وهذا ما تشعرين به جيدا. إن الحداد الذي جَمَع بيننا يساوي على الأقل...

ميريي : ولماذا تقولين هذا القول؟

آلين : لن أقول يا صغيرتي إن علاقتنا الحميمة هي علة وجودي، ولكنهــا ما جعلتني أواصــل البقاء. وأعتقــد أنني لم أكن أســتطيع ذلــك بدونها. ولهــذا ينبغي ألا يعرِّضها شــيء للخطر.

ميريي : ولكن، لا وجود لأي خطر.

آلين : مــن الممكن أن يكون ثمة خطر يــا عزيزتي - على العكس - إن لم نأخــذ حذْرنا. (حركة من ميريــي) افهميني، في ســنك لا يستطيع، بل ينبغي ألا يضمن الإنسان نفسه، أنت

تسمعينني، لا ينبغي حدوث ذلك. فالمرء يتغير، هذا فظيع، ولكن الأمر على هذا النحو. فقد ينمو فيك...

ميريي : لا تُكمّلي، فأنا أخمِّن، ولكن، لا جدوى من هذا وكفى، بل... أخيرا، تذكرين جيدا ما قلته لك حين كنا هناك، عندما أطلعونا على تلك الحقول الخراب، على تلك السفوح التي لن ينبت فيها شيء أبدا.. (بصوت مختنق) أما أنا فسيان عندي.

آلين : من الخطر توكيد ذلك، بل ربما كان على قليل من.. التصنع.

ميريي : أنت تجرحينني.

آلين : (في رفق) لست شجاعة جدا. (حركة من ميريي) وعلى كل حال، هناك التزام في وسعي أن أتعهد به نحوك: أيا كانت الأسرار التي يمكن أن تُفْضي بها إليّ، أؤكد لك أنها لن تغير شيئا من...

ميريي : (في عنف) أتعتقدين ذلك، ولكنك تخدعين نفسك.. ليس في وسعك أن تتحمليها، وكيف يمكن ذلك؟ ولا أنا أيضا، لا أستطيع...

آلين : الثقة – كما أتصورها – لا يمكن إلا أن تكون مطلقة وحين أعطيها، لا أستردها... وإذا قررتِ أن تَصْنَعي حياتك من جديد، ففي جوهرها، ستكون داخل النظام...

ميريي : ماما!

آلين : لا يمكن أن يكون ذلك مع شخص حقير الشأن.. كلا.. بعد كل ما حدث... أعلم أن هناك حدا أخلاقيا أدنى ليس في وسعك أن تَبلُغيه. لن يكون مستمتعا بالحياة – إن صح هذا التعبير – لا أدري، مثل ذلك الـ «شانتاي» الذي لن يستطيع أبدا...

ميريي : (في لهجة غير متميزة) ولماذا شانتاي؟

المشهد الثالث عشر

الشخصان أنفسهما، وأوكتاف، وإيفون

(الأخيران يدخلان من باب الحديقة، أوكتاف يحمل على ظهره الصغير جاك الذي يخبط بيديه وهو يطلق صيحاته)

أوكتاف : (متهيئا لإنزال الطفل) هنا، يا عزيزي، هذا يكفي.

الصغير جاك : مرةً أخرى، يا جدي، مرة أخرى!

أوكتاف : دورةً أخرى حول حوض الزهور؟ واحدة فقط، هيًّا...

آلين : إذا أصبح هذا الطفل شيئا لا يطاق، فستكون غلطتك بالتأكيد.

إيفون : من حسن الحظ أنك موجودة لكي تُحْدِثي التوازن!

أوكتاف : (واضعا الصغير على الأرض) فلتكن هذه الدورة غدا.

ميريي : (ذاهبةً إلى الطفل) صباح الخير، يا جاكو! (تلاطفه، ثم حين تشعر بنظرة آلين وفكرها مركّزيْن عليها، تبتعد فجأة. تحدِّث إيفون) يبدو أنه قد غطس من فوره في الماء مرة أخرى؟

إيفون : كما قلت ذلك منذ لحظة، مادامو لم يقرروا تفريغ البِركة...

أوكتاف : (إلى إيفون) إذن، فسأطلعك على هذا.

(يخرج من اليمين)

إيفون : ولما كان من المبادئ المتبعة ألا مساس بشيء هنا..

آلين : أَكْملي.

إيفون : إني أتّخِذُك حَكَما يا ميريي، في نهاية الأمر. يوجد هاهنا أثاث لا ضرورة له، ولكننا نحتاج إليه في المنزل.. أنا لا



أتحدث عن أثاث له قيمة... (يعود أوكتاف في هذه اللحظة وقد علاه شحوب شديد)

أوكتاف : (إلى آلين بصوت خافت) أأنت التي نزعتِ تلك اللوحات؟

آلين : أجل.

(في هذه اللحظة، يقرع راعي الحديقة الباب الزجاجي)

أوكتاف : (يتمالـك نفسـه بصعوبـة) أمـن الممكن أن نعـرف أين وضعتِها؟

آلين : فيما بعد، من فضلك.

أوكتاف : أنت لم تتلفيها على كل حال؟

آلين : كل مـا فعلته هـو أنني وضعتها جانبا. أهـذا هو الكرز يا ألكسـيس؟ كنا فـي انتظارها منذ نصف سـاعة (تتناول السلة) ما هذه الأزهار؟ امسكي، يبدو أنها لك يا ميريي.

(تمد يدها بالأزهار إلى ميريي)

ميريي : كيف؟

آلين : راعي حديقة مسيو شانتاي هو الذي أحضرها.

إيفون : إيه! ولكن، خبرينا، يا ميريي!

أوكتاف : مَن شانتاي؟

ميريي : كنت مـن الحماقة بحيث أُعجبت بتلـك الزهور القرمزية التي يراها المرء من ملعب التنس.

آلين : سأضع قبعتي، الحقي بنا أمام المنزل، من فضلك؟

إيفون : (تأخـذ الطفل من يـده وتخرج مع أمهـا) ماما، ألا توجد وسيلة لكي يتناول الطفل غداءه في الساعة الحادية عشرة والنصف بالضبط؟

(تضيع بقية الكلمات)



المنظر الرابع عشر

ميريي، وأوكتاف

أوكتاف : (يتمالـك نفسـه في عنـاء) زوجتـي قادرة علـى إحراق المجلدات.. (ينتظر احتجاجا لا يأتي على الفور)

ميريي : (التي مازالت تمسـك بالزهور وقد شـرد فكرُها) كلا... كلا... بكل تأكيد.

أوكتاف : أتعتقديـن ذلك؟ (مندفعا) يا صغيرتـي، لو كنت تعرفين.. (يتوقـف) ولكـن، ابقيّ هنـا، مع زهورك سـأقول لهم أن يضعوها في الآنية.

ميريي : (بغتة، وبضرب من الانفعال) كلا، كلا، بل ينبغي رَمْيُها.

* * *



الفصل الثاني

الديكور نفسه. بعد انقضاء عشرة أيام.

المنظر الأول

ميريي، وأوكتاف

(ميريي تهم بالكتابة، وهي ترجع من حين إلى آخر إلى مفكرة مفتوحة أمامها، تنتفض حين تسمع صوت انفتاح الباب القائم على اليسار، ولكنها تلتقط أنفاسها حين ترى أوكتاف)

ميريي : (بصوت خافت نوعا ما) كنت أكتب تلك الخطابات الأربعة من أجلك، ولو أردت أن تراجعها... فربما كان ذلك من المستحسن، أولا، لأن خطي...

أوكتاف : (الذي لم يسمع) هيه؟

ميريي : أقول إنك تحسن صنعا لو أعدت قراءة هذه الخطابات.

أوكتاف : لا جدوى من ذلك على الإطلاق، فأنا واثق بأنها جيدة جدا.

ميريي : كتبت إذن إلى مخزن أمانات «دور»، كما طلبت مني.

أوكتاف : جميل.

ميريي : ولكنني أكاد أكون متأكدة من أنني أوضحت قضية «ديبون»، فلا بد من أن هناك شخصين باسم «ديبون جاستون» في الفرقة الرقم ٨، وواحد منهما لم يَرد اسمه في سجلات المخزن. فلو أنه أتى مباشرة من مخزن الفرقة...

أوكتاف : أنت رائعة يا ميريي. يريحني جدا أنك توليتِ مشكورةً هذه المراسلة.



ميريي : هذا شيء طبيعي لا يستدعي الكلام.

أوكتاف : حـين أكتب فترة طويلة متواصلة، يسـتولي علـيَّ نوع من التشنج هنا. (يشير إلى مقدمة ذراعه) وأنا لا أدري إن كان ذلك من الروماتزم أو من شيء آخر...

ميريي : (شاردة) هذا شيء يبعث على الضجر.

أوكتاف : (يلاحظها) أنت شاحبة...

ميريي : لا شيء.

أوكتاف : وعيناك متعبتان قليلا.

ميريي : لم أنم جيدا هذه الأيام الأخيرة.

أوكتاف : كنت أظن ذلك، سمعتك تمشين في الليلة الماضية. لا داعي لإرهاق نفسك بكتابة هذه الرسائل...

ميريي : كنت في غاية من السعادة لأن لديّ شيئا يشغلني تلك الليلة، وحين لا يأتينا النوم...

أوكتاف : أجـل، أجل... ولكن ليس هذا من العقل في شـيء، ولو أن زوجتي ارتابت في شيء من هذا...

ميريي : لـن تذهب لتخبرها... من المستحسـن انتزاع هذه الأوراق جميعا، فمن الممكن أن تدخل حماتي...

أوكتاف : كنت أعتقد أنك تقولين لها «ماما» في الوقت الحاضر.

ميريي : ولكن حين أتحدث عنها..

أوكتاف : أأنت متضايقة نوعا؟

ميريي : كيف؟

أوكتاف : أن يكون لك هذا السر الصغير إزاءها؟

ميريي : أوثر ألا يكون لديّ ما أخفيه عن أحد، هذا مؤكد مادمت لا أفعل إلا ما هو طبيعي. ولكنها لو علمت بهذا الأمر، فسوف تتألم.

أوكتاف : أتعتقدين أنها ستحقد عليك حينذاك؟



ميريي : (في حيوية) بل كلا. أولا، لأن في هذا شـيئا من الصَّغَار.. ثم إنني في نهاية الأمر حرة التصرف كما يروق لي.

أوكتاف : بالتأكيد.

ميريي : كلا، هـذا مـن أجل مراعـاة صحتهـا.. تألمـتْ بما فيه الكفاية.

أوكتاف : ليست وحدها التي تتعذب هنا.

ميريي : لم أعـرف أحدا له قدرتهـا على العذاب. وحـين أقارنها بالآخرين.. أرى كأنها مُنِحتْ موهبة.

أوكتاف : ألا ينقصها – بصفة خاصة – شـيء مـن الاتزان؟ (حركة من ميريـي) لا أريد أن أقول إنها تتباهـى بالألم، ولكنها بالأحرى كأنما تُشْهِرُه لتحطيمك.

ميريي : إنك تجرحني.

أوكتاف : أنا «أجرحك»؟

ميريي : كل ما يقال ضدها، إنما يقال ضدي أنا.

أوكتاف : ولكن، يا صغيرتي ميريي...

ميريي : أوه! أظن أن إيفون يمكن أن تتحدث مثلك.

أوكتاف : (بلهجة متغيرة) كلا، إيفون... هذا.. هذا لا علاقة له على الإطلاق.. ولكـن، أترين، حين يتذكر المـرء ما كانت عليه زوجتي فـي الماضي... حتى الحرب، لم يحدث قط أننا... ثم حلت التعاسة، وكأنما سمّمتها.. أجل، إنها سم.

ميريي : (في غلظة) ليس مرضا أن يكون الإنسـان شقيا... أتراك تجد المنزل شـديد الكآبة، مثل إيفون؟ (حركة من أوكتاف) ألا تسـير فيـه الحياة بسـرعة كافية؟ أتتمنى شـيئا من الاستجمام؟

أوكتاف : (في حنان) لسـت أنت التي تتحدثين فـي هذه اللحظة يا صغيرتي...



ميريي : (تزداد حماســة) فليكن، أنا، معجبة بذلك، أتسمعني، بكل روحي... ربما كان رهيبا، ولكن، لا وجود لشيء جميل سوى ذلك.. أما الباقي، فتافه.. تافه.

(نشعر بأنها على وشك الانخراط في البكاء)

أوكتاف : (الــذي تأملها بإمعان) لا أحــب أن أراك منفعلة على هذا النحو.

ميريي : ليس ذلك انفعالا، بل هو جوهر ما أعانيه، وإن كانت هناك لحظات يبدو عليّ فيها.. أولا، الأمر غاية في البســاطة.. هذه اللحظات، أمقتها.

أوكتاف : (في وقــار) ولكن، إذا كنــت على هذا النحــو من الاتفاق العميق مع زوجتــي، فلماذا اقترحت عليَّ مســاعدتي في هــذا العمل.. الذي لا ترضى هي عنه؟ أكان ذلك من أجلي فقط؟

ميريي : (خافضة العينين) ينبغي ألا تظن أنني معدومة الشخصية، بل أكرّر عليك، إنني لا أفعل إلا ما أريد.

المنظر الثاني

الشخصان أنفسهما، ومدام فرديه

(مدام فرديه تدخل من الباب الزجاجي)

مدام فرديه : (تخاطب لويز التي قادتها) شكرا، يا لويز... صباح الخير، يا أوكتاف.

أوكتاف : مرحبا، يا مارت!

ميريي : أرجــو المعذرة - يــا خالتي مارت - لأنني لــم أحضر بعد لرؤيتك.. ففي كل يوم يحدث ما يعوقني.



مدام فرديه : (بصوت متهدج) أهلا وسهلا بك دائما.

أوكتاف : اجلســي. (تجلس) كان أندريه يحضر كثيرا في هذه الأيام الأخيرة، وبدا لي أحسن من الشتاء الماضي.

مدام فرديه : (وهــي تكتــم عَبَراتها) أصغــي إليّ، يا صغيرتــي ميريي، ينبغي ألا تضيقــي بي، ولكن عندي كلمــة أريد أن أقولها لأخي.. وقد يستطيع أن يعيدها عليك فيما بعد.. ولكن من الصعب... إنني لا ...

ميريي : هذا شيء طبيعي.

(تخرج في رفق)

المنظر الثالث

مدام فرديه، وأوكتاف

أوكتاف : أهذا بخصوص أندريه؟

مدام فرديه : أجل.

أوكتاف : ألا يتعلق بصحته؟

مدام فرديه : بلى.

أوكتاف : كنت أعتقد أنك مطمئنة تماما.

مدام فرديه : (بصوت لا تلوين فيه) أندريه هالك.

أوكتاف : ماذا تقولين؟

مدام فرديه : (التي لــم تعد تســتطيع مغالبــة دموعها) محكــوم عليه بالموت.

أوكتاف : ما هذا؟ هذا محال، أنت التي...

مدام فرديه : بعد زيارة أندريه، كتب إليّ الطبيب رسالةً تثير القلق يقول فيها إنه لم يســتطع أن يفضي إلى أندريه بالحقيقة كلها. فذهبت إليه، طبعا.



أوكتاف : وقال لك...

مدام فرديه : لم أر في الحال... سوى وجهه في أثناء حديثه إليّ.. لم يكن يبتسم، وكان يتحدث بصوت خفيض، وكأنما...

أوكتاف : ولكن، يا مارتاي المسكينة، هذا كلّه محض خيال.

مدام فرديه : أندريه تحت رحمة حادث يمكن أن يقع غدا... أو خلال ستة أشهر.. أو.. لا يدري أحد، أخيرا، لا يدري أحد...

أوكتاف : ماذا يعني هذا كله؟ ولكننا جميعا تحت رحمة حادث!

مدام فرديه : كلا، لقد شرح لي، هذا عيب في القلب!

أوكتاف : ثم ماذا؟ أنا أيضا عندي عيب في القلب، وخصوصا منذ أن تركتُ الجيش، لاحظته بقسوة. ولكنني لا أظن أنني مت بعد بسبب هذا.

مدام فرديه : (بصوت مرتعش) أصغ إليّ، يا أوكتاف، لا جدوى من هذا الكلام، أكرّر عليك أنه شرح لي، إنه صمام في القلب يمكن أن يتوقف فجأة عن أداء وظيفته، لمجرد إرهاق. أو انفعال أقوى من اللازم..

أوكتاف : ولكن، لماذا إذن لم يلحظه أحد مبكرا؟ ليست هذه أول مرة يستشير فيها.. يا للشيطان! وخلال الحرب، كل تلك الزيارات...

مدام فرديه : أعتقد أن هذا كله قد تفاقم كثيرا خلال الشهور الأخيرة... أوكتاف، إني نادمة الآن لأنه لم يذهب إلى الجبهة كما كان يريد، فحتى لو أنه.. قُتِل في الحال، لكان على الأقل... على الأقل...

(لاتستطيع إتمام جملتها)



المنظر الرابع

الشخصان أنفسهما، وآلين

آلين : ماذا حدث؟

أوكتاف : مارت تحمل لنا... أنباءً سيئة عن أندريه. فالطبيب المختص الذي ذَهَبَتْ لرؤيته أمس.. ليس - باختصار - متفائلا.

آلين : كيف؟ (تذهب إلى مدام فرديه) مارتاي المسكينة، ولكن هذا فظيع. (تعانقها طويلا) إذن، ما هذا الذي شرحه لنا أندريه في ذلك اليوم؟

مدام فرديه : لم يستطيعوا أن يخبروه بالحقيقة، فهذا يمكن أن يقتله...

آلين : (تظل ملتصقة بها) أوه!

مدام فرديه : إنه لا يعرف حتى أنني ذهبت لرؤية الطبيب، وحتى إذا تصادف حضوره، فلا تظهروا له شيئا...

آلين : مارت، تستطيعين الاعتماد علي. يا إلهي! يا للّصغير المسكين!

مدام فرديه : آه، لو كنت أستطيع أن أفكر على الأقل في أنه كان سعيدا! ولكنه لم ينل من الحياة سوى المرارة.. سوى خيبة الآمال.. وليس في وسع إنسان أن يعرف ما عاناه إبّان الحرب.

آلين : (في عذوبة) ولكن لو...

مدام فرديه : كان لديه دائما انطباع بأن الناس يحتقرونه لأنه لم يحارب... وكان يتحاشى أولاد خاله حين يأتون في إجازة.. أوه! إلا ريمون، الذي كان معه دائما غاية في الطيبة!

آلين : (متفكرة) كان ريمون يحبه كثيرا.

مدام فرديه : وكان أندريه يحدثني عنه في كثير من الأحيان.

آلين : صحيح؟



مدام فرديه : تذكري يا آلين.. فترة الشباب التي اجتازها هذا الطفل! لم تَعْبُرْها فرحة واحدة!

آلين : أنت تبالغين.

مدام فرديه : حينما كان أبوه حيا، لم يكن عندي من الوقت ما أهتم فيه بأندريه.. وفضلا عن ذلك ليس في وسعنا أن نفعل شيئا للآخرين.. الإنسان وحيد.

آلين : (بجدية) كلا، يا مارت، ليس الإنسان وحيدا.

مدام فرديه : شكرا! آه! أنت طيبة.. ولا بد أن يكون المرء تعسا مثلي ليقدرك. (حركة من أوكتاف) في لحظة وفاة عزيزي شارل، كان الأمر مماثلا، وإني لأذكر ذلك جيدا.

آلين : أجل، في وقت الشدة يظهر الأصدقاء.

مدام فرديه : أين أوكتاف؟

(كان قد ذهب إلى النافذة، وأخذ ينظر إلى الخارج)

أوكتاف : (من دون أن يستدير) أنا هنا.

آلين : (بصوت مكتوم) الشقاء هو وحده الشيء الحقيقي.

مدام فرديه : يقول أندريه دائما إن لك طبيعةً غاية في العمق. ومن العبث أن أردد عليك هذا القول، ولكنه هو أيضا يشعر على نحو شديد العمق، أحيانا، يفزعني ذلك... وأيا كانت سيطرته على نفسه، فإنه لا يستطيع أن يُخْفي عني ما يعانيه.

آلين : إنكما متحدان اتحادا وثيقا.

أوكتاف : (إلى شخص لا نراه) صباح الخير، صباح الخير.

مدام فرديه : إلى من يقول صباح الخير؟

آلين : (التي تشرئب للنظر) إلى الصغير، إنه يلعب مع ميريي. أما إيفون فقد ذهبت إلى «فيلنوف».

مدام فرديه : ميريي تحب الأطفال حبا جمّا، أليس كذلك؟

آلين : بلى.



مدام فرديه : يا لها من سعادة بالنسبة إليك. أن تكون هنا.. آه! يستطيع المرء أن يقول إن ريمون قد عرف كيف يختار.

آلين : إنه لم يقم بالاختيار.

مدام فرديه : (خافضة صوتها) آلين.. أعتقد أن أندريه يحبها، هو أيضا.

آلين : أندريه!

مدام فرديه : (بحرارة) ينبغي ألا تحقدي عليه. ناضل، ولا يكاد يجرؤ على الاعتراف بذلك لنفسه.

آلين : (في رقة) ولماذا أحقد عليه؟

مدام فرديه : بوسعك أن تفعلي ذلك... إنها عاطفة إنسانية جدا.. وأعتقد أن من الممكن أن أشعر بها لو كنتُ في مكانك.

آلين : لا يستطيع إنسان أن يضع نفسه في مكاني، يا مارت، وفضلا عن ذلك... كلا، أنا لا أشعر بشيء مماثل.. يا للطفل المسكين!

مدام فرديه : شكرا، يا آلين، هذا شيء غاية في الكرم، غاية في.. كنت أخشى أن يفرق ذلك بيننا، فاهمة، ومع ذلك كنت كالمرغمة على قوله لك.

آلين : مرغمة؟

مدام فرديه : لا يستطيع الإنسان معك أن يقول ما يريد، لاحظت ذلك في كثير من الأحيان.

أوكتاف : (الذي مابرح واقفا عند الباب الزجاجي) يا له من رجل صغير مضحك! (يعود صوب المرأتين اللتين تُخلدان إلى الصمت) لماذا سكتما؟

مدام فرديه : آه، لو علمت، يا أوكتاف!

آلين : (في لهجة غريزية) انتبهي.



مدام فرديه : أفضيتُ إلى آلين منذ لحظة.. (إلى آلين) لماذا لا يعرف هو أيضا؟ أندريه... إنه يحب زوجة ابنك.

أوكتاف : (بنوع من الانتفاضة) لماذا تقولين «زوجة ابنك»؟ ميريي ليست زوجة ابني.

مدام فرديه : ولكن كلا... بل إنها في حقيقة الأمر ابنتك.. (صمت) إنه يحبها بما في وسعه، بكل قلبه، في ضرب من إنكار الذات...

أوكتاف : (في جفوة) أتجدين من المستحسن إفشاء سر هذا الابن التعس؟

مدام فرديه : ماذا تقصد؟

أوكتاف : في مثل هذه اللحظة، حين تعلمين... أو على الأقل حين تتخيّلين.. لا أخفي عليك أن هذا يثيرني.

مدام فرديه : أوكتاف!

آلين : نحن لسنا غرباء!

أوكتاف : هذا هو أخطر ما في الأمر!

آلين : وفضلا عن ذلك، كنت أشك في هذا.

أوكتاف : فلنغير هذا الموضوع، أرجوك؟

مدام فرديه : كأنك شخص آخر لا أستطيع التعرف عليه.

أوكتاف : (إلى مدام فرديه) على كل حال، إذا كان من الحق أن مخاوفنا.. أجل، فلنقل إن لها أساسا.. فإنك لا تقدِّرين ما يمكن أن تنطوي عليه مثل هذه العاطفة من سخرية، ومن شجن؟

آلين : ربما كانت - على العكس من ذلك - خَلاصا لأندريه المسكين.

مدام فرديه : خَلاصا؟

آلين : هذا الحب، يستطيع أن يلوِّن، يستطيع أن يحوِّل...

أوكتاف : أو قد يكون خاليا من المعنى، أو بشعا. أنا لا أسمح لك بأن تجعلي بريق الأمل يلمع أمام عينيّ مارت..



مدام فرديه : آلين، أتعتقدين حقا أنه من الممكن...

آلين : أي أمل؟ كلا، كلا، إنك لا تفهم... فليس من حقي أن أفترض.. ولكن، بالنسبة إلى إنسان مثل أندريه، فإن عاطفة على هذا العمق تحمل معها ما يشبه العزاء.

مدام فرديه : أخشى أن تكوني مخدوعة...

أوكتاف : ليس هذا ما تعنيه بقولها، إنها تتراجع.

مدام فرديه : عندما عاد من زيارتكم، لم يستطع أن يأكل شيئا. ولم يفتح فمه بكلمة، وكأنما أصابته الحمى، وعانى ضروبا من الأرق.

أوكتاف : (إلى آلين) حاولتِ منذ لحظة أن توحي بأن ميريي يمكن على سبيل الشفقة أو على سبيل... أرجو معذرتك يا مارت، ولكن، هذه مسألة خطيرة جدا، وينبغي ألا يحدث بيننا أي سوء تفاهم...

مدام فرديه : (وقد اختلج وجهها) ولكن، يا أوكتاف...

أوكتاف : أنت يا مارتاي المسكينة امرأة شجاعة، ولا تشكين في أن... أجل.. أستطيع أن أسمي ذلك عذابا.. فيما يمكن أن يصنعه بإنسانة مثل آلين...

مدام فرديه : يا إلهي!

آلين : (بابتسامة) دعها...

أوكتاف : أما أنا، فإنني لحسن الحظ، أرى بوضوح، من أجل الصغير... وأنا...

مدام فرديه : أريد الانصراف... آلين رافقيني حتى العربة.

آلين : (إلى أوكتاف في صوت مكتوم) إذن فأنت تتصور... أيها البائس!

(تخرج مع مدام فرديه)



المنظر الخامس

أوكتاف، وميريي

(يثوب أوكتاف إلى هدوئه رويدا رويدا، ثم يذهب إلى الباب الزجاجي، وينادي)

أوكتاف : ميريي!

ميريي : (داخلةً) ماذا هناك، يا أبتي؟

أوكتاف : تعالي معي يا صغيرتي. ينبغي أن تتحدثي إليَّ أخيرا بقلب مفتوح. فلنبتعد عن هنا، يمكن أن تدخل زوجتي بين لحظة وأخرى.

ميريي : كلا، بالتأكيد، فهذه الأسرار...

أوكتاف : ولكن هذا من أجلك يا ميريي، لأنني أخشى...

ميريي : ماذا؟

أوكتاف : أعتقد أنني لاحظت.. ثم، إني أعلم أخيرا أنك تحادثت صباح أمس الأول مع ذلك الـ «شانتاي» على انفراد.

ميريي : تبادلنا الكرَات في ملعب التنس.

أوكتاف : رأتك إيفون.

ميريي : وبعد؟

أوكتاف : لو حدث على سبيل المصادفة.. من المؤكد أنك تعجبينه، تلك الزهور التي أرسلها إليك، الطريقة التي تحدث بها عنك عند آل «موريل»... لا سبيل إلى الشك في ذلك، حسن، إذا كان الأمر من جانبك... يا صغيرتي، فينبغي ألا يمنعك أيُّ وسواس.. الفكرة، أنه لن يكون – على قدر علمي – محببا بالنسبة إلينا: أنا... وزوجتي. (حركة من ميريي) شاءت الظروف أن ندعوك إلى العيش هنا كأنك ابنتنا، ولكن، ليس هذا سببا يدعوك إلى ألا تحتفظي بكامل حريتك. أقول هذا كله بطريقة سيئة جدا، لأن...



ميريي : (في خشونة) أنت تقول ما قلته ضدها. إن حريتي، لا يهددها أحد هنا، وليس عليك أن تدافع عنها. وذلك الفتى الذي تتحدث عنه والذي كانت عشيقته لاتزال في هذه الضواحي منذ بضعة أسابيع...

أوكتاف : من تحدث إليك عن هذه المرأة؟

ميريي : علمتُ ذلك.. عَرَضا.

أوكتاف : أما أنا، فقد أكّدوا لي أنه قطع صلته بها منذ نحو سنة.. أنتِ لم تعودي طفلة، يا ميريي، وتعلمين جيدا أن الرجال حين يتزوجون... وعلى قَدْر علمي، لا مأخذ على «روبير شانتاي»...

ميريي : هل تقصيت الأمر؟

أوكتاف : إني تحريت الموضوع.

ميريي : بأي دافع؟ وما الجانب الذي تدافع عنه؟ اعترف إذن بأنك تفعل ذلك ضدها، ومن أجل الإساءة إليها... آه! يا لها من لُعْبة بشعة!

أوكتاف : هذا لأنني أريد سعادتك.

ميريي : أتعرف إذن نوع السعادة التي أقدر على احتمالها؟

أوكتاف : هذا ليس من تعبيراتك.

ميريي : إنك تعذبني، إنك تـ... آه! ليتني أستطيع الرحيل!

أوكتاف : الرحيل؟

ميريي : ولكن، لن أجد لديّ القوة على ذلك.

المنظر السادس

الشخصان أنفسهما، وآلين، وأندريه

أندريه : (داخلا مع آلين) لم تقل لي ماما إنها حضرت لزيارتكم...

آلين : لقد دخلت في أثناء مرورها على المنزل.

أوكتاف : أهذا أنت؟ صباح الخير.

ميريي : صباح الخير، يا أندريه.

أوكتاف : كيف حالك؟

أندريه : أكان لدى أمي شيء خاص تود أن تقوله لكم؟

أوكتاف : ولكن... كلا...

(حركة من ميريي)

أندريه : ربما كان شيئا تطلبه منكم؟... إنها تخبرني دائما بالمكان الذي تذهب إليه، ولهذا دهشت، كما أن هيئتها منذ لحظة...

آلين : (بسرعة شديدة) لقد أصابها صداع.

أندريه : هذا شيء لا يحدث لها كثيرا.. هل رأيت أمي، يا ميريي؟

ميريي : (في شيء من الارتباك) أجل... كلا... لحظة واحدة فقط.

أندريه : ولماذا لحظة واحدة فقط.

ميريي : (مترددة) أنا.. لأن إيفون في «فيلنوف»، وكان عليَّ أن أهتم بالطفل بعد الظهر.

أندريه : يبدو عليكم الارتباك، أنتم الثلاثة؟

ميريي : الارتباك؟

آلين : أنت مضحك، يا أندريه!

أوكتاف : يا لها من فكرة!

أندريه : (ذاهبا إلى آلين، وبصوت هامس) لو عَرَفْت ماما بأمرها.. ما كان يجب أن تفعل ذلك...

آلين : (مشيرة إلى ميريي) هيا، يا أندريه.

ميريي : ماذا تقول؟

أندريه : (إلى آلين) إنها تعرف بمن تتمسك.

أوكتاف : يا صغيري، احترس.

أندريه : لا أريد أن نعتقد... وخصوصا الآن بعد أن ذهب، أن لدي نصيبا كبيرا من الشجاعة.

ميريي : (بنبرة ضارعة) أندريه، أرجوك...

أندريه : (إلى أوكتاف وإلى آلين) أليس كذلك؟ لقد خمنت.. هذا هو ما أتت أمي تتحدث عنه. وهيئتها حين انصرفت! رباه! ولكني أقسم لكما... إنها فكرة طَرَدْتُها مرةً واحدة وإلى الأبد... (إلى ميريي) أنت لا تصدقينني، وتتصورين أنها تحدثت بإيعاز مني.. والقليل الذي حصلتُ عليه، سيُسْحَبُ مني. آه! لماذا فَعَلَتْ ذلك؟ لماذا؟

ميريي : (ذاهبة إليه) أندريه، أنا، لم أكن أعلم...

أوكتاف : إن ما قُلْتَه لا ينطوي على كلمة واحدة من الحقيقة...

آلين : (إلى أوكتاف) ولمَ الإنكار؟

ميريي : (إلى أندريه) ولكني أعدك بأن شيئا لن يتغير... وأنني، أولا واثقة بأنك تقول الحقيقة.

أندريه : (سعيدا) إنني قليل المطالب... حين عرفتُ أنه سيغادر البلاد.

أوكتاف : عمن تحدث؟

ميريي : أندريه!

أندريه : اغفري لي إن كان لديَّ خوف. من ذلك.

ميريي : (متألمة وبصوت خافت) أنت تفتقر إلى الحياء (يحاول أندريه أن يأخذ بيدها.) كلا، كلا، دعني!

أوكتاف : من الذي سيرحل؟ أهو «شانتاي»، على سبيل المصادفة؟

أندريه : أجل.

أوكتاف : ولماذا يرحل؟ (أندريه ينظر إلى ميريي التي خفضت عينيها) وماذا يعنيك من هذا؟ أجب، من فضلك.

آلين : ولكن، يا أوكتاف...

أوكتاف : أوه! أنت...

أندريه : (يتحسس جبينه بيديه) لست أدري لماذا تركت نفسي تمضي على هذا النحو. ليس هذا جديرا برجل، هذا...

(يترنح)

ميريي : ماذا أصابك؟

أندريه : لا شيء، سيزول حالا..

آلين : لا يمكن أن نتركه يرحل وهو في هذه الحالة.

أندريه : سأذهب لأستريح لحظة في آخر الحديقة.

آلين : أتريد أن نذهب لنُجْلِسك؟

أندريه : كلا، شكرا.

(يخرج)

المنظر السابع

أوكتاف، وآلين، وميريي

أوكتاف : (إلى ميريي) أصغي إليّ الآن يا ميريي، إننا لم نخبره بالحقيقة، وأختي لم تفكر قط في... كلا، لقد أنبأتْنا من فورها بأن الولد المسكين مصاب بداء قاتل.

ميريي : (مأخوذة) آه!

أوكتاف : وأظن أن زوجتي رأت من المستحسن - حتى لا تثير قلقه - أن تتركه يعتقد... (إلى آلين) لقد كنت مخطئة، على كل حال، فلم تكن ثمة حاجة إلى تقديم تفسير له، كما أنك جعلته نَهْبا للحيرة.

ميريي : (بعمق) وهكذا، فإنه لضائع؟

أوكتاف : هذا على الأقل ما تعتقد أمه أنها فهمتْه، ولكن ينبغي القول بأنها تضع الأشياء دائما فى أسوأ موضع.

آلين : (في رزانة) أما هذه المرة فأخشى أن تكون على حق.

أوكتاف : ومن أدراكِ؟

ميريي : وهو يتخيل... هذا مخيف!

أوكتاف : وهو في غاية من السعادة، لأنهم استطاعوا إبقاءه حتى هذه اللحظة في ذلك الوهم. فلو أنه أحس بهذا الخطر مُعلَّقا فوق رأسه...

ميريي : أجل، ولكن خداع النفس على هذا النحو، فيه إذلال، إنه يُنْقص من قَدْر الإنسان، وأنا، لو حدث لي شيء كهذا...

أوكتاف : لست أدري إن كان أندريه يملك نفسا صلبة بحيث يمكن أن تحتمل الحقيقة، الواقع، أنني أشك في ذلك.

آلين : (محتدة) أتجد من الكرم الحط من قيمته في مثل هذه اللحظة؟

أوكتاف : أنا لا أحط منه، بل أراه كما هو.

ميريي : أيستطيع قليل من الشفقة...

أوكتاف : عندي من الشفقة حظ وفير، كل ما في الأمر، أنها يمكن أن تأخذنا بعيدا (يتنبه إلى أنه قد نطق كلمة خطرة، فيسارع إلى الحديث عن موضوع آخر) أتعرفين أن هذا الـ «شانتاي» قد غادر البلاد؟

ميريي : (في ارتباك) كلا.



آلين : كيف تريد أن تعرف ميريي؟

أوكتاف : ألم يقل لك شيئا عن هذه الخطة، ذلك الصباح؟

آلين : (إلى ميريي) إذن تحادثتما معا، في هذه الأيام الأخيرة؟

ميريي : (بصوت خافت) لعبنا التنس صباح أمس الأول.

آلين : لم تقصّي عليّ شيئا من هذا.

ميريي : (مازالت مرتبكة) لم يخطر حتى على بالي.. وفضلا عن ذلك، أنت تعلمين جيدا أنه يأتي كل يوم إلى ملعب التنس.

أوكتاف : هذا الرحيل المفاجئ غير مفهوم. قال للناس جميعا إنه ينوي الاستقرار هنا.

ميريي : (في جهد) ربما كان رحيله لبضعة أيام.

أوكتاف : يبدو على أندريه أنه يعتقد...

ميريي : (في صوت غير متميز) ماذا يعرف عن ذلك؟

(تكون آلين قد جلست إلى المائدة، وفتحت كتابا لا تقرؤه. ينظر إليها أوكتاف. ويتعرف على وجهها تعبيرا مألوفا لديه)

أوكتاف : سأذهب بنفسي لأرى ما صار إليه أندريه.

(يخرج)

المنظر الثامن

ميريي، وآلين

(تظل ميريي حائرة في أول الأمر، ثم لا تلبث أن تقترب من آلين وكأنها مدفوعة بقوة خفية)

ميريي : ماما.. (آلين لا تجيب) ماذا تقرئين؟

آلين : لا أعرف؟



ميريي : كيف لا تعرفين؟

آلين : (واضعةً الكتاب) كلا (صمت) هذا أول حزن حقيقي تسببينه لي.

ميريي : أنا؟

آلين : (بصوت مرتجف) ولم أكن أعتقد أنك قادرة على هذا... (لا تتم جملتها)

ميريي : أكملي.

آلين : لا أهمية للكلمة.. ولا يقتصر الأمر على أنك أخفيت عني بعناية تلك المحادثة... ولكن لهجتك منذ لحظة، وتعبير وجهك حين قلت.. ولا شيء غير هذه الجملة: «لقد لعبنا التنس صباح أمس الأول».. في هذه الجملة حَاوَلتِ أن تخدعيني.

ميريي : ليس عندي حساب أؤديه لك، يا ماما.

آلين : لا تستخدمي هذه الكلمة، إنها استهزاء.

ميريي : إذا كانت لديّ أسبابي لالتزام الصمت حول مثل تلك المحادثة...

آلين : كان ينبغي أن تقولي بأمانة إنه لم يكن في وسعك أن تقصّي عليّ شيئا.

ميريي : وهل كنت توافقين على ذلك؟

آلين : من دون صعوبة.

ميريي : لست من السيطرة على نفسي بحيث أتوقف في منتصف الطريق الخاص بإفضاء الأسرار.

آلين : (في رفق) من الأيسر أن يكذب المرء.

ميريي : إنك تهينينني!

آلين : ربما كان هذا هو الحزن الوحيد الذي أجد نفسي في حالة الشعور به.



ميريي : (مشـــتعلة) أريد أن أكون حرة في تصرفاتي، ومجرد فكرة أي... قهر...

آلين : ومن الذي يتحدث عن القهر؟

ميريي : لـــن أوافق أبدا على أن أكون عبدة لأحد، كلا، كلا لن أكون عبدة لأحد على الإطـــلاق... ولو كنت قد صارحتُك بأنني رفضت أن أكون زوجته...

آلين : هل طلبك؟

ميريي : ورحـــل، لأنني قلـــت «لا»... فلو حكيت لـــك، لبدا لي أنني رفضت لأنال رضاك، وهذه فكرة لا أحتملها..

آلين : يا صغيرتي...

ميريي : كان من الطبيعي جدا ألا أقول شيئا عن هذا الموضوع، ولن تكونـــي امرأة إن لم تفهمي ذلك ولكن، لســـت أدري، كأنك تفتقرين إلى حاسة من الحواس! أوه! لقد لاحظت ذلك في كثير من الأحيان، ثم... أتسمعين، إنني أريد أن أكون حرة، وســـأحتقر نفســـي إن لم أكن كذلك.. أولا، الأمر غاية في البساطة، لأنني لن أكون عندئذ شيئا، وأنتِ سأبغضك أنتِ أيضـــا. وحين تراودني هذه الأفكار، أود لو رحلت بلا عودة إلى الأبد.

(حركة من آلين. صمت)

آلين : لم تكوني تبدين مكتئبة قليلا هذه الأيام الأخيرة.

ميريي : أتلاحظيننا إلى هذا الحد!

لين : تصوري أنني كنت على وشـــك أن أتساءل عما إذا كان هذا الرجل...

ميريي : لا أستطيع أن أحتمل وضوح رؤيتك كل هذا الوضوح.

آلين : ولكن كلا، لقد أخطأت، على العكس، مادمت قد خشـــيت لحظة ألا يكون غير مكترث بك تماما.



ميريي : الواقع، أنهـــا كانت حماقة، وهذا يجرحنـــي... (تحتد من جديد) ولكن، لماذا الخوف؟ فعلى فرض المســـتحيل أنني.. أجل، حتى لو أنني أحببته...

آلين : على قدر ما أعرف، أعتقد أنه كان يصبح تعاسة.

ميريي : ماذا تعرفين إذن؟

آلين : ولحسن الحظ، أمكن تجنب هذه التعاسة.. إنه لا يعجبك، مادمت قد رفضتِه.

(تأتي ميريي بحركات عصبية، وكأنها تتخلص من شـــبكة غير مرئية)

ميريي : أنت تفهمين.. لو قلت نعم، لما استطعت أن أحتمل أي علامة على الاستتكار.

آلين : كنت سأبذل أقصى جهدي حتى لا أدعك تلمحين حزني.

ميريي : لست أدري إن كنت تنجحين في ذلك. أنت أقل سيطرة على نفسك مما تظنين. فلو أنني عقدت عزمي، وحاولت أنت أن تثنيني عن تنفيذه، لما غفرت لك ذلك.

آلين : أنت تعذِّبين نفسك بلا طائل، يا صغيرتي، مادام لم يحدث شيء من هذا كله.

ميريي : (بصوت خافت) إنها أفكار تجعلني شبه مجنونة.

(صمت)

آلين : انظري كم كنت على صواب منذ بضعة أيام، عندما توسلت إليك أن تضعي ثقتك فيّ.

ميريي : لم تكن هذه غير كلمات لا يمكن أن تفيد شيئا.

آلين : ولكـــن ثمة نتيجة أعتقد أنه يجب اســـتخلاصها من كل ما قلته الآن... إن الحياة هنا بدأت تَثْقُل عليك.

ميريي : ولكـــن كلا، بل إن هذا اللوم الجائر هو الذي حيّرني، أجل، الجائر... ثم هناك أيضا تلك المسألة البشعة.



آلين : بخصوص أندريه؟

ميريي : أجل. (صمت) أتعرفين أنه كان يحبني؟

آلين : كنت أشك في ذلك.

ميريي : يا للولد المسكين! ولكن لماذا بدا منذ لحظة مبتئسا على هذا النحو؟ وما كان ينبغي أن يفعل هذا أمامك أبدا.

آلين : إنه يعتقد أن والدته قد أحاطتنا علما بعواطفه نحوك.

ميريي : حتى لو...

آلين : ثم إني أعتقد مخلصةً أنه ليس تافها.. ربما كانت كل تلك الإذلالات التي كابدها في أثناء الحرب.

ميريي : كان ينبغي أن تثير غروره.

آلين : كلا، إنه كان يخجل من أنه لم يقاتل.

ميريي : كان في إمكانه أن يرحل... لو أراد؟

آلين : كان عمك يقول لي في كثير من الأحيان إنه كان ينبغي إجلاؤه في ظرف أربع وعشرين ساعة..

ميريي : (متفكرة) هذا حق بكل تأكيد... ومع ذلك، هذا الابتئاس عند رجل..

آلين : عندما يكون مخلصا...

ميريي : لا أشك في أنك تحسنين به الرأي. (حركة تملص من آلين) الواقع أن الخالة مارت لم تلمّح أي تلميح إلى...

آلين : صارحتني فقط بأن أندريه يشعر نحوك...

ميريي : (مرتجفة) لماذا قالت لك ذلك؟

آلين : أعتقد أنها لم تكن ترمي إلى غاية محددة، لا بد أن ذلك لمجرد حاجتها إلى المكاشفة.

ميريي : وفضلا عن ذلك، كيف يمكنها أن تفكر جِديا؟.. أليس كذلك؟

آلين : نعم. (تتفحصها ميريي في قلق) هذا واضح.



ميريي : (في حدة) آه! هذا فظيع!

آلين : ماذا تعنين؟

ميريي : لا أستطيع أن أعرف فيمَ تفكرين.

آلين : ومع ذلك، مادمتُ على هذا القَدْر من قلة السيطرة على نفسي...

ميريي : (في مرارة) بل إنك مسيطرة على نفسك أكثر من اللازم...

آلين : ثم، ما هي الفكرة المفترضة التي تريدين أن تكون عندي؟ تسألينني عما إذا كانت شقيقة زوجي تستطيع أن تواجه فكرة أن... (حركة من ميريي) أنا أجيبك بأنني لا أعتقد ذلك.

ميريي : ولكن أنت، أنت...

آلين : يا عزيزتي، أنا لا أفهم إلامَ ترمي أسئلتك. أينبغي أن أستشف ما في نفسك؟

ميريي : (في عنف) إذن، فأنت تتخيلين أنني فكرتُ في ارتكاب جريمة الانتحار هذه؟ إني أُصِر على هذه الكلمة انتحار. ألا يفزعك هذا؟ وتوافقين في هدوء على أن في استطاعتي الزواج من هذا المحتضر... الذي لا أشعر نحوه إلا بقليل من الشفقة، وربما بشيء من الاحتقار أيضا؟

آلين : أنت تؤلفين أشياء، في هذه اللحظة.

ميريي : كيف أؤلف أنا؟

آلين : ليس لي أن أوافق أو لا أوافق. إنك لم تطلبي رأيي. وفضلا عن ذلك، من الواضح أشد الوضوح أنني لا أريد أن أؤثر فيك بأي ثمن.

ميريي : (بصوت مكتوم) هذا شيء مفروغ منه.

آلين : كان في استطاعتي على أكثر تقدير، محاولة إفهامك نفسَك.



ميريي : (بصوت أكثر ارتفاعا) شكرا...

آلين : ومن الممكن أن تخطئي إلى حد ما في التعبير عن عواطفك الشخصية حين قلت إنك لا تشعرين نحو أندريه...

ميريي : إذن، فأنت تزعمين أنك تعرفينني خيرا مما أعرف نفسي؟

آلين : جائز.

ميريي : (بحرارة) آه! لو كان والداي مازالا في هذا العالم، لما سمحا بشيء من هذا، ولدافعا عني ضد نفسي.

آلين : ضد نفسك، هذا إذن...

ميريي : لاهتمامهما بسعادتي، هما الاثنين! هيه!

آلين : (متألمة) ميريي!

ميريي : عفوا، ولكنك أنت، أنت إنسانة السعادة بالنسبة إليها.. هذا شيء لا أهمية له. أوه! أعتقد أنني لن أستطيع بعدُ أن أذوق لها طعما إلى الأبد. ولكن، ليتني كنت مخطئة، أتفهمين، ليتني كنت مخطئة!

(صمت)

آلين : ثمة شيء مؤكد، لو أن هذا الزواج.. (حركة من ميريي) يقع منك موقع الانتحار، فلا ينبغي التعرض له على الإطلاق.

ميريي : وكيف تريدين أن أعرف؟

آلين : حين رأيت أنك أوقفت فكرك – وإن لم يكن ذلك غير لحظة واحدة – عند هذه الفكرة قلت لنفسي: ربما كانت الحقيقة تكمن هنا في واقع الأمر.

ميريي : أنت تدبرين للآخرين، وتفكرين مكانهم.

آلين : كان يخيل إليّ أنه بالنسبة إلى نفسٍ كنفسك، نفسٍ أَنْضَجَهَا الألم...

ميريي : أتسمين ذلك نضجا؟

آلين : إن السعادة لا يمكن أن تكون سوى اسم آخر لـ... نعم،



فلنقل للتضحية... (صمت) ربما كنتُ مخطئة... (بصوت خافت) أنت شابة...

ميريي : هذا الإحساس عندي أنا أيضا... كل ما في الأمر أنني أريد أن أكون متأكدة من أنه أكثر.. لست أدري، أنا، من مجرد أمنية.

آلين : تشكّين في نفسك... الحياة هي العطاء، وأنت تعلمين ذلك جيدا.

ميريي : أأنا جديرة بتوكيد ذلك؟... أجل، يخطر هذا على بالي أحيانا، ولكن، لو أن ذلك لم يكن سوى ضرب من الحماس الكاذب لا يلبث أن يزول، ثم... أمِن حقّي ذلك؟... (في رعشة) ربما لو لم أكن أعرف إلا.. قد يكون الأمر قصيرا... هذه الفكرة ربما لم تكن لتخطر لي. ولكن، فكّري إذن في هذه الخيانة. الاستغناء عن حل الأزمة... من يدري؟ أن يَنْفَد صبري لو تأخر، يا للبشاعة!

آلين : (تضمها إلى صدرها) ولكن هذه كلها أشباح، هذه الأفكار التي تراودك.. وستبدّدُها الحياة.

ميريي : الحياة!... لو كنتُ متأكدة – على الأقل – من أن هذه الفكرة هي حقا جزء من نفسي.. أجل، وأنني في النهاية جديرة بها...

آلين : (بصوت هامس) لم أكن أعرف أنك على هذه الدرجة من العمق...

(تبتعد عنها ميريي فجأة)

ميريي : لعلها عدوى.

(صمت)

المنظر التاسع

الشخصان أنفسهما، وأوكتاف

أوكتاف : (داخلا) أندريه يشعر بتحسن، وهو يريد الانصراف. ولكن لا أدري من الفطنة أن أتركه يعود سائرا على قدميه... هل السيارة موجودة؟

آلين : أنت تعرف جيدا أن إيفون قد أخذتها للذهاب إلى فيلنوف.

ميريي : وفضلا عن ذلك،. عندي كلمة أريد أن أقولها لأندريه، قبل أن يذهب

(تخرج)

أوكتاف : ما هذا كله؟... أطالب بتفسير. ماذا جرى بينكما؟ أمن قبيل المصادفة؟ يا للشيطان، إن له من الصحة النفسية ومن الحسم السليم ما يفوق الحد... يا آلين!

آلين : ليس من حقي أن أجيبك، فليس هذا سِرّي أنا.

أوكتاف : هاأنذا مُثَبّت في مكاني، ولكنني لن أسمح بهذا، آه! كلا، على كل حال.

(يهم بالخروج)

آلين : (في هدوء تام) احذر.

أوكتاف : ما معنى هذا!

آلين : لا يبدو أن لديك أقل فكرة كم تغار ميريي على استقلالها.

أوكتاف : وبعد؟

آلين : من الممكن أن تكفي كلمة طائشة تصدر عنك للتعجيل بالحدث الذي تخشاه.

أوكتاف : ألم تَعْقِد عزمها بعد؟

آلين : لست أدري شيئا.

أوكتاف : هذه مناورة لمنعي من الحديث إليها.

آلين : مناورة!.. ولكن، من تظنني في النهاية؟

أوكتاف : لن أتركك تفعلين ذلك.

آلين : وهكذا، تدعي؟

أوكتاف : لقد استعبدتِها.. أجل، استأنستها.

آلين : آه لو سمعتك!

أوكتاف : إنها تحس بذلك إحساسا غامضا.. وسأتكفل بتنويرها.

آلين : أشك في أنها ستعترف بجميلك عن هذه التنويرات، فضلا عن.. أن هذا زائف. فما من شخص يحترم حرية الآخرين أكثر مني.

أوكتاف : هذه، ثالثة الأثافي!.. كلا، ولكن أتقولين ذلك على محمل الجد؟

آلين : أتعرف أنك تصرخ؟

أوكتاف : سيان عندي... إذا اعتقدتِ أني لا أرى لعبتك بوضوح.

آلين : أوكتاف!

أوكتاف : هذا الحجر المعنوي لمصلحة...

آلين : حذار!

أوكتاف : لمصلحة طفل مسكين لم يعد موجودا للحيلولة دونه، ولاستنكار ما تفعلين!

آلين : كفى!

أوكتاف : هذا النوع من الكلّابة التي تضغطين بها على تلك الصغيرة التعسة... هذا الاستبداد الذي يختفي تحت مظاهر الحنان... ماما.. إنها تدعوك ماما!

آلين : كفاك، يا أوكتاف!



أوكتاف : ثم ماذا ... أوه! هذا أسـوأ من كل شيء.. هذا الباب الذي تواربينه، لأن الأمر يتعلق بشخص مشرف على الموت!

آلين : أيها البائس!

أوكتاف : (بقوة) لأن الأمر يتعلق بمحتضَـر... أخذت ألاحظك منذ لحظة، وأنت مع مارت. أنت التي لم تسـتطيعي أن تشعري بها قط... تلك الشـفقة التي خُدِعَـت بها ... هذا التهالك على الشـقاء والموت.. (بصوت مكتوم) هذا، إنه لفظيع، لو لم تجدي شخصا سيئ الحظ، محتضرا تضعينه في طريق ميريي، لَمَا سَمَحْتِ لها بأن تصنع حياتها من جديد.

آلين : هذا باطل، لقد قلتُ لها ذلك عشرين مرة...

أوكتاف : ليست الأقوال هي التي يُعْتَد بها، وأنت تعلمين ذلك جيدا.

آلين : لقد وعدتُها...

أوكتاف : بتسـامحك؟ ما من وسـيلة أضمن لتقييدها من ذلك. كان ينبغي المطالبة بأن تتزوج فتى سـليما، قويـا.. إنها خُلِقَتْ لتعيش، لتحب..

آلين : وهكذا، ريمون...

أوكتاف : كلا، كلا، لا تقولـي إن هذا من أجل ابنـك، إنه من أجلك أنـت، إنه على سـبيل... لا وجود لكلمـة يمكن أن تصف هذا، لا وجود لكلمة. قمتِ باسـتغلال حزنها، وهواجسها، وإعجابهـا بك... اسـتخدمتها جميعا لإحـكام تقييدها.. والآن عندما راودها الوهم بالإفلات، هاأنت أيضا...

آلين : أنت فصيح، ولسـوء الحظ، لديك من الأسباب ما يدفعك إلى النسـيان، ولأن تريد أن ينسـى كل من حولك. أما أنا، فأتذكر كل شيء، هذه هي جريمتي الكبرى، ومن الطبيعي أن تمقتني، إنك تمقتني في هذه اللحظة، يا أوكتاف... وإلا لما ألصقت بي هذه الصفة..... أنا، خائنة!



أوكتاف : ربمـا لم يكن هذا مـن الخيانة، ربما كنـت لا تدرين أنت نفسك...

آلين : (فـي نوع من الاحتقار) كلا، اذهب، الأمر لا يسـتحق هذا العنـاء، إني أعفيـك... لم تبق إلا كلمة أريـد أن أقولها.. ميريـي.. الظمأ إلـى التضحية، إلى المطلـق، ذلك الظمأ الذي يستولي عليها، إنسان مثلك لا يستطيع حتى أن يفطن إلى وجوده.

أوكتاف : ميريي؟ إنها تحب «شانتاي»، هذه هي الحقيقة».

آلين : هذا خطأ.

أوكتاف : إني أؤكده لك أنا.

آلين : لو كان ذلك حقا، فلتخبرني هي به في وجهي.

أوكتاف : لن تحصلي منهـا إلا على الأجوبة التي تتمنينها، إني أكرر عليك، لقد استعبدتِها.

آلين : ليس هذا ممكنا.

أوكتاف : فكرها الحقيقي، لن تعرفيه أبدا، هذه هي عقوبة المستبدين. بل، إنها هي نفسـها سـتكف عن معرفة هـذا الفكر حالما تكون معك تكون معك... والآن. أصغي إليّ، مادامت الأمور قد وصلت إلى هذا الحد... حسـن، لم يعد لي سـوى دور ينبغي أن أقوم به. هذا المساء، سأكون قد غادرت فرانكليو، لكيلا أعود إليها أبدا.

(نـراه وقد رفع يـده فجأة إلى صـدره. يمكث لحظة بلا حـراك، وعلى وجهـه تعبير عن الألم. يبـدو وكأنه ينتظر كلمة، ولكنها لا تأتي، ثم يخرج مهرولا)



المنظر العاشر

آلين، ثم ميريي

(تبقى آلين في بداية الأمــر صامتة من دون حراك، ولكن مــن الواضح أنهــا تناضل الكلمات التي تفــوّه بها أوكتاف من فوره. تغمغم وقد اســتولى عليها ضرب من الدهشــة الحانقة.

آلين : أنــا يصمني بالخيانة؟ ليس هذا حقا، ليس هذا حقا (ومع ذلك يشتد قلقها، فتتهاوى أخيرا على ركبتيها يائسة. وفي هذه اللحظة تدخل ميريي، وهي شــديدة الشحوب، وتقول بصوت هامس)

ميريي : كان ينبغي أن أقول له إني أحببته...

(ستار)

* * *



الفصل الثالث

(بعد عام. في بيت أندريه وميريي. صالون حسن الإضاءة ينفتح بواسطة نافذتين على شرفة. يوم من أيام نوفمبر. والساعة الرابعة)

المنظر الأول

ميريي، وأوكتاف

(ميريي جالســة على مقعد وثير، تشــتغل التريكو، يجلس إلى اليمــين أوكتاف الذي لم يخلع معطفه بعد، ويمســك بيده لفافة)

ميريي : ولكن ينبغي أن تخلع معطفك، إذ أخشــى أن تُصَاب بالبرد عند خروجك.

أوكتاف : شكرا، لن أمكث غير لحظة واحدة.

خادمة : (داخلة) هل دقّت سيدتي الجرس؟

ميريي : آنّا، ينبغي أن تعدي مدفأة القدمين للسيد. فأنا متأكدة من أنه سيعود بقدمين مثلجتين. وتستطيعين أن تغلقي مصاريع النوافذ البرانية (الشيش) فقد هبط الليل تقريبا.

الخادمة : سمعا وطاعة يا سيدتي.

(تخرج)

أوكتاف : ما هذا التريكو الذي تشتغلينه بهذا الحماس؟

ميريي : جوارب للأطفال الذين تحت رعايتي.

أوكتاف : (بلهجة عدائية) آه! أجل، تحت رعايتك.

ميريي : الواقع أننا ننظم حفلا للبيع في الشــهر المقبل، وأنا أعتمد على كرمك.



أوكتاف : تعلمين أنني لا أقدّر أبدا أعمال البر والإحسان التي تقوم بها الشابات. إنها فضيلة العجائز. إن المتزمتات، وراهبات الإحسان اللواتي تلتقين بهن في تلك المؤسسة...

ميريي : (في رزانة) إني أحب الراهبات حبا جمّا.

أوكتاف : تبا لهن! عندما يرى المرء الحياة التي ساقتك إلى هنا..

ميريي : أتُراك حريصا على أن تجعلني أتألم؟

أوكتاف : إطلاقا.

ميريي : على كل حال، ربما لم يكن ذلك يسيرا جدا عليك في الماضي، أتَذْكُر؟، كنتُ نَفورا، وكنتُ أُثار بسهولة. والآن، لم يعد هذا يحدث لي إطلاقا.

أوكتاف : الحمد لله.

ميريي : هذه علامة على أنني وجَدتُ طريقي.

أوكتاف : (بلهجة متباعدة) نعم، نعم...

ميريي : السلام الجواني.

أوكتاف : يا صغيرتي، إني أحمل إليك الكتاب... لقد صدر صباح اليوم.

ميريي : (بانفعال) آه! كتابنا...

أوكتاف : أوه! كلا، ينبغي ألا تقولي بعدُ «كتابنا». كان ذلك جميلا في حينه. (ميريي تهم بفض اللفافة) كلا، كلا، اطَّلعي عليه فيما بعد، كل ما أطلبه منك هو ألا تُطْلعيه عليه.

ميريي : أتقصد أندريه؟

أوكتاف : أجل، فهذا لا يعنيه في شيء. أولا، لأنه لم يكن موجودا هناك، ولهذا لا يمكن أن يهمه هذ الأمر. ثم، إنه قد يبدي ملاحظات... وأخيرا، أنا لا أدري شيئا. اتفقنا، أليس كذلك؟

ميريي : كما تشاء. ومع ذلك...



أوكتاف : إني حريص على ذلك. إذن، هاهو ذا، والآن أستطيع أن استعد للرحيل من دون نية سيئة.

ميريي : أبي!

أوكتاف : آه! كلا! ينبغي ألا تخلعي عليّ بعدُ هذا الاسم. هيه، أمازلتِ تنادينها بماما؟ الحقيقة ، إن هذا لم يعد يعنيني.

ميريي : لا أستطيع احتمال الشعور بأنك يائس.. إلى هذا الحد.

أوكتاف : لا داعي لاستخدام الكلمات الضخمة، أرجوك. لماذا تريدين أن أظل على تمسكي بالحياة؟

ميريي : (متلعثمة) إيفون... (يهز أوكتاف كتفه) الصغير...

أوكتاف : جاكو. أجل، في الأيام الأولى، حاولت، واعتقدت... ولكنه لا يشبه ابننا.. لا يشبه ابني. إنه سيبيع سيارات كأبيه، وسترين. كان ينبغي اتخاذ عادات جديدة. كل ما في الأمر، أن المسألة صعبة، كما تعرفين، في سني. لا يمكن أن يتخيل المرء كم هو صعب. خذي مثلا، القراءة. لا مجرد كتيِّب من حين إلى آخر، بل القراءة طوال أيام...

ميريي : (في رفق) هذا يرهق العينين.

أوكتاف : بعد بضع دقائق، ألاحظ أنني لست منتبها. هذا مضحك جدا... ربما لو كان لديك أنت ابن، ربما جعلني ذلك..؟ تصوري أنني منذ ستة أسابيع، تخيلت أن ثمة شيئا في الطريق. (حركة من ميريي) لست أدري بالضبط لِمَ تَوَارَدَ عليّ هذا الخاطر. (صمت) وهو، كيف حاله؟

ميريي : (في مرح مصطنع إلى حد ما) في المرة الأخيرة التي تحدثت فيها إلى طبيبه، كان مشجعا بشكل قاطع. وقال إنه بشيء من الحيطة والحذر يمكن أن نأمل الكثير. وفضلا عن ذلك، يبدو على أندريه التحسن منذ مدة.

أوكتاف : آه!



ميريي : وكان مــن الممكــن أن تلاحظ ذلك، مــن دون هذا الموقف المُسبَق.

أوكتاف : ليس عندي أدنى موقف مسبق.

ميريي : (متهيجة) أنت تريد على نحو مطلق، أن يسير كل شيء هنا إلى الأسوأ، لأنك تحلم من أجلي بسعادة مستحيلة لا أدري لها كنها، أجل، أجل، مســتحيلة، أنت لا تستطيع أن تُذعن لفكرة أنني قد وجدت ما أرْضِي به روحي.

أوكتاف : دائما روحك!

ميريي : ومع ذلك، فهذه هي الحقيقة. أنا موجودة، مادام هناك آخر يحتاج إليّ. إني أتذكر عبارة استرعت نظري في هذه الأيام الأخيــرة.. لا أدري في أيّ كتاب: «لا نبلغ الحياة الحقة إلا إذا ســمونا فوق أنفُســنا»، هذه الجملة، ألا تشعر بما فيها من جمال، ومن حق؟

أوكتاف : (في جفاء) أنا لا أحب الاستشهادات.

المنظر الثاني

الشخصان أنفسهما، وأندريه

(أندريه يدخل لاهثا إلى حد ما، وممسكا بيده برقية)

ميريي : (في شيء في العتاب) لِمَ لَمْ تأخذ المصعد!

أندريه : صباح الخير، يا خالي أوكتاف.

أوكتاف : (في برود) صباح الخير.

ميريي : ما هذه البرقية؟

أندريه : (يناولها إياها) لقد ســلموني إياهــا الآن. (يخفض صوته قليلا) إنها من الخالة آلين.



أوكتاف : (مرهفا سمعه) ماذا؟

أندريه : (مرتبكا، وبصوت أكثر ارتفاعا) إنها من.. الخالة آلين.

أوكتاف : (في برود) أهي عادت؟

أندريه : منذ هذا الصباح.

أوكتاف : وهل هي على ما يرام؟

ميريي : (بلهجة مترفِّعة) هذا ما نفترضه.

أندريه : ستأتي للغداء.

أوكتاف : (ناهضا) أما أنا، فسأرحل.

أندريه : (في خجل) أصْغِ إليّ، يا عماه...

أوكتاف : ماذا هناك؟

أندريه : من المؤلم لنا غاية الألم...

ميريي : أندريه، انتبه...

أندريه : أن نسمع بأن بين الخالة آلين وبينك...

أوكتاف : ماذا؟

أندريه : يوجد هذا... يوجد سوء تفاهم.

أوكتاف : لا وجود لأي سوء تفاهم. لم يوجد قط سوء تفاهم.

أندريه : ألا تعتقد أنه بالإرادة الطيبة من هذا الجانب وذاك؟..

أوكتاف : حقا!

أندريه : الرغبة المخلصة في التفاهم...

أوكتاف : ولكن كيف إذن!

أندريه : في سنك، يكون من البشاعة...

أوكتاف : (منفجرا) اهتم بشؤونك، أليس كذلك؟

أندريه : إذا استطعنا أن نُسْهم... ميريي، ألستُ على صواب؟

ميريي : (بصوت لا تعبير فيه) بلا شك.

أوكتاف : إلى اللقاء.

ميريي : متى تعود؟

أوكتاف : ســـأمرُّ، في يوم من الأيام.. آه! ولكن كلا. الواقع، أنها الآن بعد أن عادت...

ميريي : ابْعَثْ إلينا رسالة، إشارة تليفونية...

أوكتاف : هيه! التليفون وأنا... على كل حال، سنرى. ولكن، كل ما في الأمر، يا أندريه، لا كلمة عن هذا الموضوع. والمســـألة غاية في البساطة. عند أول تلميح، سأرحل، وإلى الأبد.

أندريه : يا خالي، يا لك من عنيد!

ميريي : أندريه!

أوكتاف : (متمالكا نفسه بصعوبة) إلى اللقاء.

(يخرج)

المنظر الثالث

ميريي، وأندريه

أندريه : إني مندهش من أنك لم تساندِيني.

ميريي : (مـــن دون أن ترد عليه) قلتُ لهـــم أن يجهزوا لك مقْدما(*) دافئا. لا بد دائما من تكرار كل ما أقول.

أندريه : المسألة لا تستحق كل هذا العناء. لماذا لم تجيبي عليّ؟

ميريي : إذا أردتَ أن أقـــول لك كل ما جـــال بخاطري، فإني لا أرى أنك كنتَ شديد اللباقة.

أندريه : وهل كانت المسألة مسألة لباقة!

(*) المقدم: خشبة توضع عليها القدم عند الجلوس، وهي ترجمة كلمة Talouret.

ميريي : ليس علينا أن نقوم بينهما بدور المُحَكِّمين...

أندريه : ومن الذي تحدث عن هذا؟

ميريي : ولا حتى أن نتدخل بأي صورة من الصور.

أندريه : أمّـــا أنا فلي رأي آخر. حـــين أفكر في الوحدة التي تعانيها الخالة آلين... على كل حال، ضعي نفسك مكانها.

ميريي : هذا شـــيء غاية فـــي الصعوبة. (صمت) أنا ســـعيدة لأننا سننعم بلحظة هدوء صغيرة قبل وصولها.

أندريه : أتريدين أن أطالع لك؟

ميريي : كلا، كلا... اجلس بجواري فقط، واضعا يديْك بين يديّ.

أندريه : شـــاهدت في شـــارع فيكتور هوجو «بيانو» من طراز جافو معروضا للبيع بثمن معقول.. ألا تحبين الذهاب لتجربته؟

ميريي : (في حنان) شـــكرا، يا عزيزي. أنت تعـــرف ما قلتُه لك... الموسيقى لا تنقصني.

(صمت)

أندريه : ألستِ حزينة؟

ميريي : (بلا حماس) كلا.

أندريه : كنت أخشى دائما أن تحقدي عليّ لما حدث.

ميريي : هذا شيء صبياني.

أندريه : هل أخبرت العم أوكتاف؟

ميريي : كلا.

أندريه : (بحـــرارة) هذا أفضل. أنا لا أحـــرص على أن يعرف ما لا يسير على ما يرام.

ميريي : وأنا مثلك.

أندريه : والخالة آلين؟

ميريي : ماذا؟



أندريه : ألم تشركيها في خيبة أملنا؟

ميريي : ولكنها لم تكن تعرف أن لدينا أسبابا للأمل.

أندريه : (بصوت خفيض) أنا، كتبتُ إليها!

ميريي : من دون علمي؟

أندريه : لماذا كل هذا الاستسرار حول شيء بهذه البساطة وهذا الجمال؟ أنا أعرف ما سيبعثه من سرور في نفسها.. ولا أجد من نفسي الشجاعة بعد لإخبارها... يبدو كأنها ترصد كل ما يمكن أن يحدث لنا من أمور سعيدة.

ميريي : إنه حق تماما، هذا الذي تقوله. ولكنني لا أحب كثيرا - على وجه التحديد - أن يتخذوا هذا الموقف.

أندريه : (عاتبا) تقولين «يتخذوا» عند الحديث عن الخالة آلين؟

ميريي : عجبا، إنك لمضحك.

أندريه : (بمرارة) هذا عجيب، أحيانا، يكون عندي الانطباع بأن مشاعرك نحوها ليست كما كانت في الماضي تماما.

ميريي : هذا قول تنقصه الدقة، ولكن، إذا حدث على سبيل المصادفة أن...

أندريه : سيكون هذا مصدر حزن عظيم لي.

ميريي : وما تأثير هذا عليك؟

أندريه : أرأيتِ، أنت لم تعودي تُنْكرينه.. بين الخالة آلين وبيني، ثمة شيء كالرابطة.

ميريي : (في عمق) هذا صحيح في جوهره.

أندريه : آه... يا للطريقة التي قلت بها ذلك!

ميريي : ولكن، أتعرف أنك تفزعني؟

أندريه : الخالة آلين - في حياتنا - شيء مهم!

ميريي : أوه! أنا أعرف ذلك جيدا.



أندريه : قد يبدو لك هذا غريبا، ولكنني أذهب إلى القول بأنها شخص أهم من أمي.

ميريي : (تتنهد) من الجائز أنك على صواب.

أندريه : أولا، إنها في حاجة شديدة إلينا... لا شيء في حياتها سوانا.

ميريي : يمكن أن يقال مثل هذا القول أيضا عن زوجها.

أندريه : كلا، أولا، لأنه أقل حساسية بكثير. وهو يفتقر إلى الرقة... ألا ترين ذلك؟... أنا الذي أعتقد أنك ستكونين في غاية من السرور لرؤيتها مرة أخرى..

ميريي : ولكن، أنا مسرورة، كل ما في الأمر..

أندريه : ماذا؟

ميريي : كأنني أشعر بقليل من الخوف. لا يُعرف أبدا ما تحمله الخالة آلين، معها بالضبط.

أندريه : لم أعرف شخصا أكثر منها وفاءً.

ميريي : حين تكون حاضرة، أو منذ أن يشعر المرء بأنها قريبة منه، لا يعود كما كان .. وكأنما يرى كل شيء في ضوء آخر.

أندريه : (في قلق) ماذا تقصدين؟

ميريي : هذا شيء لا أهمية له.

أندريه : أنا - كما لعلك تفهمين - أحب أن أكون لها... شيئا كابنها الذي فَقَدَتْه. أليس كذلك؟ لقد شعرت شعورا قويا بأنها تبنتني. وأنت؟

ميريي : (بسخرية خفية) أجل، أجل: أنا مثلك، لقد أحسست فورا بهذا الانطباع.

(طرقات على الباب)

أندريه : ما هذا؟ (يذهب ليفتح الباب) كيف، أهذا أنت، يا خالتي آلين؟ لم نسمعك تدقين الجرس.



المنظر الرابع

الشخصان أنفسهما، وآلين

آلين : يا طِفْلَيَّ!
(تعانقهما)

ميريي : (في لهجة آلية) ماما!

آلين : يبدو لي أن الوقت الذي فات منذ أن التقينا كان طويلا جدا.

أندريه : ولنا نحن أيضا!

آلين : أولا، أي صحة تلك التي تبدو عليك؟ (إلى أندريه) يكاد المرء يقول إنك أقل نحافة مما كنت منذ ثلاثة شهور؟

أندريه : إن صحتي على ما يرام تماما.

آلين : (في اندفاعة) ما أشد غبطتي!
(حركة من ميريي)

ميريي : هِمّ! على ما يرام تماما! لا تبالغ في شيء، ومع ذلك، فإن صحته أحسن من الشهر الماضي.

آلين : وأنت، يا عزيزتي؟ (تتفحصها بعناية) أنت لم...

ميريي : يبدو أن أندريه قد كتب إليك؟...

آلين : (في انفعال مفرط) أتُرَاها كانت غلطة؟

أندريه : (وكأنما في شيء من الابتئاس) منينا بخيبة أمل.

آلين : أهو حادث؟

ميريي : هذه كلمة كبيرة جدا.

آلين : (بصوت يخنقه الانفعال) ماذا جرى؟

ميريي : (بعصبية متزايدة) ينبغي ألا يؤخذ هذا الأمر مأخذا مأساويا.



أندريه : ذهبنا للعشاء عند أولاد عم يقطنون شارع «لاسومسيون».

آلين : (في لهجة استنكار) تخرجان في المساء!

ميريي : وعند عودتنا، اشتكى أندريه من أنه متعب قليلا، وفي ذلك الحي يصعب على المرء أن يجد سيارات في المساء. ومرت سيارة أجرة خالية، فعدوتُ قليلا لكي ألحق بها.

أندريه : حاولت أن أمنعها من الجري.

آلين : كان الخطأ في الذهاب إلى هناك.

ميريي : وليس في الإمكان أن نترهّب أيضا... ومن جهة أخرى. لا أحب أن يخرج أندريه من دوني، إذ لا أشعر بالاطمئنان حين يكون بعيدا. ففي أحد الأيام، كاد يقع مغشيا عليه... ولم يكن هو الذي قَصّ عليّ ذلك.

آلين : أنا يائسة... (إلى أندريه) حين تلقيت خطابك أحسست بابتهاج ليتك تعرف مقداره!

أندريه : طبعا!

ميريي : كل هذا يُثْبِت أنه لا ينبغي التصريح بمثل هذه الأخبار قبل أوانها كثيرا.

آلين : وكنتُ قد كوّنتُ كثيرا من المشروعات فعلا!

ميريي : هذا شيء يفتقر دائما إلى الحيطة.

أندريه : وبعد كل شيء، إذا مضت بضعة أشهر من الآن...

آلين : فلنأمل... ولكن، أتوسل إليك يا عزيزتي، أن تكوني عاقلة.

أندريه : إنها تريد أن تعود غدا إلى جمعيتها الخيرية، وهذا مبكر قليلا.

آلين : أأنت مشغولة بجمعية خيرية؟

ميريي : ينبغي أن أملأ حياتي قليلا.

أندريه : لا شك في أن خالتي آلين ترى مثلي...

ميريي : (بجفاء) ماذا تريد؟ إني آسفة.

(صمت)

آلين : تَعْلَمان أنني لم أر شيئا بعد في شقتكما.

ميريي : إننا لم نستقر بعد.

أندريه : سترين مع ذلك أنها لائقة جدا.

آلين : لم أكن أتصور حجرة الجلوس بهذه الرحابة. ومن الحق أنكما حين تحصلان على بيانو...

ميريي : لن يكون لنا.

آلين : لماذا؟

ميريي : أندريه لا يحب الموسيقى. وأنا – فضلا عن ذلك – قد علاني الصدأ...

آلين : يبدو لي من الخسارة أن تهجري...

ميريي : (في مرارة) خسارة! لمن؟ أعزف لنفسي وحدها.. وفضلا عن ذلك، متى أجد الوقت للدراسة؟

آلين : ها أنت تجدين الوسيلة للذهاب إلى جمعية خيرية.

ميريي : (في حيوية) هذا شيء مختلف، فهناك، أكون نافعة.

آلين : (إلى أندريه) في الواقع، أنا أفهمها قليلا.

أندريه : أجل، إن هذا من رأيك. (حركة من ميريي) ترى الخالة (مخاطبا ميريي) آلين أنه من الطبيعي جدا أن يُكرس المرء نفسَه لأمر ما. وأنا أتذكر أن ريمون كان يقول أحيانا: «هذا عجيب، إن أمي إنسانة تحب التعساء»، وأضاف: «أما أنا، فإنهم يثيرون خوفي».

(صمت)

ميريي : (متمالكة نفسها) وما الأنباء التي تحملينها إلينا من هناك؟

آلين : لا أرى شيئا مثيرا يستحق أن أقصه عليكما.

أندريه : أكلهم على ما يرام، عند آل موريل؟

آلين : على ما أظن. قلت لك إن علاقتنا انقطعت.

أندريه : وذلك الولد الذي كنت أراه مزعجا إلى أبعد حد؟

آلين : (مرتبكة) لا أدري إلى من تشير.

أندريه : شانتاي. إلام صار أمره؟

آلين : (مذهولة) ولكن...

أندريه : ماذا؟

آلين : أنا...

أندريه : أحدث له شيء؟

آلين : أنتما لا تقرآن الصحف إذن؟

ميريي : وهل تهتم به الصحف؟

آلين : (بصوت شديد الخفوت) حادث سيارة.

أندريه : كيف؟

آلين : وقع له حادث سيارة.

أندريه : ثم ماذا؟ (حركة من آلين) هل مات؟

آلين : أجل.

أندريه : يا للفتى المسكين! (يلتفت صوب ميريي التي لم يتحرك وجهها) أتسمعين؟

ميريي : إنه لشيء محزن.

أندريه : لا بد أنه كان يقود سيارته كالمجنون.

ميريي : (على الرغم منها) من أدراك؟

أندريه : كانت تبدو عليه هيئة المغامر.

آلين : (متحفظة) لا أعتقد أنه هو الذي كان يتولى القيادة.

أندريه : أكان هناك ضحايا آخرون؟

آلين : وهي جُرِحت جرحا خطيرا.



أندريه : هي؟

آلين : الإنسانة.. التي كانت معه.

أندريه : آه، عشيقته.

(صمت)

ميريي : (مسـيطرة على نفسـها) ولم تحدثيني بشـيء عنك، عن مشـروعاتك؟ (تمرر يديها علـى جبينها) إن لـدي دائما صداعا غامضا، هذه الأيام الأخيرة.

أندريه : أتريدين قرصا؟

ميريي : كلا، شكرا.

أندريه : (إلـى آلين) ذهبتُ لمشـاهدة الشـقة الصغيرة في شـارع أودينو.

آلين : لن آخذها.

أندريه : أحسن، فقد بدت لي كئيبة.

آلين : سأبحث عن بنسيون عائلي.

أندريه : هم! أنت التي تمقتين الضجة، حركة الغدو والرواح...

آلين : لن أنزل إلا لتناول الوجبات.

أندريه : يا لها من حياة!

ميريي : كثير من الأشخاص خُلِقوا لمثلها.

أندريه : وفي الانتظار؟

آلين : لوتيسيا.

أندريه : (فـي حمـاس) آه كلا، فهـذا – مثلا – ما لـن نقبله. هنا حجرة لا نفيد منها.. كلا، كلا، لا تحتجي. سـأقول لهم أن يضعوا المناشـف، والملاءات، وسيذهبون لإحضار حقائبك من لوتيسيا.

(يخرج)



المنظر الخامس

ميريي، وآلين

آلين : (إلـى أندريـه الذي يخـرج) عجبا لأندريـه، عجبا، ولكن هـذا مضحك. (يغلق الباب مرة أخـرى) ميريي، عزيزتي، أخبرينـي عن هذه الحادثـة التي وقعت لـك... هذا جد فظيع، لا أسـتطيع احتمال فكرة أنـك كدت... وهو، كيف حاله؟ إنه شديد الشحوب.

ميريي : على شرط أن يتصرف بحكمة...

آلين : أجل، أجل، يا إلهي، على شرط...

(تتوقف)

ميريي : (في سـخرية قاتمة) أن يتسـع لنـا الوقت ليكـون لدينا آخر...

(صمت. تنظر إليها ميريي وعلى وجهها تعبير عن البغض، آلين لا تلحظه)

آلين : عندما قرعت الجرس منذ لحظة، لا يخطر على بالك مدى القلق...

ميريي : بلى، بلى، إني أعرف..

آلين : يساورني الخوف أحيانا من ألا تكوني سعيدة...

ميريي : (في جفـاء) أندريه طيب جدا... وهـو يحبني حبا مفعما بالحنـان. وأنا أحيا الحيـاة التي اخترتُهـا... (في عنف مباغت) التي اخترتُها أنا.

آلين : (على الرغم منها) أأنت واثقة بذلك كل الثقة؟

ميريي : لا أسمح لك بالشك في ذلك.

آلين : (وكأنها تلقتّ ضربة) يا مغيث!

ميريي : (بصوت أخذ البكاء يطغى عليه شيئا فشيئا) إذا كنتُ قد قررتُ أن أتزوج أندريه، فذلك لأني أعرف أنني لن أجد غيره سوى خيبة الأمل.. سوى المرارة، ولم تكن عندي لا القوة، ولا الرغبة، أتسمعين؟ ولا الرغبة للبحث عن ضروب معينة من.. الإشباع. وكان ما ينقصني هو راحة البال، وسكينة القلب. وقد أتت... وإني لأ...

(تنخرط في البكاء)

آلين : ولكنك تبكين! أنت تبكين! إنك تكذبين على نفسك. (حركة من ميريي) يا صغيرتي! إذن، فهذا حق! إنها غلطتي! وهذا التعس «شانتاي»، كان يمكن...

ميريي : (في نوع من الهياج) ولكن ماذا تحاولين دفعي إلى قوله؟ إن ضروب ندمك تصنع من الشر بقدر ما يصنعه استبدادك! آه! إني أمقتك!

المنظر السادس

الشخصان أنفسهما، وأندريه

أندريه : ها هي ذي الأوامر قد أُعْطِيَتْ. وبعد، ماذا حدث؟

آلين : هذا بمناسبة ما أصابكم من خيبة أمل.

أندريه : (في قلق متزايد) ولكن المسألة على كل حال ليست نكبة حقيقية.

آلين : بالطبع.

أندريه : إنها ليست كأننا فقدنا طفلا. ثم إن الحياة مازالت كلها أمامنا.

آلين : (بانطلاق مصطنع) أجل، بكل تأكيد، الحياة كلها! (ينظر إليها أندريه، فتبدر منه حركة تراجع) يا عزيزتي، ألا تعتقدين ذلك؟

ميريي : كلا، كلا. كفانا أقوالا.. تكونان لطيفين جدا لو تركتماني.. فلم أعد أستطيع، لم أعد أستطيع... (تجلس على مقربة من المدفأة، وتستغرق في تأمل ألسنة اللهب. حوار صامت بين أندريه وآلين، تخرج هذه الأخيرة في رفق بعد أن تشير إلى أندريه بالبقاء)

المنظر السابع

أندريه، وميريي

أندريه : (مخاطبا نفسه في قلق) الحياة كلها!

(صمت. يقترب من ميريي، يركع إلى جوارها، ويسدد إليها بصره)

ميريي : طلبتُ أن تتركاني وحدي.

أندريه : ثمة شيء لا أفهمه. أنت لا تتحدثين كالمعتاد.

ميريي : لقد حذرْتُك.

أندريه : ليست هذه غلطة الخالة آلين. إنها لم تتغير.

ميريي : (في حدة) هذا صحيح. (فجأة) أصغ إليّ، أنت عَرَضْتَ عليها منذ لحظة أن تقيم معنا...

أندريه : مؤقتا.

ميريي : حتى مؤقتا.. الأمر غاية في البساطة: أنا، لا أريد.

أندريه : لماذا؟ (صمت) لماذا يا ميريي؟

ميريي : هذا شيء لا جدوى منه.. فلن تفهم.

أندريه : (بقوة) إني أريد أن أفهم. لن تنكري على كل حال أن علينا واجبات كبيرة نحوها.

ميريي : (في عنف) ليس هذا صحيحا، فنحن لا نلتزم بأي واجبات نحوهــا.. ثمة حقيقــة واقعة: أن الحيــاة لا تُحْتَمَل إلا إذا كانت هي بعيدة!

أندريه : (بصــوت مرتجــف) كيــف! إذن.. فأنت تأخذيــن عليها مأخذا؟

ميريي : (تعود إلى تمالك نفسها) ما من مأخذ خاص. ولكنها إنسانة لا تمَّحي أبدا... إنسانة تحول بينك وبين الوجود.

أندريه : أتأخذين عليها أن لها شخصية قوية جدا؟

ميريي : فليكن.

أندريه : أقوى من شخصيتك؟

ميريي : هذا جائز.

أندريه : ليس هذا من الامتياز في شيء.

ميريي : اتفقنا، أنا تافهة.

أندريه : ولمــاذا تتبدّلين عندما تكون موجــودة؟ أؤكد كذلك أنه منذ لحظــة، كان يمكــن أن يقال عنــك إنك تعســة.. وإنك لا تحبينني. أو لعلها الحقيقة؟

ميريي : أندريه!

أندريه : قولي: أهذه هي الحقيقة؟

ميريي : أنت مجنون: كلا.. كل ما في الأمر، أنها في شــدة الخوف – أفاهم أنت – من ألا تسير كل الأمور إلى الأحسن.

أندريه : لأنها تحبنا!

ميريي : إنها تتمنى – في الظاهر – سعادتنا.

أندريه : أنتِ تلومينها؟ هذا شيء بشع.

ميريي : إن لها أسبابا قوية للغاية لتمنِّي تلك السعادة.

أندريه : ما معنى هذا؟

ميريي : (متمالكةً زمام نفســها) انظر: هذا شــيء فريد، لم يمض على مجيئها إلى هنا غير ســاعة، وهــا نحن أولاء – لأول مرة منذ زواجنا – نتكلم بلهجة.. كأنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من التحطيم.. لا بأفعال تأتيها، بل بمجرد وجودها. أترى، أعتقد أنها قد تعذبت كثيرا، ومن ثم...

أندريه : أنــت لم تُجيبي عليّ. لماذا كانت لديها أســباب قوية للغاية للتمني؟

ميريي : ينبغي ألا تعلّق أهميةً كبيرة على كلمة في الهواء.

أندريه : (في رفق) هذه المرة، أنت تكذبين.

ميريي : ولكن، افهم إذن فــي نهاية الأمر، لوأننا لم... لو لم تتحول الأمور إلى الأحســن في مصلحتنا، ألعلها كانت توجه هي المؤاخذات؟

أندريه : لماذا؟ وأين خطؤها في ذلك؟

ميريي : أنا لا أقــول إن هذه تكون غلطتها، ولكنها كانت خليقةً بأن تفكّر في مثل هذا.

أندريه : لا أفهم.

ميريي : للأسف.

المنظر الثامن

الشخصان أنفسهما، وآلين

آلين : (من الخارج، وبرفق) أأستطيع الدخول؟

أندريه : تعاليَ! يا خالتي، نحن في حاجةٍ إليك.

ميريي : يا مغيث!

آلين : (تدخــل. من الواضح أنها قد بكت، تتحدث بصوت مكتوم) يــا طفليّ، اســتمعا إليَّ من دون مقاطعتــي، من فضلكما.



لقد أمعنت الفكر. إذا أنا تركتُ نفسي تقتنع بالبقاء إلى جواركما، حتى لو كان ذلك لبضعة أيام، فمن المحتمل أن نندم على ذلك فيما بعد. وربما كان ذلك نهاية شيء بيننا نحن الثلاثة.

أندريه : (في وحشية) لماذا؟

آلين : (مذهولة) ولكن...

أندريه : وعلى هذا، لم يكن موقف ميريي مفاجأة لك؟

آلين : (في إعياء) أي موقف؟

أندريه : أوه! يا لها من مواجهة بينكما!

آلين : (متلعثمة) أتفهم، إنني أذكِّرها بكثير من الذكريات الأليمة، إنها في حاجة إلى أن تحيا بنجوة من الماضي.

أندريه : ها هو ذا شيء آخر!

ميريي : (بصوت متهدج) كأنك تريدين أن ترغمينا على إلحاق الأذى بأنفسنا.

أندريه : (في قلق) لديك إذن ما يمكن أن تؤذي به نفسك كل هذا الأذى؟ ومع ذلك، في الماضي... وكأنما وقع شيء لا تستطيع ميريي أن تغتفره لك. وأنت نفسك، كأنك غير واثقة (فجأة) خالتي آلين، هل أَلْحَحْتِ عليها كثيرا لكي تتزوجني؟

ميريي : (خافضة العينين) كلا.

آلين : اعتقدت أنكما ستسعدان.

أندريه : وإننا لكذلك. (تأتي ميريي بحركة معناها نعم) إذن! (بنبرة مصطنعة) ثمة حياة من السعادة تمتد أمامنا... باستثناء سوء الحظ طبعا. فهناك الحوادث مثلما جرى لشانتاي.

آلين : (على الرغم منها) لماذا تتحدث عن شانتاي؟

ميريي : (في حدة مباغتة) ماما، قولي، ألأنك تستطيعين من هنا



إحداث أكبر قدر من التحطيم دخلت هذه الحجرة؟ أتراك تخشين ألا تبقى هنا أي أثارة من حياة؟ كلا، كلا، لا تصطنعي عيني الضحية هاتين... آه! أنت مخيفة، بعد أن حَطمتِ قلبينا هاأنت تأتين لإرغامنا على أن نطلب صَفْحَكِ!

أندريه : (في يأس) ميريي، أكنتِ تحبين إذن هذا الشانتاي كل هذا الحب؟

ميريي : ولكن، لست أدري... ولكن، لست أدري.

آلين : وداعا.

ميريي : اذهبي، إني أقرأ ما في قلبك. لقد أَسْقَطْتِ ضعفي، وندمي...

آلين : وداعا. إني لست حاقدة عليك.

(تخرج)

المنظر التاسع

أندريه، وميريي

(أندريه غارق في تأمل حزين. ميريي تُقْبِل عليه في رفق، وتضع راحتيها على جبينه)

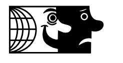
ميريي : (بصوت يرتعش) والخلاصة.. أن الحال ستكون كما كانت من قبل.. لم يتغير شيء بالنسبة إلينا.

أندريه : (في سخرية ملموسة) في الواقع.

ميريي : سترى، مع مرور الوقت.

أندريه : الوقت. يلزمنا وقت، وكان يلزمنا وقت. (حركة من ميريي. بغتة) لو لم أكن مريضا، أكنت تتزوجينني؟

ميريي : ما أعجب شأنك، يا أندريه.



أندريه : لقد أَجَبْتِ عليّ. شكرا.

ميريي : أنت لا تفهم.

أندريه : بل لقد بدأت أفهم، بالضبط. إني هالك، أليس كذلك؟

ميريي : (في اندفاع) ستعيش، وسأرعاك، وحتى لو...

(تهمس كلمة في أذنه)

أندريه : (في حزن) فلنأمل... آه! قلت ذلك مثلها... ميريي، أتعتقدين حقا أنها شريرة؟

ميريي : كلا. إنها امرأة مسكينة.

أندريه : قالت وداعا.

ميريي : (في قلق) أأنت متأكد من أنها قالت وداعا؟ إنها لا يمكن مع ذلك أن تفكِّر في... أليس كذلك؟ ليس هذا ممكنا؟

أندريه : ولكن...

ميريي : لقد تعذبت كثيرا... وباختصار، ماذا يمسكها؟... إنها ليست مؤمنة... ثم، إذا هي - يا أندريه - إذا هي قتلتْ نفسها... (في حيرة) فلن تعود الحياة ممكنة. ينبغي بأي ثمن...

(صمت - تذهب ميريي إلى منضدة المكتب، وتبحث عن شيء ما)

أندريه : عمَّ تبحثين؟

ميريي : (في نوع من الاستسلام المضني) عن رقم لوتيسيا.

(ستار)

* * *

هذه السلسلة:

للكويتيين تجربة مبكرة في المسرح، فقد أدرك رواد العمل الثقافي المستنيرون أهمية دوره الحيوي وما يمكن أن يقدمه من تطور وتنمية لمجتمعهم، وعلى الرغم من اقتران انطلاقة المسرح الأولى بالمؤسسة التعليمية (المدرسة) مع بداية ثلاثينيات القرن الماضي، فإنه لم يكن مسرحا تعليميا تربويا فقط، بل كان مسرحا يشارك بنصوص جادة، قدم بعض قضايا المجتمع والحياة العامة إلى جانب تناوله أمجاد العروبة وتاريخها الإسلامي، وامتدت عروضه خارج أسوار المدرسة خلال العطلات الصيفية وخارج الوطن بصحبة الدارسين في القاهرة في بيت الكويت.

وظلت الدولة على اهتمامها بهذا الفن وتشجيعه ورعايته بالتمويل والإشراف بعد انتقال مسؤوليته إلى دائرة الشؤون الاجتماعية، وتخصيصها إدارة للمسرح والفنون ورعاية شؤون الفرق المسرحية، حتى انتقلت إلى وزارة الإرشاد والأنباء (وزارة الإعلام في ما بعد)، وتطور معهد الدراسات المسرحية إلى معهد عال لدراسة الفنون المسرحية أكاديميا.

وفي سبيل تنمية الوعي الفني المسرحي وإثرائه فكريا وأدبيا، ارتأت الوزارة إصدار ونشر سلسلة من المسرحيات العالمية المترجمة، لكبار الكتاب المتميزين على الساحة المسرحية العالمية، وأن تكون ترجمتها للعربية عن اللغة الأصلية للنص المسرحي، وتخضع للتحكيم العلمي، وكان يشرف عليها الشاعر الراحل أحمد العدواني، والدكتور محمد موافي أستاذ الأدب الإنجليزي، والمسرحي الكبير زكي طليمات، وصدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر عام ١٩٦٩ يحمل عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم» للكاتب الغواتيمالي مانويل غاليتش، وترجمة الدكتور محمود علي مكي، وتوالى صدورها إلى أن بلغت ٣١٣ عددا حتى عام ١٩٩٨، بعد أن انتقلت مسؤولية إصدار السلسلة إلى المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وقد تناولت نحو ٤٢٠ مسرحية عالمية (مع ملاحظة أن بعض الأعداد قد اشتمل على أكثر من مسرحية)، ولكل مسرحية مترجم ومراجع ودراسة تحليلية فنية ونقدية شملت خصائص النص وكاتبه.

عندما قرر المجلس الوطني في نوفمبر ١٩٩٨ دمج هذه النصوص المسرحية العالمية المترجمة ضمن نصوص لأعمال أدبية أخرى مختلفة بين القصة والرواية وأدب الرحلات والسير الإبداعية، وصدرت تحت عنوان «إبداعات عالمية»، وبعد مضي تسعة أعوام على ذلك، أبدى كثير من المهتمين بشؤون الحركة المسرحية في البلاد وخارجها الشوق إلى إعادة طباعة بعض هذه النصوص المسرحية الإبداعية المختارة.

لقد اعتبرت سلسلة «من المسرح العالمي» أضخم مشروع قومي عربي من منظور الترجمة والتركيز على مجال فني متخصص واحد، وإنه ليسعد المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب إعادة هذا الكنز المفقود إلى أيدي عشاق المسرح وهواته في الكويت ومختلف أرجاء الوطن العربي، في هذا الإصدار الثاني الذي بدأ بإعادة طبع رائعة شكسبير «العين بالعين».

بدر سيد عبدالوهاب الرفاعي

سعر النسخة

الكويت ودول مجلس التعاون الخليجي	**نصف دينار**
الدول العربية الأخرى	**ما يعادل دولارا أمريكيا**
خارج الوطن العربي	**دولاران أمريكيان**

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: **28623** - الصفاة - الرمز البريدي**13147**

دولة الكويت